أعلام المسلمين

١٧



عبد الغني الدقر

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

١٧



تأليف

عبد الغني الدقر

دار القلم
دمشق

الطبعة الرابعة
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١


أحمد بن حنبل
إمام أهل السنة
١٦٤ - ٢٤١هـ

هذا الرجل

«خرجت من العراق؛ فما خلَّفتُ بالعراق رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أتقى من أحمد بن حنبل».

الإمام الشافعي

«أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل؛ لا والله، ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد بن حنبل، ولا على طريقة أحمد ابن حنبل».

يحيى بن معين

«كان حافظاً متقناً فقيهاً، ملازماً للورع الخفي، مواظباً على العبادة الدائمة، أغاث الله به أمة محمد ﷺ؛ وذلك أنه ثبت في المحنة، وبذل نفسه لله، فعصمه الله تعالى، وجعله علماً يقتدى به، وملجأ يلجأ إليه».

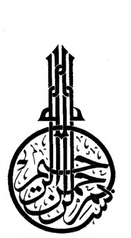
ابن حبّان

«الإمام البارع، المجمع على جلالته وإمامته وورعه وزهادته ووفور علمه وسيادته».

الإمام النووي

«شيخ الإسلام وسيد المسلمين في عصره، الحافظ الحجة، كان إماماً في الحديث وضروبه، إماماً في الفقه ودقائقه، إماماً في السنة وطرائقها، إماماً في الورع وغوامضه، إماماً في الزهد وحقائقه».

الإمام الذهبي



المقـدّمَة

الحمد لله الذي أنعم على الإسلام والمسلمين بأئمة هادين مهديين، والصلاة والسلام على نبي الرحمة الذي تلقى وحي ربه وبلّغه، حتى أكمل الله دينه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الراشدين المرشدين.

وبعد: فما أستطيع أن أدعي أني في هذا الكتاب بلغت ما أريد، ويريد مَنْ يعرف الإمام حق معرفته، فلا يحمل هذا القدر من الكتاب أكثر مما كتبت. فالإمام أحمد رجل النصف الأول من القرن الثالث، فليس من أحد في عصره بلغ من الشهرة والثقة والاعتقاد ما بلغه، فهو أئمة في إمام، ذلك أنه كان رحمه الله: إماماً في الورع، إماماً في الزهد، إماماً في التعفف، إماماً في طريقته الفقهية، إماماً في عقيدته المحافظة، إمام أئمة الحديث في عصره، إماماً في الثبات والصبر على أشد البلاء في سبيل إنقاذ السنة وصونها والدفاع عنها، فهو الجبل الراسخ لا تُزعزعُه الأهواء، ولا تميد به العاصفات. وهو الرباني الذي أجمع علماء عصره - إلا من لم يعبأ الله بهم - على أنه القدوة الثابتة التي تأطِر[1] الناس إلى رسالة الله لا عوج فيها ولا أمتاً، وإلى ما كان عليه العمل في عهد رسول الله ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم - ومن بعدهم من التابعين.

---

(١) أي تعطف الناس وتميل بهم.

وقد عرف الإمام أحمد وشهر بأنه إمام مذهب، ومع ذلك أراد بعض العلماء أن ينفي صفة الفقيه عنه، وكان هو يحب أن يتجرد من هذه الصفة، فما كان يرى أن ينقل أحد فقهه وفتاواه، بل ما كان يرى أن ينقل فقه أحد من المجتهدين، فهي آراء قد تصيب وقد تخطىء، فالدين كله ما قال الله تعالى، وما قال رسوله ﷺ، ثم ما أفتى الصحابة به، لأنهم شهدوا الوحي، وعرفوا مقاصد الشريعة، ولا يعتد بعد ذلك باجتهاد أحد ولا رأيه ما لم يكن مُدعَّماً بالكتاب والسنّة. وما كان يأخذ من القياس إلا الواضح، وعند الضرورة كما نصحه بذلك الإمام الشافعي. ومع ذلك فقد كتب أصحابه من فتاويه وبعض أصوله نحواً من ستين ألف مسألة ـ كما قيل ـ كانت أساس المذهب.

ويتميز فقه الإمام أحمد في العبادات أنه لا يخرج عن الأثر قِيد شِبعرة، فليس من المعقول عنده أن يعبد أحد ربه بقياس أو برأي، وكان رسول الله ﷺ يقول: «صلوا كما رأيتموني أصلي» ويقول في الحج: «خذوا عني مناسككم». ويتميز في المعاملات أنها سهلة مرنة صالحة لكل بيئة وعصر، فقد تمسك بنصوص الشرع التي غلب عليها التيسير لا التعسير.

ولقد ابتُلي بمحنة خلق القرآن التي كانت سُبّةَ الدهر، تلطَّخ بها ثلاثة من الخلفاء العباسيين متعاقبين: المأمون والمعتصم والواثق؛ وذلك حين أراد أولهم المأمون ـ بتأثير بعض كبار ذوي الأهواء ـ أن يحمل علماء الأمة على القول بخلق القرآن، وأدلى المأمون ومن وراءه بحجتهم مستكبرين، مستذرين بسيف الخلافة، وقدرتها على الجلد والسجن والتكبيل والتنكيل. واقتنع بهذه الحجة من أُخذ بالرعب فهَلَع، ولكن الإمام أحمد وقليلاً غيره كانوا بثباتهم وصبرهم

أقوى من سلطان الخلافة، فثبت الله بهم عقيدة الناس، وعلت كلمة الله، وانتصر الحق فانتصر الإمام.

ولولاه لقال الناس قولةَ الحُكم ومَن وراء الحكم، ولكن الله سلَّم بصبر الإمام واستهانته بالموت، حتى كانوا يقولون: «أبو بكر في الردة وأحمد بن حنبل في المحنة».

وعرف ـ رحمه الله ـ بأخلاقه الإسلامية: من ورع أخذ نفسه به أشدَّ الأخذ، يرافقه زهد لا يتكلفه، قدوته فيه رسول الله ﷺ.

ومن عظيم ما عرف به تعفُّفُه، له بذلك قصص روائع، فقد يسترزق بأدنى العمل، ولا يتناول من صديق ولا شيخ ولا حاكم؛ لا قرضاً ولا هبة ولا إرثاً لأحد يؤثره به. وقد يقبل هدية، ولكنه يعجل في إعطاء مَن أهداه هدية مثلها أو خيراً منها. فالإمام بذلك رفع شأن العلم والعالم، ولا ينتفع بعلم عالم لتكون يده السفلى. وستجد تفصيل ما أوجزناه هنا مبسطاً في الكتاب، وعلى قدره.

هذا وقد يجد امرؤ ـ في هذا الكتاب ـ آراءً وأحكاماً ومذاهب وكلمات لا يشعر لها في نفسه رضىً ولا قبولاً، لأن له مقالة أو عقيدة نزع بهما إلى أئمة يقتدي بهم، ويحمد مذهبهم، فما نحن هنا برادِّيه عما يذهب إليه، وإنما نحن بسبيل أن نصور ـ قدر المستطاع ـ حال من نكتب عنه في حياته وعلمه ودينه وأخلاقه ومذاهبه؛ ملتزمين دقة النقل وأمانته، وما يمكن لمؤلفٍ ما أن يهمل ـ في الكتابة عن إمام ـ قولاً له ولا رأياً.

وليس من صحيح الحكم أن نوجه من سلف من كبار الأئمة بما نعتقد وما نذهب إليه، لأن لكل واحد وجهاً يجب أن نميزه عن غيره، ونستجلي عواطفه وحماسه وتمسكه وطريقته في علمه وعمله ورأيه وسيرته.

ولا يملك أحد أن ينتزع رضا الناس، فرضاهم جميعاً غاية لا تدرك.

وليس ثَمَّ كتاب في التراجم أو في التاريخ لم يأتِ بترجمة الإمام أحمد ترجمة وافية، وهناك من أفرده بالتصنيف في مناقبه وحياته. فمنهم البيهقي، وأبو إسماعيل الأنصاري، وشيخ الإسلام الهروي، وأبو الفرج بن الجوزي، ولابن عساكر ترجمة مطولة في تاريخ دمشق.

أما المحْدَثون: فللشيخ أحمد محمد شاكر ترجمة وافية جيدة في مقدمة «مسند أحمد» الذي حققه وطبع منه تسعة مجلدات، وللشيخ أبي زهرة كتاب ابن حنبل، ولأحمد عبد الجواد الدومي: «أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا».

ومع ذلك، فهذا قليل جداً لرجل عظيم ملأ الدنيا شجاعة وإرادة وديناً وإخلاصاً، وحديثاً وفقهاً، إذا قيس بمن أُلِّف في حياته - بكل ما فيها - الألوف من الكتب: من بعض قواد الإفرنج الذي كان أحمق على قدر ما كان قائداً عظيماً. وليت الناس جميعاً يتوجهون بعقولهم وأفكارهم إلى عظماء المسلمين من علمائهم وأتقيائهم، وصالح أمرائهم، ليذكروا بالقدوة الصالحة التي بها يصلح أمر الناس ودينهم؛ حتى يحيوا بأنفسهم سيرة السلف. وسيرة السلف خير ما به صلاح الدنيا والآخرة.

دمشق الشام

١٨/ ٦/ ١٣٩٩ هـ - ١٥/ ٥/ ١٩٧٩ م

عبد الغني الدقر

* * *

عَصرُ الإمَـامِ أحْـمَد

امتاز العصر الأول من الحكم العباسي بالقوة، وثبات الحكم، وامتداده في الآفاق الكثيرة والبعيدة، مع الاختلاف في العناصر والبيئات، والعقائد والآراء، والصراع في ذلك كله. وإن بدا ما يخل بالأمن أو يعكر الصفو فما أسرع أن تخمد الدولة أنفاسه بمضاء وقدرة.

ومما امتاز به هذا العصر أن اتسعت فيه دوحة الثقافة والعلم والحضارة، فنقل إلى العربية من اليونانية والسريانية كثير من الكتب في الفلسفة ومختلف العلوم، وأقبل عليها فئات من الناس رأوا فيها بِدْعاً لم يعرفوه من قبل، فمنهم من قرأها يتزين بها ويرفع بها قدره، ومنهم من قرأ منها الطب وعلوم الطبيعة وعلوم الحساب ليستفيد ويفيد، ومنهم من قرأها يلقح بها فكره ويوقظ عقله، ويحتج بها بعد ذلك تأييداً لعقيدته ونقضاً لمذهب غيره أو دفعاً لمنتقده.

ودخل العنصر الفارسي مع الحكم العباسي، وحمل معه أفكاراً وعقائد في بعضها الزندقة والإلحاد، وفي بعضها انحراف ظاهره الإسلام وباطنه تمزيق الإسلام، فما ينسى هؤلاء وأمثالهم من هذا العنصر كيف دك الإسلام صرحهم القديم، ونقض الملك، واستباح دار المقامة.

وحين عجزوا عن النصر، واستأصلتهم الهزيمة سلكوا سبيل المكيدة للإسلام، يريدون أن يشتتوا شمله بأفكار وعقائد حاولوا بثها في المسلمين، فجعل بعضهم يولِّد نحلاً ينميها إلى زرادشت

لَيَثني إليها ضعاف النفوس، فكان منها المزدكية والمانوية والديصانية، وادعى بعضهم الإسلام وجعل من أسس إسلامه رفع الثقة بمن حمل رسالة الإسلام وبثها برونقها وصفائها.

وخشي الخلفاء العباسيون من هذه الهجمة الضالة التي ظهر فيها الردة والإلحاد، فاستعملوا السيف في كل من أعلن إلحاده وأصر عليه، وحذروا متربصين كل ختال يهتبل الفرص لينقضَّ على الحكم والعقيدة. وآووا إليهم كثيراً من العلماء والفقهاء والمفكرين وفيهم المعتزلة الذين عُرفوا بقوة المحاجة، والفَلْج على الخصوم، وهم من أوائل من استعان بالفكر اليوناني، وناقشوا كل شيء بالعقل. وأخذوا على عاتقهم نشر الإسلام على طريقتهم في جميع الأقطار، ومصاولة الزنادقة والمرتدين بالحجة والبرهان، ولهم في هذا مفاخر تذكر وتشكر، ولكنهم عجزوا أن يدخلوا أفكاراً مبتدعة على الخلفاء العباسيين الأولين، الذين ثبتوا على السنّة، ونفروا من البدع والمبتدعين إلى أن جاء المأمون، وهو ممن اطلع على الكتب المترجمة عن اليونان، وزادت الترجمة في عصره وأحاط به المعتزلة، وأعجب بتفكيرهم، واعتمادهم العقل في كل شيء، فانتحل نحلتهم، وجاهر بها، وعادى من عاداها. واصطفى لنفسه بعضاً منهم ليكونوا جلساءه وأصحاب أنسه ومنهم ابن أبي دؤاد فقد أعطاه القضاء فكان من أمهر القضاة، وكان سيداً بارعاً بانتقاء الكلام، بليغ الفكر والأسلوب، حتى قال فيه أبو العيناء: ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دؤاد. فأُخِذ المأمون به، وسكن لآرائه ومعتقداته، واعتنقها ودافع عنها وكان يود لو أعلن عنها، وحمل عليها الناس، ولكنه ـ وهو خليفة ـ لا يرى من الحكمة أن يعلن ما يخالف عقائد الناس، وما زال ابن أبي دؤاد بالمأمون يُحسِّن له إعلان بعض من

عقيدته على الملأ، حتى أعلنها، ولم يلزم الناس بها، حتى مضى على ذلك نحو من خمس سنوات فعاد يحث الخليفة ويقنعه على حمل الناس عليها، ودعوة كبار الفقهاء والمحدثين للإقرار بعقيدة المعتزلة وهي أن: «القرآن كلام الله ولكنه مخلوق»؛ وصَعب على الفقهاء والمحدِّثين وعامة الناس أن يقال في كلام الله ما لا يعتقدون، ولم يبلغهم عن الله تعالى ولا عن رسوله ﷺ ما يفيد ذلك أو بعضه. ولكن الخليفة المأمون أصر بتحريض ابن أبي دؤاد على أن يغير الناس عقائدهم، ومن أبى دعي للمناظرة، وأي مناظرة هذه وقد سبقها من المأمون في كتاب كتبه إلى إسحاق بن إبراهيم[1] مملوءٍ بالشتم والتهديد والتهكم لكبار المحدثين وتجهيلهم وتحميقهم!! وخاف من كتاب المأمون ناس واتقوا سطوته؛ فاستسلموا ولم يناقشوا. ثم كتب كتاباً آخر لإسحاق بن إبراهيم لا يقل شدة وسباباً وتهديداً وتهكماً عن الأول؛ فدعا إسحاق المستنكفين وتلا عليهم كتاب المأمون، فاستجاب قوم آخرون بألسنتهم والله يعلم ما في القلوب. ثمّ دعا المستنكفين مرة ثالثة فاستجاب الأكثرون ولم يبق فيهم إلا ثلاثة أُخذوا مكبلين بالحديد، ولم يجاوزوا نصف الطريق حتى توفي المأمون يحمل سبة المحنة، وتولى المعتصم وعمل بوصية أخيه في الاحتفاظ بابن أبي دؤاد، والاستمرار بالمحنة. وقد كان يمكن ألا يأخذ أحداً بشدة لأجلها، ولكن القاضي وراءه، فما زال به حتى بلغ في القسوة مبلغاً جاوز فيه من قبله ومن بعده، وهو معروف بالشدة والفروسية والحرب، ولكنه كان جاهلاً لا يفقه من هذه الدقائق شيئاً. ثم جاء ابنه الواثق من بعده وكان يشبّه بالمأمون لأدبه وفضله، ولكنه وَرث المحنة

(1) وهو صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.

وورث مُوقِد نارها ابنَ أبي دؤاد فطبع على غرار أبيه المعتصم، واشتد في المحنة أولَ حكمه وخفض من بأسه آخره.

وأشنع ما كان من الاستبداد في هذه الحقبة ضرب العلماء وقتلهم وسجنهم لا لشيء إلا لتكون عقيدتهمْ وفق عقيدة الخليفة أو وفق عقيدة القاضي، أي حمق أعظم من هذا؟! إن أخطر ألوان الاستبداد أن تكون القوة والحكم والأمر والنهي بيد رجل واحد صاحب هوى لا يعرف الحكمة، ولا يستشير في كل أمر من هو أهل له.

ثم جاء المتوكل فأزال المحنة، وأعاد للمحدِّثين حريتهم ومكانتهم وقدرهم، ورفع من شأنهم ورجع بسيرته إلى عهد الرشيد وانقضت المحنة التي استمرت نحواً من خمس عشرة سنة، ثم ماتت ومات أصحابها وبقي الإسلام وعقيدة الإسلام، أما أولئك فقد تعرضوا لسخطة الأبد.

وإنما بسطت القول هنا في المحنة لأنها أظهر ما في عصور الخلفاء الثلاثة من الصراع الفكري عامة والصراع الفكري الإسلامي خاصة.

وفي هذا العصر بدأ ظهور التصوف والمتصوفين، الذي كان يعرف من قبل بالزهد، إلا أن الزهد كان أقرب إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فقد خلا من التكلف وتعذيب النفس ومنعها مما تميل إليه ولو كان مباحاً حلالاً، وصار للتصوف اتجاه خاص وأصول وقواعد، ثم انقلب مع الزمن إلى فلسفة روحية عميقة لا يفقهها إلا خواص الخواص، وربما فُهمت على غير ما قصد إليه من وضعها. ومن الإنصاف الاعتراف أن أصحاب الرسالة القشيرية كانوا أقرب إلى مسالك السلف وأجمعوا على أن كل كلمة يقولونها لا تستند إلى كتاب الله وسنّة رسول الله لا يعول عليها، ومنهم من بلغ في عبادة الله

والتعمق في توحيده مبلغاً يلحقه بالملائكة، ولا يخلو بعضهم من تزيد.

وخلاصة القول: أن هذا العصر كان مجمعاً لجميع الأجناس وأظهرهم العرب والفرس، وكان مجمعاً لمختلف الملل والنحل والأهواء وفيهم الملاحدة، وكان الصراع الفكري بين هؤلاء جميعاً حاداً ومستمراً، وكلٌّ شديد التعصب لفئته أو لرأيه، ولكن سلطان الإسلام هو الذي ينظم الجميع، وبه ولأجله يتولى الخليفة أمور الناس، وبه القاضي يحكم. ولكن المسلمين اختلفوا أيضاً: فالرافضة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وغيرهم كثير، وهؤلاء انقسموا فرقاً وطوائف من معتدل ومشتط، وقد يخرج بعض المشتطين عن الإسلام ويأبى إلا الانتماء إليه.

والسواد الأعظم من الناس هم أهل السنّة، ورؤوس أهل السنّة هم قدوة الكثرة ولهم منهم الإكبار والتقدير، ولهم من السيرة والخُلق ما لا يوازيه سيرة أحد غيرهم.

واستمرّ في هذا العصر الاجتهاد، وأكثر المجتهدين يخلصون فيما يجتهدون، ورغبتهم جميعاً أن يصلوا إلى ما يرضي الله؛ ولكن منهم من اجتهد وأصاب فله أجران، ومنهم من أخطأ فله أجر واحد، ولم يكن الخلاف بينهم في الأصول، بل بفهم النصوص وطريقة القياس، وأدناهم من الحق أقربهم من الكتاب والسنّة. ولا يخلو زمن من المتعصبين للمذهب وإمام المذهب في هذا العصر وكل عصر، وكثيراً ما كان يقابل التعصب بتعصب مثله.

هذا والحديث عن هذا العصر بجميع ما فيه يحتاج إلى كلام كثير، ونكتفي منه بما قدمناه، والحمد لله.

نسبه وصفاته

وبعض أموره الشخصية

اسمه وكنيته ونسبه:

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد، بـن حنبل، بن هلال، بن أسد، ابن إدريس، بن عبد الله، بن حيان، بن عبد الله، بن أنس، ابن عوف، بن قاسط، بن مازن، بن شيبان، بن ذهل، بن ثعلبة، ابن عكابة، بن صعب، بن علي، بن بكر، بن وائل، بن قاسط بن هنب ابن أفصى، بن دعمي، بن جديلة، بن أسد، بن ربيعة، بن نزار، ابن معد، بن عدنان.

قال ابن خلكان[1]: هذا هو الصحيح في نسبه.

وقيل: إنه من بني مازن بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة؛ وهو غلط، لأنه من بني شيبان بن ذهل، لا من بني ذهل بـن شيبان، وذهل ابن ثعلبة هو عم ذهل بن شيبان[2].

وشيبان بن ذهل هو الذي قيل فيه: إذا كنت في قيس فكاثر بعامر ابن صعصعة، وحارب بسُليم بن منصور، وفاخر بغطفان بن سعد، وإذا كنت في خندف فكاثر بتميم، وفاخر بكنانة، وحارب بأسد، وإذا كنت في ربيعة فكاثر بشيبان، وفاخر بشيبان، وحارب بشيبان.

(١ و ٢) وفيات الأعيان ١/٢٠ الطبعة الأميرية.

وقال ابن الأثير: ليس في العرب أعز داراً، ولا أمنع جاراً، ولا أكثر خلقاً من شيبان.

وكان في شيبان: خلق كثير من القادة والعلماء والأدباء والشعراء.

فالإمام أحمد عربي صليبة انتماؤه لشيبان، وهي قبيلة ربعية عدنانية تلتقي مع النبي ﷺ في نزار بن معد بن عدنان.

والعنصر العربي في صدر الحكم الإسلامي له شأن وجاه، وهو موضع فخر لمن سعى إليه، فكتاب الإسلام هو القرآن الكريم وهو عربي، ورسول الإسلام محمد رسول الله ﷺ عربي، ولكن الإمام أحمد ما كان يعتد بهذا الانتماء، ولا يراه شيئاً إن لم يقترن بالاتباع والطاعة والتقوى. قال يحيى بن معين: ما رأيت خيراً من أحمد ابن حنبل قط، ما افتخر علينا قط بالعربية، ولا ذكرها. وقال: ما سمعت أحمد بن حنبل يقول: أنا من العرب قط[1]. ويقول محمد ابن الفضل: وضع أحمد بن حنبل عندي نفقته، فكان يجيء في كل يوم فيأخذ منه حاجته، فقلت له يوماً: يا أبا عبد الله بلغني أنك من العرب، فقال: يا أبا النعمان نحن قوم مساكين، فلم يزل يدافعني حتى خرج ولم يقل شيئاً[2].

أبوه وجده:

أما أبوه محمد بن حنبل فقد كان منخرطاً في جيش خراسان، وكان ـ على ما يقول الأصمعي ـ قائداً، وكان في زي الغزاة.

أما جده حنبل بن هلال، فقد كان والي «سرخس» في عهد

---

(١) ابن عساكر، مخطوط ٦١ ـ ب.

(٢) ابن عساكر، مخطوط ٦١ ـ ب.

الأمويين، ومن أوائل دعاة العباسيين. ويروي ابن عساكر: أن المسيب ابن زهير الضبي ببخارى ضرب حنبل بن هلال، وأبا النجم إسحاق ابن عيسى السعدي، وحلقهما في دسهم إلى الجند في الشغب.

أمه:

قال أبو عبد الله بن بطة[1]: كانت أم أبي عبد الله شيبانية، واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني من بني عامر، كان أبوه نزل بهم، وتزوج بها، وكان جدها عبد الملك بن سوادة بن هند الشيباني من وجوه شيبان، وكان ينزل عليها قبائل العرب فتضيفهم.

أصله ومولده:

الإمام أحمد عربي كما رأيت، أصله بصري، ولما امتد الفتح شرقاً وغرباً كان العرب المسلمون هم القواد الفاتحين، فانتشروا في الأرض، ومنهم من أقام حيث انتهى به المسير والفتح، ومنهم من قفل حيث منازل أهله وعشيرته. وهكذا كان شأن محمد وحنبل، أبي محمد وجده، فقد اختارا «مرو» خطة لهما وبلداً، ولكن أباه بعد ذلك نزع به الحنين إلى بغداد عاصمة الخلافة فارتحل بأهله من خراسان إلى بغداد، وما يزال ابنه أحمد جنيناً في بطن أمه، وما استقر بهما المقام في بغداد قليلاً حتى ولد أحمد؛ وذلك في شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائة[2]. فهو بغدادي المولد والنشأة والوفاة[3].

---

(١) المناقب (١٩).
(٢) المناقب.
(٣) شذرات الذهب ٢/٩٦.

وفاة أبيه وكفالة أمه:

وحين بلغ أحمد من العمر ثلاث سنين توفي أبوه وله من العمر ثلاثون سنة، ومن قبله توفي جده، فلم يرَ أحمد جده ولا أباه، فكفلته أمه. قال صالح بن أحمد عن أبيه قال: فثَقَبَتْ أذني وجعلت فيها لؤلؤتين، فلما كبرت دفعتهما إليّ فبعتهما بثلاثين درهماً.

ويجوز أن تكون عادة ثقب أذن الصبي تعلمتها أمه من بلاد خراسان، فما كانت هذه العادة تعرف في بلاد العرب.

في صباه:

قال أبو بكر المروزي: قال لي أبو عبد الله: كنت ـ وأنا غُلَيِّم ـ أختلف إلى الكتّاب، ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة[1].

وقال أيضاً أبو بكر المروزي: قال لي أبو عفيف ـ وذكر أبا عبد الله أحمد بن حنبل ـ فقال: كان في الكتّاب معنا، وهو غليم نعرف فضله، وكان الخليفة بالرَّقَّة فيكتب الناس[2] إلى منازلهم، فيبعث نساؤهم إلى المعلم: ابعث إلينا بأحمد بن حنبل ليكتب فيبعثه، فكان يجيء إليهم مطأطئ الرأس، فيكتب جواب كتبهم، فربما أملَوا عليه الشيء من المنكر فلا يكتبه لهم[3].

وهذه الحادثة تدل على تبكير نهمه وبره وورعه، وذلك باشتهاره بين الناس بحسن كتابته، واستجابته، وامتناعه أن يكتب المنكر، وكفه نظره عما حرم الله. ولقد كانت ألمعيته المبكرة تلفت النظر وتثير

---

(١) المناقب (٢١).

(٢) أي وكان الناس معه من الجند والولاة وغيرهم فيكتبون إلى أهلهم.

(٣) المناقب (٢٠).

التعجب، قال أبو سراج بن خزيمة[1]: قال أبي ـ وذكر أحمد وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته ـ فقال ذات يوم: أنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد ابن حنبل غلام يتيم انظر كيف يخرج؟! وجعل يعجب!!.

صفاته وهيئته ولباسه:

كان الإمام رجلاً طُوالاً، رقيقاً، أسمر اللون، كثير التواضع[2]، ويقول ابن ذريح العكبري[3]: كان شيخاً مخضوباً، طُوالاً، أسمر شديد السمرة[4]. ويقول أبو داود[5]: رأيت أحمد بن حنبل رجلاً حسن الوجه، ربعة في الرجال، يخضب بالحناء خضاباً ليس بالقاني، في لحيته شعرات سود. وقال عبد الله[6] بن أحمد بن حنبل: خضب أبي رأسه ولحيته بالحناء، وهو ابن ثلاث وستين سنة.

أما لباسه: فقد كانت ثيابه غلاظاً إلا أنها بيض، كما يقول أحمد ابن العباس النحوي، ويقول: ورأيته معتمّاً وعليه إزار[7]. ويقول عبد الملك الميموني: كانت ثياب أحمد بين الثوبين[8]، وكان ثوبه يؤخذ بالدينار ونحوه، لم تكن له رقة تنكر، ولا غلظ ينكر. وقال الفضل بن زياد: رأيت على أبي عبد الله في الشتاء قميصين وجبّة ملونة بينهما، وربما لبس قميصاً وفرواً ثقيلاً وربما رأيت عليه في البرد الشديد الفرو

---

(١) المناقب (٢١).

(٢) البداية والنهاية ١٠/٣٣٥.

(٣ و ٤) ابن عساكر ٦٢ ـ ب.

(٥) المناقب (٢٠٨).

(٦) كما في ابن عساكر ٦٢ ـ ب، والمناقب (٢٠٨).

(٧) المرجع السابق.

(٨) بين الثوبين: أي وسطاً.

فوق الجبة، ورأيت عليه عمامة فوق القلنسوة، وربما لبس القلنسوة بغير عمامة. وقال صالح بن أحمد بن حنبل: كانت لأبي قلنسوة، وقد خاطها بيده فيها قطن، فإذا قام بالليل لبسها.

قال حميد بن زنجويه[1]: رأيت على أحمد بن حنبل جبة خضراء فيها رقعة بيضاء من صوف.

وقال المروزي: أعطاني - أي أحمد - خفاً له لأُرمَّه قد لبسه سبع عشرة سنة، فإذا فيه خمسة مواضع أو ستة مواضع الخرز فيه من ظاهره.

في نظافته:

يقول عبد الملك الميموني[2]: ما أعلم أني رأيت أحداً أنظف ثوباً، ولا أشد تعاهداً لنفسه في شاربه، وشعر رأسه، وشعر بدنه، ولا أنقى ثوباً وشدة بياض، من أحمد بن حنبل!!.

في مطعمه:

قال صالح بن أحمد: ربما رأيت أبي يأخذ الكسرة فينفض الغبار عنها، ثم يصيرها في قصعة ويصب عليها ماء حتى تبتل، ثم يأكلها بالملح، وما رأيته قط اشترى رماناً ولا سفرجلاً، ولا شيئاً من الفاكهة إلا أن يكون يشتري بطيخة فيأكلها بخبز، أو عنباً أو تمراً. وربما خُبز له فيجعل في فخارة عدساً وشحماً وتمرات شهريز، وكان كثيراً ما يأتدم بخلّ، وكان لا يطرح في قدره فلفلاً ولا ثوماً.

قال النيسابوري - صاحب إسحاق بن إبراهيم - قال لي الأمير - وهو إسحاق بن إبراهيم -:

---

(1) المناقب (٢٥٦).
(٢) المناقب (٢١٣).

إذا جاؤوا بإفطاره فأرنيه، قال: فجاؤوا برغيفين خبزاً وخيارة، فأريته الأمير فقال:

هذا لا يُجيبنا إذا كان هذا يقنعُه[1].

صفة بيته:

قال علي بن المديني[2]: دخلت منزل أحمد بن حنبل، فما شبهت بيته إلا بما وصف من بيت سويد بن غفلة[3] من زهده وتواضعه. وقال عبد الملك الميموني: كان منزل أبي عبد الله منزلاً ضيقاً صغيراً. وقال الحسن بن سيَّار: دخلت إلى أحمد بن حنبل وأنا صبي مع أستاذي يجصص له بيتاً، فقال له أحمد: جصصه باليد، ولا تمسحه بالمالج[4]، ثم فرشناه بالطوابيق[5]، فلما فرغنا استحسنه وقال: هذا نظيف، يصلي عليه الرجل، وليس فيه بارية ولا حصير.

زوجتاه:

يقول أبو بكر المروزي[6]: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما تزوجت إلا بعد الأربعين، وهذا القول فيه تجوُّز، فإن ابنه صالحاً ولد سنة ثلاث ومائتين[7] كما سيأتي، فيكون عمر والده حين تزوج نحواً من ثمانٍ وثلاثين سنة.

---

(١) المناقب (٢٥١) و (٢٥٢).

(٢) المصدر نفسه (٢٤٩).

(٣) سويد بن غفلة من كبار التابعين، وفد إلى رسول الله ﷺ وقد قبض فصحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، وكان من الزاهدين في الدنيا، وكان إذا قيل له: أُعطي فلان وولِّي فلان قال: حسبي كسرتي وملحي.

(٤) المالج: أداة يطين بها.

(٥) الطوابيق: جمع طابق: وهو الآجر الكبير.

(٦) المناقب (٢٩٨).

(٧) كما في دائرة المعارف الإسلامية ٣٧٣/١٣.

وأول زوجاته عائشة بنت الفضل، وهي أم صالح، وهي من العرب من الربض[1]، ولم يكن له منها غير صالح. يقول أحمد: أقامت معي أم صالح ثلاثين سنة فما اختلفت أنا وهي في كلمة.

ثم تزوج ريحانة[2] وهي أم ولده عبد الله، قال عم محمد بن بحر: لما اجتمعنا لتزويج أبي عبد الله بأخت محمد بن ريحان قال له أبوها: يا أبا عبد الله إنها - ووضع إصبعه على عينه يعني أنها بفرد عين - فقال له أبو عبد الله: قد علمت.

أما القول إن الإمام لم يتزوج الثانية إلا بعد وفاة الأولى وقد استمرت عنده ثلاثين سنة فهذا بعيد الاحتمال، لأنه ليس بين صالح وعبد الله إلا نحو عشر سنين، فإن صالحاً ولد سنة ٢٠٣ وعمر أبيه تسع وثلاثون سنة، أما عبد الله فمولده سنة ثلاث عشرة ومائتين[3] كما سيأتي. وهذا يدل على أن الإمام أحمد تزوج أم عبد الله على أم صالح وجمع بينهما، ولا يصح غير ذلك إن صحت تواريخ الولادة والوفاة. أما ابن الجوزي في المناقب فيتنبه لهذا التناقض ويجعل الفرق - بدل الثلاثين - عشرين، ومع هذا فلا يستقيم أيضاً إلا أن يكون الفرق بين الزوجتين عشر سنوات، أما إذا استمرت ثلاثين كما ورد فلا يستقيم إلا الجمع بينهما.

تسرِّيه:

لقد تسرى الإمام فاشترى جارية اسمها «حُسْن» بعد وفاة زوجه أم عبدالله، فولدت منه «زينب»، ثم ولدت «الحسن والحسين» توأمين،

---

(١) بنو الحصين: ومنهم الربض والصنابح كما في الجمهرة لابن حزم، وقد يريد أنها من صميم العرب، لأن الربض كل ما بداخل البطن ما عدا القلب.

(٢) المناقب (٢٩٨).

(٣) كما في طبقات الحنابلة.

وماتا بالقرب من ولادتهما، ثم ولدت «الحسن ومحمداً» فعاشا إلى نحو الأربعين سنة، ولكن ما عرفنا عنهما شيئاً، ثم ولدت بعدهما سعيداً.

ويقال: إنه تسرى بأخرى اسمها: ريحانة، واستأذن أهله قبل أن يتسرى؛ اتباعاً لرسول الله ﷺ فأذنت له، وهذا يدل أنه اشترى ريحانة زمن إحدى زوجاته.

أولاده:

أشهر أولاده وأجلهم: صالح وعبد الله وهما من أمهات حرائر عربيات، وسيأتي الكلام عنهما. أما أولاده من التسري، فهم ستة: اثنان منهم توأمان ماتا عقب الولادة، وثالث يسمى الحسن أيضاً، ثم أتاه محمد وسعيد وزينب، وهؤلاء الستة من جاريته حُسْن وتكنى أم علي.

ولده صالح وعقبه:

صالح أكبر أولاد أحمد، ولد سنة ثلاث ومائتين ـ كما قدمنا ـ وكني أبا الفضل، وابتلي بالعيال على حداثته، لذلك قلّت روايته عن أبيه، ومع ذلك فقد روى عنه الكثير كما روَى عن أبي الوليد الطيالسي وإبراهيم بن الفضل الذارع[1]. وقد روى عنه أبو القاسم البغوي، ومحمد بن جعفر الخرائطي، ويحيى بن صاعد، وعبد الرحمن بن أبي حاتم. وسئل عنه ابن أبي حاتم فقال: كتبت عنه بأصبهان، وهو صدوق ثقة. وقد نشر جزءاً كبيراً من فقه أبيه.

ولشدة حاجته وكثرة عِياله قبل القضاء بأصبهان، ولبث قاضياً فيها

(١) الأصل الزارع، والصواب: الذارع بالذال المعجمة كما في التقريب.

حتى توفاه الله سنة ٢٦٦، ودفن قرب قبر حُمَمة الدوسي صاحب رسول الله وله ثلاث وستون سنة. له ولد اسمه زهير بن صالح، حدث عن أبيه، وروى عنه ابن أخيه محمد بن أحمد بن صالح، وقال الدارقطني: زهير ثقة وتوفي سنة ثلاث وثلاثمائة ولصالح ولد آخر اسمه أحمد من المحدثين، وله غيرهما[1].

ولأحمد هذا ولد محدث اسمه: محمد بن أحمد بن صالح يكنى أبا جعفر، روى عن أبيه، وعن عمه زهير، وإبراهيم بن يوسف ابن خالد الهسنجاني، وروى عنه الدارقطني، وتوفي سنة ثلاثين وثلاثمائة[2].

ولده عبد الله:

ويكنى أبا عبد الرحمن، ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين[3] وكان أروى الناس عن أبيه، وسمع معظم تصانيفه وحديثه، وسمع من كثير من غيره، منهم: عبد الأعلى بن حماد، وكامل بن طلحة، ويحيى ابن معين، وأبو بكر وعثمان ابنا أبي شيبة، وغيرهم كثير. وروى عنه أيضاً خلق: منهم أبو القاسم البغوي، وعبد الله بن إسحاق المدائني، ومحمد بن خلف بن وكيع، ويحيى بن صاعد، وغيرهم[4].

والحقيقة: أنه قد ورث علم أبيه بالسنة، وكان له حظ وافر من الحفظ، وكان أبوه أحمد يقول: ابني عبد الله محظوظ من علم الحديث، وعاش كأبيه سبعاً وسبعين سنة، ودفن بمقبرة قريش[5].

(١) انظر ترجمته في طبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى ج ١ ص ١٧٦.
(٢) المناقب (٣٠٥).
(٣) طبقات الحنابلة ١/١٨٠.
(٤) انظر الطبقات ١/ ١٨٠ وتهذيب التهذيب والمناقب.
(٥) دائرة المعارف ١٣/٣٧٣.

ولـده سعيد:

ولد سعيد قبل موت أبيه أحمد بنحو من خمسين يوماً، وقد حكي عن أبي مجالد أحمد بن الحسين الضرير. روى عنه القاضي أبو عمران موسى بن القاسم الأشيب، ومات قبل وفاة أخيه عبد الله بدهر طويل. وقيل: إنه ولي قضاء الكوفة[1].

بنته زينب:

لم يعرف عن زينب هذه إلا خبر واحد في ورع أبيها، وأنها قالت لإسحاق بن إبراهيم: خذ هذه الدجاجة فبعها، فإن أبي يحتاج أن يحتجم، وما عنده شيء، وإسحاق هذا قال: رأيت أبا عبد الله يضرب ابنته على اللحن وينتهرها[2].

ماله ومعاشه:

لقد خلف والد الإمام أحمد لولده أحمد طُرُزاً[3]، وكان يكري تلك الطرز، ويتعفف بكرائها عن الناس.

وخلف له داراً يسكنها. ومن ورعه أنه كان يذرع[4] داره التي يسكنها، ويخرج عنها الخراج الذي وظفه عمر رضي الله عنه على السواد[5].

وسأل رجل أحمد بن حنبل عن العقار الذي كان يستغله، ويسكن داراً منه، كيف سبيله عنه؟ فقال له: هذا شيء قد ورثته عن أبي، فإن

(١ و ٢) المناقب (٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٣) الطُرز: جمع طراز: وهو الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجيدة؛ كما في القاموس.

(٤) يذرع: يقيس المساحة. وفي طبقات الحنابلة: يزرع والأقرب يذرع.

(٥) المناقب (٢٢٣ ـ ٢٢٤).

جاءني رجل، فصحح أنه له؛ خرجت عنه، ودفعته إليه[1]. وذلك خوفاً من أن يملك ما ليس له.

خروجه إلى اللقاط:

لم يكن يكفي الإمام هذا المورد الضعيف لضرورات بيته وأهله، فكان يحاول أن يكسب مالاً حلالاً، ولا يبالي بالعمل الذي يأتيه بالمال مهما يقل فيه، وكان شعاره: اعمل وتعفف، ولا تحتج إلى أحد ولو كان من الأولياء أو أقرب الأقرباء.

ولقد نزل أبو عبد الله على رجل[2] في طرسوس، واحتاج إلى دريهمات، فخرج إلى اللقاط فجاء وقد لقط شيئاً يسيراً، فقلت له - وهو الرجل الذي نزل عليه الإمام -: قد أكلت أكثر مما قد لقطت؛ فقال: رأيت أمراً استحييت منه، رأيتهم يلقطون فيقوم الرجل على أربع وكنت أزحف إذا لقطت.

وقال أبو بكر المروزي[3]: قال لي أبو عبد الله: خرجت إلى الثغر على قدمي فالتقطنا، وقد رأيت قوماً يفسدون مزارع الناس، لا ينبغي لأحد أن يدخل مزرعة رجل إلا بإذنه.

وقال لي أبو عبد الله[4]: قد خرجت إلى «طرسوس» على قدمي، وقد كنا نخرج في اللقاط.

و «اللقاط»: السنبل الذي تخطئه المناجل، ويبادر إليه في العادة الفقراء المعوزون يلتقطونه، وهو مسموح به.

---

(١) المناقب (٢٢٣ - ٢٢٤).

(٢) المناقب (٢٢٥).

(٣ و ٤) المناقب (٢٢٥).

يؤجر نفسه:

ما كان رحمه الله يجد أدنى غضاضة في أن يعمل عملاً ما، فهو بذلك سيد نفسه، وإنما كان يرى الغضاضة كلها في أن يحتاج لإنسان ما، وهذا ما يضطره إلى أن يؤجر نفسه ليحمل في الطريق ويعين الحمالين، واللقاط، إن لم يجد من ذلك بداً.

ينسخ بأجرة:

في تاريخ الذهبي[1]: كان لنا جار، فأخرج إلينا كتاباً فقال: أتعرفون هذا الخط؟ قلنا: هذا خط أحمد بن حنبل، فكيف كتب لك؟ قال: كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة، ففقدنا أحمد أياماً، ثم جئنا نسأل عنه، فإذا الباب مردود عليه، فقلت: ما خبرك؟ قال: سُرِقت ثيابي، فقلت: معي دنانير، فإن شئت صلةً، وإن شئت قرضاً، فأبى، فقلت: تكتب لي بأجرة؟ قال: نعم، فأخرجت ديناراً، فقال لي: اشترِ لي ثوباً، واقطعه نصفين - يعني إزاراً ورداءً - وجئني بورقٍ، ففعلت، وجئت بورق، فكتب لي هذا.

ينسج التِكك:

قال إسحاق بن راهويه[2]: كنت أنا وأحمد باليمن عند عبد الرزاق، وكنت أنا فوق الغرفة وهو أسفل، وكنت إذا جئت إلى موضع اشتريت جارية، فاطّلعت على أن نفقته فنيتْ، فعرضت عليه، فامتنع، فقلت: إن شئت قرضاً، وإن شئت صلة، فأبى، فنظرت فإذا هو ينسج التِكك ويبيع وينفق.

---

(١) مقدمة المسند لأحمد شاكر.

(٢) مقدمة المسند لأحمد شاكر.

هذه هي النفس العظيمة، لا يضيرها أن تنزل إلى درك عمل ما قد يستهين به الناس ما دام حلالاً، ويرى ذلك أعلى وأجل من أن يمد يده بالحاجة إلى غيره ولو كان أعز صديق، فليس في العمل حِطَّة، وإنما فيه الغنى عن الناس والترفع عن الدنية وهذا يجعله أعز بني الدنيا، فلا تستطيع قوة في الأرض أن تخضعه بالحاجة إليها، وهذه هي الحرية التي لا يدانيها حرية لا من حاكم ولا محكوم، ولا سيد ولا مسود.

عِلمُهُ بالحَديث

بدؤه بالحديث:

بعد أن انتهى من تعلم الكتابة والقراءة في المكتب وبلغ به بين رفاقه شأواً ـ كما قد عرفت ـ نزعت به همته إلى طلب العلم، فبدأ بدراسة فقه الشريعة والحديث في بغداد؛ ويظهر أنه في هذه الفترة قصد هشيم سنة سبع وسبعين فسمع منه، يقول أحمد[1]: ولم أعقل بعض سماعي ـ يعني ما سمعه على هشيم ـ. ولما بلغ السادسة عشرة من عمره منذ عام ١٧٩ هـ خلصت وجهته في التعلم إلى الحديث[2]، وأول من كتب عنه الحديث أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رحمهما الله، كما يقول أحمد، ولم يلبث عند أبي يوسف إلا قليلاً حتى عاد إلى هشيم بن بشير بعد أن آنس من نفسه القدرة على الفهم والاستيعاب.

يقول أحمد: ولزمته ـ يعني هشيم ـ سنة ثمانين، وإحدى وثمانين، وثنتين، وثلاث، كتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث، وبعض التفسير، وكتاب القضاء، وكتباً صغاراً. قال صالح بن أحمد: قلت:

---

(١) الحلية ١٦٤/٩.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية العدد ٢٢/٣٧٠ والبداية. ٣٢٦/١.

يكون ثلاثة آلاف حديث؟ قال: أكثر. وتوفي هشيم سنة ثلاث وثمانين فيكون أحمد قد قرأ وكتب على هشيم نحواً من أربع سنوات، وبلغ عمره عند موت هشيم عشرين سنة[1].

وهناك من نقل[2] عن عبد الله ابنه أن أباه قال: أول سماعي من هشيم سنة تسع وسبعين، ولعله كان في آخر سنة التسع والسبعين وأول الثمانين. ولا شك أن هذه الحظوة في السماع والكتابة والإدراك عند هشيم أعطته ملكة رفعته فكان له شأن؛ يقول يونس المؤدب[3]: رأيت أحمد بن حنبل في أيام هشيم وله قدر.

وفي سنة تسع وسبعين قدم ابن المبارك إلى بغداد فعزم على السماع منه، وذهب إلى مجلسه، فقالوا: قد خرج إلى «طَرَسُوس» وتوفي سنة إحدى وثمانين. وقد استمر مقيماً في بغداد، يأخذ من شيوخ الحديث فيها ويكتب كل ما يسمع حتى سنة اثنتين وثمانين ومائة، حتى أصبح يشعر أنه لم يبق من أحد في بغداد لم يستنفد ما عنده، وهنا فكر في الرحلة إلى كبريات عواصم المسلمين ليلقى كبار علمائها وحفاظها.

رحلاته في طلب الحديث:

ما كانوا في العصور الأولى يعدّون الرجل محدِّثاً وحافظاً حتى يرحل إلى بلاد الإسلام؛ يلتقي بكبار علمائها وحفاظها ـ وخصوصاً مكة والمدينة ـ فيروي عنهم، وينتقي، ويكتب، ويصل سنده بإسنادهم. وكذلك كان شأن الإمام أحمد، سافر من أجل الرواية والسماع إلى

(١) الحلية ١٦٤/٩ وابن عساكر ٦٤ ـ ب.
(٢) ابن عساكر ٦٤ ـ ب والحلية ١٦٢/٩.
(٣) المناقب (٢٢).

بلاد كثيرة: إلى الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام، والثغور، والمغرب، والجزيرة، والعراقين، وفارس، وخراسان، والجبال والأطراف[1].

ويقول ابن كثير[2]: طاف في البلاد والآفاق، وسمع من مشايخ، وكانوا يُجلّونه ويحترمونه في حال سماعه منهم.

وأول سنة سافر فيها أحمد سنة اثنتين وثمانين، سمع على ابن مجاهد الكابُلي[3] من أهل الريّ، كما يقول الإمام أحمد نفسه، ويقول: كتبت عنه، وما أرى به بأساً[4]. ويقول ابن حجر العسقلاني ـ عن ابن مجاهد هذا ـ: وليس في شيوخ أحمد أضعف منه[5].

وفي كتاب ابنه عبد الله في تاريخ أبيه[6] يقول الإمام أحمد: وخرجت إلى الكوفة سنة مات هشيم سنة ثلاث وثمانين ومائة، وهي أول سنة سافرت فيها، ولعله يريد أول سنة سافر فيها إلى الكوفة، يقول رحمه الله: وخرجت إلى الكوفة، فكنت في بيت تحت رأسي لبنة فحُمِمت، فرجعت إلى أمي رحمها الله، ولم أكن استأذنتها[7].

ويقول: وأول خرجة خرجتها إلى البصرة سنة ست وثمانين ـ أي

(١) وفي دائرة المعارف العدد ١٣ ص ٣٧٠: ويجب أن نطرح ما قيل من زيارته لإيران وخراسان بل إلى المغرب الأقصى.
(٢) البداية ٣٢٦/١٠.
(٣) المناقب (٢٥).
(٤) تهذيب التهذيب ٣٧٨/٧.
(٥) تقريب التهذيب ٤٣/٢.
(٦) نشره مع كتابه أحمد بن حنبل: أحمد عبد الجواد الدومي ص (٢٦٧).
(٧) المرجع السابق ص (٢٦٨).

ومائة ـ سمعت من المعتمر بن سليمان[1]. ثم عاد إليها سنة تسعين ومائة، ثم سنة أربع وتسعين، وقد مات غندر فأقام على يحيى بن سعيد ستة أشهر، ثم سنة مائتين[2].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل لأبيه: أي سنة خرجت إلى سفيان ابن عيينة ـ بمكة ـ؟ قال: في سنة سبع وثمانين، قدمناها وقد مات فضيل بن عياض وهي أول سنة حججت[3]، وكتبت عن إبراهيم بن سعد، وصليت خلفه غير مرة، وكان يسلم واحدة[4].

والتقى بهذه الرحلة بالإمام الشافعي لأول مرة، كما روى عن قاضيها سليمان بن حرب، وابن عيينة حي.

وفي سنة ست وثمانين دخل عبادان، وكان بها رجل يتكلم، قال له أحمد: هَدَّاب[5]؟ قال: نعم، وكان بها أبو الربيع فكتبت عنه[6].

ويقول رحمه الله: كنت مقيماً على يحيى بن سعيد القطان، ثم خرجت إلى واسط، فقال يحيى القطان: أي شيء يصنع بواسط؟ قالوا: مقيم على يزيد بن هارون، قال: وأي شيء عند يزيد ابن هارون؟ ـ يريد أنه أعلم منه[7]ـ.

وقال الإمام أحمد: وخرجت سنة ثمانٍ وتسعين، وأقمت سنة تسع وتسعين عند عبد الرزاق ـ أي الصنعاني صاحب المصنف ـ[8].

(١ و ٢) المناقب (٢٧).
(٣) أحمد بن حنبل للدومي ص (٢٦٧).
(٤) المناقب (٢٥).
(٥) واسمه: هدبة بن خالد.
(٦ و ٧) المناقب (٢٦ ـ ٢٧).
(٨) مناقب ابنه عبد الله (٢٦٨).

ورحل إلى الشام والجزيرة وسمع في رحلاته كثيراً من كبار الشيوخ، بل كتب عن علماء كل بلد.

ولقد حرص أن يلتقي ببعض الكبار من العلماء والمحدثين، ولكنه أسف كثيراً أنه لم يلق بعضهم كمالك بن أنس، وأبي الأحوص، وخالد بن عبد الله الطحان، وحماد بن زيد، فقد ماتوا جميعاً في سنة واحدة وعمر أحمد لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وكان لا يزال على باب هشيم يكتب ما يملي عليه، وكانت أمنيته أن يرحل إلى الريّ إلى جرير بن عبد الحميد. يقول الإمام: فخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج[1].

وقال إبراهيم بن هاشم: ولما قدم جرير بن عبد الحميد ـ يعني بغداد[2] ـ نزل على بني المسيب، فلما عبر إلى الجانب الشرقي جاء المد، فقلت لأحمد بن حنبل: تعبر؟ فقال: أمي لا تدعني، فعبرت أنا فلزمته.

وهذا المد كان في سنة ست وثمانين ومائة في أيام الرشيد، زادت دجلة زيادة لم يرَ قبلها مثلها، حتى نزل الرشيد بأهله وحرمه وأمواله إلى السفن.

ويقول ابن الجوزي[3]: والواقع أن الإمام أحمد قد سمع من جرير ابن عبد الحميد إلا أنه لم يتفق له الإكثار عنه.

ثم خرج الإمام إلى «طرسوس» ماشياً على قدميه، لعجزه عن النفقة في السفر. وقيل له مرة: أكان يحيى بن يحيى إماماً؟ قال: كان يحيى

---

(١) المناقب (٢٥).

(٢ و ٣) المصدر نفسه (٢٧).

ابن يحيى عندي إماماً، ولو كان عندي نفقة لرحلت إلى يحيى بن يحيى.

أما رحلته إلى اليمن إلى عبد الرزاق فلها قصة تدل على إخلاصه وورعه: وذلك أنه لمّا عزم على الخروج إلى مكة يؤدي حجة الإسلام رافق يحيى بن معين، فقال له يحيى: نمضي إن شاء الله فنقضي حجنا، ثم نمضي إلى عبد الرزاق إلى صنعاء نسمع منه، قال أحمد: فدخلنا مكة، وقمنا نطوف طواف الورود فإذا عبد الرزاق في الطواف يطوف، وكان يحيى بن معين قد رآه وعرفه. فخرج عبد الرزاق لما قضى طوافه، فصلى خلف المقام ركعتين، فقام يحيى بن معين، فجاء إلى عبد الرزاق فسلم عليه، وقال له: هذا أحمد بن حنبل أخوك، فقال: حيّاه الله وثبّته فإنه يبلغني عنه كل جميل. قال يحيى: نجيء إليك غداً ـ إن شاء الله ـ حتى نسمع ونكتب. وقام عبد الرزاق فانصرف، فقال أحمد ليحيى: لمَ أخذت على الشيخ موعداً؟ قال: لنسمع منه، قد أربحك الله مسيرة شهر ورجوع شهر، والنفقة، فقال أحمد: ما كان الله يراني وقد نويت نية لي أن أفسدها بما تقول. نمضي إليه فنسمع منه، ثم مضى إلى صنعاء وسمع منه.

وهكذا نرى الإمام أنفق من وقته أكثر من شهرين ومن ماله قدر ذلك لتسلَم حجته من أن يقصد فيها إلى غير من لبّاه. وأراد ـ وهو باليمن ـ أن يذهب إلى إبراهيم بن عقيل، وكان ـ على ما قال الإمام أحمد ـ عسِراً لا يوصل إليه، يقول الإمام: فأقمت على بابه باليمن يوماً أو يومين حتى وصَلْتُ إليه، فحدثني بحديثين وكان عنده أحاديث وَهْب عن جابر، فلم أسمعها من عسره، وكان أحمد يقول: «فاتني مالك، فأخلف الله عليّ سفيان بن عيينة، وفاتني حماد بن زيد فأخلف الله عليَّ إسماعيل بن عُليَّة».

يرحم الله الإمام، ما ترك لحظة من شبابه وكهولته إلا وحرص فيها أن يسمع حديثاً أو يصحح رواية، ورحل في سبيل ذلك إلى أدنى الأرض، وأقصاها، فإن لم يجد ما يركب فعلى قدميه يسير ويقطع البُرُد حتى تشققت قدماه، وما كان يرى بذلك بأساً ـ مهما ينته إليه حاله وجسمه ـ إذا ظفر ولو بخبر عن رسول الله ﷺ.

مر يوماً أحمد جائياً من الكوفة، وبيده خريطة فيها كتب، فأخذ رجل ـ هو جد أحمد بن منيع بن عبد الرحمن ـ بيده فقال: مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة، إلى متى؟ إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث ألم يكفه؟ فسكت، ثم قلت: ستين ألفاً؟ فسكت، فقلت: مائة ألف؟ فقال: حينئذٍ يعرف شيئاً!! قال أحمد بن منيع: فنظرنا فإذا أحمد كتب ثلاثمائة ألف عن بهز بن أسد، وعفان، وأظنه قال: ورَوْح ابن عبادة.

وقال صالح بن أحمد: رأى رجل مع أبي محبرة، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين؟ فقال: «مع المحبرة إلى المقبرة»[1]. ولقد بلغ به الجهد حداً ـ في ترحاله وكتابته ـ قلّ من يصبر عليه، حتى أوذي في جسمه، لأنه كان في متربة وفقر، مع طموحه أن يسمع ويجمع من سنّة رسول الله ﷺ ما لم يستطع أحد قبله ولا بعده أن يجمع مثله.

قال ابن رافع: رأيت أحمد بن حنبل بمكة ـ بعد رجوعه من اليمن ـ وقد تشققت رجلاه، وأبلغ إليه التعب، فقال لي: يا أبا عبد الله ما

---

(١) مبحث رحلته: عن ابن كثير، والمناقب، وابن عساكر، ودائرة المعارف الإسلامية.

أخلقني ألّا أرحل بعدها في حديث، قال: ثم بلغني أنه صار إلى أبي اليمان[1] بعد اليمن - أي إلى حمص -.

الحافظ الأكبر:

لم يكن في عصر الإمام أحمد، ولا بعد عصره أحد حفظ من الحديث ما حفظ، وجمع ما جمع، وأتقن من هذا الفن ما أتقن؛ فقد بذل للحديث والسنّة النبوية راحته وجهده، وأنفق شبابه وشيخوخته، لم يكلّ ولم يملّ حتى بلغ الذروة من علمه وحفظه وفهمه، حتى صار فقيه المحدثين، ومحدث الفقهاء، وإمام السنّة.

قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب[2].

وقال ابن المديني: ليس في أصحابنا أحفظ منه[3].

وقال أبو عبيد: لست أعلم في الإسلام مثله[4].

وقيل لأبي زرعة: من رأيت من المشايخ المحدثين أحفظ؟ قال: أحمد بن حنبل حُزرت كتبه اليوم الذي مات فيه، فبلغت اثني عشر جَمَلًا، وعدلًا، ما على ظهر كتاب منها[5]: حدثنا فلان، ولا في بطنه حدثنا فلان، وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلبه[6].

---

(1) ابن عساكر ٦٤ - أ. وأبو اليمان هذا: هو الحكم بن نافع البهراني مولاهم أبو اليمان الحمصي توفي سنة ٢٢٢ بحمص وهو ثقة.
(2) ابن عساكر ٧١ - أ، وكذا تهذيب التهذيب ١/٧٤.
(3) تهذيب التهذيب ١/٧٤ - ٧٥.
(4) المرجع السابق.
(5) هكذا في الأصل، ولعله: إلّا حدثنا.
(6) شذرات الذهب ٢/٩٧.

رأى عبد الرحمن بن مهدي أحمد ـ وهو من شيوخ أحمد ـ قد أقبل فقام إليه ومن عنده فقال: هذا أعلم الناس بحديث سفيان[١].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال لي أبي: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك عن الكلام[٢].

وكان الإمام أحمد يقول: حفظت كل شيء سمعته من هُشَيم، وهشيم حي قبل موته. وقد قدّمنا أن هشيم توفي وعمر أحمد نحو من عشرين سنة.

قال ابن أبي حاتم: قال يوماً سعيد بن عمرو البرذعي لأبي زرعة: يا أبا زرعة أنت أحفظ أم أحمد بن حنبل؟ قال: بل أحمد بن حنبل، قال: وكيف علمت ذلك؟ قال: وجدت كتب أحمد بن حنبل ليس في أوائل الأجزاء أسماء المحدثين الذين سمع منهم، فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه، وأنا لا أقدر على هذا.

هذا غيض من فيض من شهادة كبار الحفاظ بإمامهم وعظيمهم وحافظهم الأكبر. وحسبنا هذا دلالة على أن الإمام أحمد، لم يكن حفظة فحسب، بل كان دقيقاً في أخذه الحديث، ويسعى أن يسمع الحديث من طرق متعددة، فقد كان ـ رحمه الله ـ يقول: نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة وجوه لم نضبطه، كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد؟.

وأقول هنا: إن بعض المحدثين لا يرى من الحديث إلا أنه علم من العلوم فلا يحرصون منه إلا على الإسناد وعلوه، والرواية عن

---

(١) الحلية ١٦٤/٩.

(٢) طبقات الشافعية ٢٨/٢.

المشاهير، وحفظ أكبر ما يمكنهم منه، وربما لا يعنيهم وراء ذلك شيء. أما الإمام أحمد وأمثاله كالإمام مالك والإمام البخاري وقبلهم سفيان الثوري، وقبله سعيد بن المسيب وأمثالهم، إنما بحثوا عن الحديث في كل مكان، ليفهموا شريعة الله، ويستنبطوا أحكامه، فيعلموا بدقة واحتياط دين الله الذي ارتضى لهم، ويعملوا فيما علموا، ثم يعلّموا الناس. وما كان قصدهم إلا التحري عما يريده الله ورسوله، فما وافق هذا فعلى الرأس والعين، وما خالفه فمردود، فليس لأحد من خلق الله أن يشرع دون الله ورسوله، ومن هذا المعنى قال العباس بن الوليد بن مزيد: قلت لأبي مسهر: هل تعرف أحداً يحفظ على هذه الأمة أمر دينها؟ قال: لا أعلم إلا شاباً في ناحية المشرق - يعني أحمد[1] -. وقال أحمد الدورقي: من سمعتموه يذكر أحمد بسوء، فاتهموه على الإسلام[2].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام[3]: انتهى الحديث إلى أربعة: إلى أبي بكر بن أبي شيبة، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي ابن المديني، فأبو بكر أسردهم له، وأحمد أفقههم، ويحيى بن معين أجمعهم له، وأحمد وعلي أعلمهم به.

تعديله:

نجري هنا على طريقة المحدثين في تعديل من يستحق التعديل وجرح من يستحق التجريح، والإمام أحمد أجلّ من أن يعدل، فهو سيد الثقات والأثبات في زمنه، بل هو الصدق بعينه، ولو حمل نفسه على أن يكذب لما استطاع، لأنه بعناية الله. وهاك طائفة ممن وثقه:

(١ و ٢) تهذيب التهذيب ١/٧٥.
(٣) ابن عساكر ٦٨ - ب.

قال ابن سعد: ثقة ثَبْتٌ، صدوق، كثير الحديث[1]. وقال أحمد بن صالح العجلي: ثقة ثبت في الحديث، نزه النفس[2]. وقال ابن أبي حاتم: سئل أبي عنه، فقال: هو إمام، وهو حجة. وقال عبد الله ابن أحمد بن حنبل: كل شيء في كتاب الشافعي: أنا الثقة - أي أخبرنا - فهو عن أبي[3]. وقال النسائي[4]: الثقة المأمون أحد الأئمة.

مسند الإمام أحمد:

تختلف المسانيد عن السنن، فالمسند مؤلف على أساس ما يقع للمؤلف لكل صحابي من أحاديث، وتجمع في باب واحد هو اسم الصحابي. ومن المسانيد: مسند عبد بن حُميد، والدارمي، وأبي يعلى، والبزار، وأبي داود، والحسن بن سفيان، وإسحاق بن راهويه، وعبيد الله بن موسى، ومسند الإمام أحمد.

أما السنن: فهي مبنية على أبواب الفقه والسيرة والتفسير وغير ذلك، كسنن الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه، ومثلها الجامع الصحيح للبخاري وكذلك صحيح مسلم.

وحديثنا في مسند الإمام أحمد، وهو أجل كتاب في الحديث في عصر المؤلف وما بعده، وهو المورد الثجاج لحديث رسول الله ﷺ، واجتهاد الصحابة، وأقوالهم، وبعض التابعين، وفيه من الأسانيد والمتون شيء كثير مما يوازي كثيراً من أحاديث مسلم بل البخاري، وليست عندهما ولا عند أحدهما، بل لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الأربعة،

---

(١) ابن عساكر ٦٢ - ب وتهذيب التهذيب ٧٦/١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن عساكر ٧١ - ب.
(٤) تهذيب التهذيب ٧٥/١.

وهم أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه كما قال الحافظ ابن كثير[1].

ويقول ابن خلكان: كان إمام المحدثين، صنف كتابه المسند، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره[2].

ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي رحمه الله تعالى: لم كرهت وضع الكتب وقد عملت المسند؟ فقال: عملت هذا الكتاب إماماً، إذا اختلف الناس في سنّة رسول الله ﷺ رُجع إليه[3].

وقال الإمام أحمد لابنه عبد الله: احتفظ بهذا المسند فإنه سيكون للناس إماماً[4].

ويقول ابن الجزري في المصعد الأحمد: أخبرني بجميع هذا المسند - وهو كتاب لم يُرَ على وجه الأرض كتاب في الحديث أعلى منه - جماعة من الشيوخ سماعاً وإجازة[5].

وقال أبو بكر بن مالك: حضرت مجلس أبي يوسف القاضي سنة خمس وثمانين ومائتين، أسمع منه كتاب الوقوف، فقال: من عنده مسند أحمد بن حنبل إيش يعمل هنا؟ أو كلاماً نحو هذا.

وابتدأ - رحمه الله - في كتابة المسند سنة ثمانين ومائة، وقال أبو علي بن الصواف: سمعت عبد الله بن أحمد يقول: صنف أبي المسند

(١) اختصار علوم الحديث.
(٢) وفيات الأعيان ١/٢٠.
(٣) خصائص المسند (٢).
(٤) المسند طبعة المعارف ١٠.
(٥) المصعد الأحمد (٢٨ - ٢٩).

بعدما جاء من عند عبد الرزاق - أي الصنعاني[١] - واستمر يجمع فيه منتقياً بقية حياته. وكان اتجاهه للجمع دون الترتيب والتبويب، فكتبه في أوراق مفردة وفرقه في أجزاء منفردة على نحو ما تكون المسوّدة، ثم جاء حلول المنية قبل حصول الأمنية.

فبادر إلى جمع ابنيه صالح وعبد الله وابن أخيه حنبل بن إسحاق وقرأ عليهم المسند، وما سمعه منه - يعني تاماً - غيرنا.

ومات قبل تنقيحه وتهذيبه فبقي على حاله، ثم إن ابنه عبد الله ألحق به ما يشاكله، وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله[٢].

ويقول يعقوب بن يوسف المطوِّعي: جلست إلى أبي عبد الله أحمد ابن حنبل ثلاث عشرة سنة، وهو يقرأ المسند على أولاده ما كتبت منه حرفاً واحداً، وإنما كنت أكتب آدابه وأخلاقه وأتحفظها[٣].

وقال لنا: إن هذا الكتاب قد جمعته وأتقنته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً، فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه، فإن كان فيه، وإلا فليس بحجة[٤].

وقال الحافظ الذهبي: هذا القول منه على غالب الأمر، وإلا فلنا أحاديث قوية في الصحيحين والسنن والأجزاء ما هي في المسند[٥].

وقال ابن الجزري: يريد - أي الإمام أحمد - أصول الأحاديث. وهو صحيح، فإنه ما من حديث - غالباً - إلا وله أصل في هذا المسند[٦].

---

(١) خصائص المسند (٢٥).

(٢) المصعد الأحمد (٣٠).

(٣) خصائص المسند (٢٥).

(٤) المصدر نفسه (٢١) وشرح اختصار علوم الحديث (١٨٦).

(٥ و ٦) المصعد الأحمد (٣١).

ولقد اختلف الناس في عدد أحاديث المسند وأخباره، لأنه لم يسبق للمتقدمين أن ذكروا عدد ما فيه بالضبط، ولكثرة ما فيه من تكرار لبعض الطرق للحديث الواحد مع الاختلاف اليسير أحياناً صعب الاتفاق، فمن الناس من يرى أن عدده يتراوح بين ثمانية وعشرين ألفاً، وتسعة وعشرين ألفاً. وقال أبو بكر ابن مالك: يذكر أن جملة ما وعاه المسند أربعون ألف حديث غير ثلاثين أو أربعين. ويقول أبو بكر الخطيب: قال ابن المنادي: لم يكن في الدنيا أحد أروى عن أبيه منه ـ يعني عبد الله بن أحمد ـ لأنه سمع المسند وهو ثلاثون ألفاً، والتفسير وهو مائة ألف وعشرون ألفاً، سمع منها ثمانين ألفاً والباقي وجادة؛ فلا أدري هل الذي ذكره ابن المنادي أراد به ما لا مكرر فيه، أو أراد غيره مع المكرر[1]؟

والمسند يشمل أحاديث: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأئمة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وينتهي بمسانيد الأنصار، والمكيين، والمدنيين، وأهل الكوفة، والبصرة، والشاميين. وبالجملة قال الحافظ أبو موسى: فأما عدد الصحابة فنحو سبعمائة رجل، ومن النساء مائة ونيّف، وأما الأبناء فثمانية نحو ابن أبزى، وأما شيوخه في المسند فبلغوا مائتين وثلاثة وثمانين رجلاً[2]. وفوق ذلك نجد لكل صحابي طائفة كبيرة من فقهه وفتاويه، ففي مسند عمر طائفة من الفتاوي التي كان يفتي بها، وفي مسند علي وعثمان وعبد الله بن مسعود وغير هؤلاء فتاوى كبيرة وعظيمة من فتاويهم، وأقضية من ولي منهم.

---

(١) تاريخ بغداد ٩/٣٧٥.

(٢) المصعد الأحمد (٣٤).

وفي صحته يقول الحافظ أبو موسى بن أبي بكر المديني عن مسند الإمام أحمد: إنه صحيح.

وليس هذا القول صحيحاً على إطلاقه، فإن فيه ـ على ما يقول ابن كثير ـ أحاديث ضعيفة، بل موضوعة كأحاديث فضائل مرو، وعسقلان، والبرت الأحمر عند حمص، وغير ذلك كما قد نبه عليه طائفة من الحفاظ. ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام جيد ذكره في التوسل والوسيلة خلاصته: إن كان المراد بالموضوع ما في سنده كذاب، فليس في المسند من ذلك شيء، وإن كان المراد ما لم يقله النبي ﷺ لغلط راويه وسوء حفظه ففي المسند والسنن من ذلك كثير. وقال أبو موسى المديني[1]: ولم يخرِّج ـ أي أحمد في المسند ـ إلا من ثبت عنده صدقه وديانته، دون من طعن في أمانته، أما ما فيه من موضوعات قد ثبت الكذب في بعض رواتها، فليست ـ على الغالب ـ من روايته، ومن الدليل على أن ما أودعه الإمام أحمد في مسنده قد احتاط إسناداً ومتناً، ولم يورد فيه إلا ما صح عنده على ما أخبرنا أبو علي سنة خمس، قال: حدثنا أبو نعيم (ح) وأخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا القطيعي قال: حدثنا عبد الله قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة عن أبي التيّاح، قال: سمعت أبا زرعة يحدث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يهلك أمتي هذا الحي من قريش» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «لو أنّ الناس اعتزلوهم» قال عبد الله: قال لي أبي في مرضه الذي مات فيه: اضرب على هذا الحديث، فإنه خلاف الأحاديث عن النبي ﷺ، يعني قوله: «اسمعوا وأطيعوا واصبروا»[2].

(١) المصعد الأحمد.

(٢) خصائص المسند (٢٤).

وهذا مع ثقة رجال إسناده حين شذ لفظه عن الأحاديث المشاهير أمر بالضرب عليه، فقال عليه ما قلناه.

فالإمام أحمد ـ رحمه الله ـ قد أولى مسنده عناية عجيبة إلا أن ابنه عبد الله هو الذي جمع ورتب ذلك الحشد الهائل من المادة، وما فيه من موضوعات قد ثبت الكذب في بعض رواتها، فليست ـ على الغالب ـ من رواية الإمام، وإنما هي من رواية ابنه أو من زيادة القطيعي. وقد صنف خاتمة المحدثين ابن حجر العسقلاني كتابه «القول المسدد في الذب عن مسند أحمد» رد فيه عما أورده شيخه العراقي من أن الموضوع في المسند من رواية أحمد أو ابنه.

وخلاصة الكلام: العلماء متفقون على أن في المسند الضعيف والموضوع، والأقرب أنهما من رواية عبد الله لا من رواية أبيه.

هذا وقد أُلف أربعة كتب في شأن المسند خاصة، وهي أجزاء صغيرة أحدها «خصائص المسند» للحافظ أبي موسى المديني المتوفى سنة ٥٨١ هـ، وقد نشره في أول المسند أحمد محمد شاكر. والثاني «المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد» للحافظ شمس الدين ابن الجزري إمام القراءات المتوفى سنة ٨٣٣ هـ. والثالث «القول المسدد في الذب عن المسند» للحافظ ابن حجر العسقلاني. والرابع «ذيل القول المسدد» لمحمد صبغة الله المدراسي، فرَغ من تأليفه سنة ١٢٨١ هـ.

ولشمس الدين بن الجزري ـ المحدث الكبير والقارىء الشهير ـ قصيدة في مسند الإمام أحمد حين ختمه سماعاً في كتابه «المصعد الأحمد» ننتخب منها بعضها:

حـديث النبي المصـطفى خيـر مسنـد
وسـنـتـه الـغـراء أرفـع مـسـنـد
فـطوبى لمن أضحى الحـديث شعـاره
وبشـرى لمن أمسى بـالآخبـار يقتـدي
ويـا فـوز مـن بـات النبـي سـميـره
ومن نـوره في ظلمـة الجهـل يهتـدي
ويـا سعـد من كـان الصحـابـة حـولـه
يـروح عـليهـم بـالحـديث ويـغـتـدي
وإن كـتـاب المسـنـد البحـر لـلرضى
فـتـى حـنـبـل لـلدين آيـة مـسـنـدِ
حـوى من حديث المصطفى كل جـوهر
وجـمَّـع فـيـه كـل دُرٍّ مـنـضـد
فمـا من صحيح كـالبخـاري جـامعـاً
ولا مـسـنـد يُلفَى كـمسـنـد أحـمـد
إمـام هـدى لـلنـاس أفضـل مقـتـدى
شـديـد كـبـيـر لـلخـلائق مـرشـد
هـو الـصـابـر الأواه في محـن دهـت
لـه المنة العـظمى على كـل مهتـدي
ويـكـفـيـه مـدح الـشـافـعي وثـنـاؤه
فـسبـحـان من قـد خـصـه بـالـتـفـرد

والقصيدة في ستة وثلاثين بيتاً اكتفينا منها بعشرة أبيات.

تشدده في السند وحيناً تساهله:

كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يحرص على ما نسب إلى رسول الله ﷺ من حديث خشية أن يطرح ما يجوز أن يكون صحيحاً ـ ولو كان في سنده ليس بذاك ـ وإذا طرح من الروايات الضعيفة والشاذة والموضوعة الكثير فما يزال في كتبه أحاديث هي في مصطلح المحدثين لا تبلغ الثبوت، وقد قدمنا ما في المسند من الضعيف والأضعف، والموضوع. ولقد وضع الإمام لنفسه قاعدة في التشدد في الإسناد، وفي التساهل حيناً هي قوله[1]: إذا جاء الحديث في فضائل الأعمال، وثوابها، وترغيبها، تساهلنا في إسناده، وإذا جاء الحديث في الحدود والكفّارات والفرائض تشددنا فيه.

طريقته في دروسه:

كان ـ رحمه الله ـ لا يلقي[2] الدروس من غير طلب، بل يُسأل عن الأحاديث المروية في موضوع ما، فيستحضر الكتب التي دوّن فيها تلك الأحاديث، فهو أولاً: ما كان يقول حتى يطلب منه، وثانياً: كان إذا قال حديثاً نبوياً لا يقول إلا من كتاب حرصاً على جودة النقل.

وقال عبد الله بن أحمد[3]: ما رأيت أبي حدث من حفظه من غير كتاب إلا بأقل من مائة حديث، ولقد كان يحث تلاميذه وأصحابه على ذلك، وينهاهم أن يحدثوا من غير كتاب خشية أن يضلوا. ويروى أن علي بن المديني[4] كان لا يحدث إلا من كتاب وقال: إن سيدي

---

(١) شذرات ٢/٩٨.
(٢) ابن حنبل لأبي زهرة (٣٧).
(٣) الحلية ٩/١٦٥.
(٤) شذرات ٢/٩٧.

أحمد بن حنبل أمرني ألا أحدث إلا من كتاب. وقال أيضاً[1]: ليس في أصحابنا أحفظ من أبي عبد الله أحمد بـن حنبل إلا أنه لا يحدث إلا من كتابه، ولنا فيه أسوة حسنة.

وقال يحيى بن معين[2]: دخلت على أبي عبد الله أحمد بن حنبل، فقلت له: أوصني، فقال: لا تحدث المسند إلا من كتاب.

حرصه على أوراقه:

لقد كان يعتمد على أوراقه في التحديث كما سبق، وكان أنفس شيء لديه ما جمعه من حديث رسول الله ﷺ، لذلك كان أحرص الناس على أوراقه، بل كل شيء دونها جلل.

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل[3]: نزلنا بمكة داراً، وكان فيها شيخ يكنى بأبي بكر بن سماعة ـ وكان من أهل مكة ـ قال: نزل علينا أبو عبد الله في هذا الدار وأنا غلام، قال: فقالت لي أمي: الزم هذا الرجل، واخدمه، فإنه رجل صالح، فكنت أخدمه، وكان يخرج يطلب الحديث، فسرق متاعه وقماشه، فجاء يوماً، فقالت له أمي: دخل عليك السراق فسرقوا قماشك، فقال: ما فعلت الألواح؟ فقالت له أمي: في الطاق، وما سأل عن شيء غيرها!!.

إيثاره الإسناد العالي:

كان رحمه الله يرى أن طلب الإسناد العالي من سنة السلف، فقد سئل[4] عن الرجل يطلب الإسناد العالي فقال: طلب الإسناد العالي سنة عمن سلف، لأن أصحاب عبد الله ـ أي ابن مسعود ـ كانوا يرحلون من الكوفة إلى المدينة فيتعلمون من عمر ويسمعون منه. وكان

---

(١) الحلية ١٦٥/٩.

(٢) شذرات ٩٧/٢.

(٣) ابن عساكر ٧٣ ـ أ.

(٤) المناقب (٢٠٣).

يقول: طلب علو الإسناد من السنة.

تعظيمه أهل الحديث:

لم يكن العلم في الدين ـ عند الإمام أحمد ـ إلا جمع السنة، والانتقاء منها، وفهمها واستخراج الأحكام التفصيلية منها، لذلك كان أحب الناس إليه وأفضلهم عنده وأجدرهم بتعظيمه المحدثون. قال رحمه الله[1]: أصحاب الحديث أمراء العلم. وقال رحمه الله: من عظَّم أصحاب الحديث تعظَّم في عين رسول الله، ومن حقرهم سقط من عين رسول الله، لأن أصحاب الحديث أحبار رسول الله[2]. ويقول الفضل الزبيدي: سمعت أحمد يقول ـ وقد أقبل أصحاب الحديث وبأيديهم المحابر ـ فأومى إليها، وقال: هذه سُرُج الإسلام. وقال مرة فيهم: إن لم يكونوا هؤلاء الناس فلا أدري من الناس[3]!!.

قال محمد ين إسماعيل البخاري: كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي، عند أحمد بن حنبل، فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبد الله، ذكروا لابن أبي قبيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: قوم سوء؛ فقام أحمد ـ وهو ينفض ثوبه ـ فقال: زنديق، زنديق، زنديق، ودخل بيته[4].

وأخرج أحمد في مسنده[5] الحديث عن النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة». وسئل الإمام أحمد عن معنى هذا الحديث، فقال: إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فما أدري من هم؟!.

* * *

(١) طبقات الحنابلة ٢/٣٠٧.

(٢ و٣ و ٤) المناقب (١٨٠ ـ ١٨١).

(٥) وهو أيضاً في البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة.

فقه الإمام أحمد

هل كان الإمام فقيهاً؟

إن لم يكن الإمام أحمد فقيهاً، فما أحد من الصحابة والتابعين بفقيه، وذلك أنهم عرفوا الفقه على أنه السعي إلى فهم ما شرع الله في كتابه الكريم وما بيِّن رسول الله ﷺ في سنّته بما تدل عليه الألفاظ والتعابير بما عرف من أساليب العرب، مع اجتهاد لفهم مقاصد الشارع، من غير إجهاد للنص بتأويل يخرجه عما أريد به.

ولقد كان العلماء في عصر سعيد بن المسيِّب، وإبراهيم، والزهري، وفي عصر مالك وسفيان يكرهون الخوض بالرأي، ويهابون الفتيا والاستنباط إلا لضرورة لا يجدون منها بداً، وكان أكبر همهم رواية حديث رسول الله ﷺ، قال معاذ بن جبل: يا أيها الناس، لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، فإنه لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سرد ـ أي تلا من كلام الله وحدث بما روي عن رسول الله ـ. وقال ابن عمر لجابر بن زيد: إنك من فقهاء البصرة فلا تفتِ إلا بقرآن ناطق، أو سنّة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت. وقال الشعبي: ما حدثك هؤلاء عن رسول الله ﷺ فخذ به، وما قالوه برأيهم فألقه في الحش. وسئل عبد الله بن مسعود عن شيء فقال: إني لأكره أن أحل لك شيئاً حرمه الله عليك[1].

(١) هذه الآثار عن الدارمي كما في حجة الله البالغة ١٤٨/١.

وقال القعنبي: دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه، فسلمت عليه، ثم جلست فرأيته يبكي، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي يبكيك؟ فقال لي: يا ابن قعنب، ومالي لا أبكي؟ ومن أحق بالبكاء مني؟ والله لوددت أني ضربت بكل مسألة أفتيت فيها برأيي بسوط سوط، وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه، وليتني لم أفت بالرأي[1].

وفي البخاري[2]: قال سهل بن حنيف يوم صفين: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، والله لقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أني أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته.

وعلى هذا فالإمام أحمد فقيه عصره، ولئن لم يؤلف كتاباً في الفقه، لقد أجاب عن ستين ألف مسألة بقال الله تعالى، وقال رسول الله ﷺ، ثم بما أفتى به الصحابة رضوان الله عليهم، ثم بما عليه سلف الأمة، وقد يضطر إلى استعمال القياس حين لم يكن له مندوحة عنه. وإذا لم يكن له كتاب في الفقه فما أحد من الأئمة ألَّف في الفقه ـ باستثناء الإمام الشافعي ـ وإنما تركوا فتاوى معها بعض الأدلة، فبنى مَن بعدهم المذهب عليها.

على أن أصحاب الأثر أكثر علماً به، وإحاطة وفهماً، مع استقرائهم لفتاوى الصحابة والتابعين، وتبينهم أدلتها، ومحاولة الترجيح بينها، ودقتهم في انتقاء ما ينبغي العمل به، ومعرفتهم بالناسخ والمنسوخ والعام والخاص، وغير ذلك مما تجب معرفته، ولا بد لهم أيضاً من حشد الطاقة العقلية في سبيل هذا كله، وفي نطاق الكتاب والسنّة، ولا

---

(١) مقدمة الموطأ بشرح السيوطي.

(٢) كما في الموافقات ١/٩٤.

مكان للاجتهاد عند هؤلاء في قطعي الدلالة والثبوت ولا في ظني الثبوت قطعي الدلالة.

ويرحم الله شمس الإسلام علي بن محمد بن علي الشافعي المعروف بـ«إلكيا الهراسي» إذ كان يقول[1]: «إذا جالت فرسان الأحاديث في ميادين الكفاح، طارت رؤوس المقاييس في مهاب الرياح». وقال ابن القيم: «وإن قالوا: الصواب الذي لا صواب غيره أن دين الله واحد، وهو ما أنزل الله به كتابه، وأرسل به رسوله، وارتضاه لعباده، كما أن نبيه واحد، وقبلته واحدة، فمن وافقه فهو المصيب وله أجران، ومن أخطأه فله أجر واحد على اجتهاده لا على خطئه، قيل لهم: فالواجب إذن طلب الحق، وبذل الاجتهاد في الوصول إليه بحسب الإمكان، لأن الله سبحانه أوجب على الخلق تقواه بحسب الاستطاعة. وتقواه: فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، فلا بد أن يعرف العبد ما أمر به ليفعله، وما نهي عنه ليجتنبه، وما أبيح له ليأتيه». وهذه هي طريقة فقه الإمام، وهذا الذي جعله إماماً.

وعلى هذا قال إسحاق بن راهويه: كنت أجالس بالعراق أحمد ابن حنبل، ويحيى بن معين وأصحابنا، فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة، فيقول يحيى بن معين من بينهم: وطريق كذا؟ فأقول: أليس قد صح هذا بإجماع منا؟ فيقولون: نعم، فأقول: ما مراده؟ ما تفسيره؟ ما فقهه؟ فيقفون كلهم إلا أحمد بن حنبل[2]. ويقول أبو عاصم ـ وذكر الفقه ـ ليس ثَمَّ ـ يعني ببغداد ـ إلا ذاك الرجل ـ يعني أحمد بن حنبل ـ ما جاءنا أحد من ثَمَّ غيره يحسن

(1) طبقات الشافعية ٧/٢٣٢.
(2) ابن عساكر ٧١ ـ أ.

الفقه[1]. وطبيعي أنه إنما يريد فقه أهل السنّة.

وقال عبد الرزاق الصنعاني - صاحب المصنف - وهو من شيوخ أحمد: ما رأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أورع[2]. وقال أبو عبيد: انتهى العلم إلى أربعة[3]: أفقههم أحمد. وقال أبو ثور: أحمد أفقه من الثوري[4]. وقال أبو زرعة الرازي: ما أعرف في أصحابنا أسودَ الرأس أفقه منه[5]. وقال الخلال: وكان أحمد قد كتب كُتب الرأي وحفظها، ثم لم يلتفت إليها، وكان إذا تكلم في الفقه تكلم كلام رجل قد انتقد العلم، فتكلم عن معرفة[6]. وهذا يدل على أنه عرف ما عند أهل الرأي الذين يُدلُّون بأنهم الفقهاء، ولكنه لم يلتفت إليه لأن العلم والفقه ملكة يقتدر بها على إدراك فقه الآثار.

ومن المعروف أنه سمع من الشافعي فذهل به، رأى فهماً ثاقباً لكتاب الله، وفقهاً راسخاً دقيقاً بسنّة رسول الله ﷺ، يقول محمد بن الفضل الفراء: سمعت أبي يقول: حججت مع أحمد بن حنبل، فنزلت في مكان واحد معه، فخرج باكراً وخرجت معه، فدرت المسجد فلم أره في مجلس ابن عيينة ولا غيره، حتى وجدته جالساً مع أعرابي[7]، فقلت: يا أبا عبد الله، تركت ابن عيينة، وجئت إلى هذا؟ فقال لي: اسكت، إنك إن فاتك حديث بعلو، وجدته بنزول،

---

(١) الحلية ١٦٧/٩.
(٢) طبقات الشافعية ٢٨/٢.
(٣) التذكرة (٤٣٢).
(٤) التذكرة.
(٥) البداية ٣٣٦/١٠.
(٦) المناقب (٦٣٤).
(٧) وكان الشافعي بزيِّه ونطقه يشبه الأعراب.

وإن فاتك عقل هذا أخاف ألا تجده ، ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى، قلت: ومن هذا؟ قال: محمد بن إدريس.

سمع أحمد من الشافعي مرات: في العراق أكثر من مرة، وفي مكة، فأعجب به، وآثر سماع فقهه على رواية الحديث بعلو؛ وهذا يدل على أنه حريص على أن ينمي فيه ملكة الفقه قدر حرصه على أن يكتب الحديث بعلو إن لم يكن أكثر؛ ولكنه فقه الأصلين، لا فقه الرأي الذي لا يمت إليهما في بعض أحواله إلا بخيط دقيق لا يدركه إلا من وضعه.

فالإمام أحمد فقيه، دقيق النظر، عظيم الحيطة، كبير الورع، غزير المادة من علمي الكتاب والسنّة، أعظم ما يخشاه أن يقرر حكماً ليس هو حكمَ الله ورسوله، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾[1] ويتلو قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله، واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾[2] أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه، وقوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾[3].

ورضي الله عن ابن عباس أكثر الناس مرة عليه بشأن متعة الحج، وهو يحتج عليهم بالأحاديث الثابتة، فلما أكثروا عليه في ذلك قال:

---

(١) الأحزاب (٣٦).
(٢) الحجرات (١).
(٣) النساء (٦١).

«يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم: قال رسول الله ﷺ وتقولون أبو بكر وعمر!!».

وكذلك الشأن بعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كانوا إذا احتجوا[1] عليه بأبيه يقول: «إن عمر لم يرد ما تقولون فإذا أكثروا عليه قال: أمر رسول الله أحق أن تتبعوا أم عمر؟!».

هذا في قول كبار الصحابة الملهمين، فما بالنا بقول من هم بالنسبة لهما ولأمثالهما كشعرة في مفرق؟! وعلى هذا كان الإمام أحمد يقول: من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة[2].

وكان الإمام الشافعي يقول: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنّة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس[3].

والغريب ـ مع كل ذلك ـ أن هناك فئة لا ترى أن الإمام أحمد فقيه، ومن هؤلاء ابن جرير الطبري لم يذكر مذهبه في كتابه «اختلاف الفقهاء» ولم يذكره الطحاوي والدبوسي والنسفي والأصيل المالكي ممن كانوا يؤلفون في الخلاف، وابن عبد البر لم يضعه في كتابه «الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء».

قال أبو الوفاء علي بن عقيل: ومن عجيب ما تسمعه عن هؤلاء الأحداث الجهال أنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه، ولكنه محدِّث، وهذا غاية الجهل، لأنه قد خرج عنه اختيارات بناها على الأحاديث بناءً لا يعرفه أكثرهم، وخرج عنه من دقيق الفقه ما ليس نراه لأحد منهم، وانفرد بما سلّموه له من الحفظ، وشاركهم، وربما زاد على كبارهم[4].

---

(١) الطرق الحكمية (١٩ ـ ٢٠).
(٢) المناقب (١٨٢).
(٣) أعلام الموقعين ١/٧.
(٤) المناقب (٦٤).

وقال أبو القاسم الحنبلي ـ وكفاك به ـ: أكثر الناس يظنون أن أحمد إنما كان أكثر ذكره لموضع المحنة وليس هو كذلك، كان أحمد إذا سئل عن المسألة كأن عِلْم الدنيا بين عينيه[١].

وفي نطاق الحديث يعد أحمد بن حنبل مجتهداً مستقلاً، وقد كان قادراً ـ كما يقول العلاّمة ابن تيمية ـ على أن يختار لنفسه من ذلك الحشد من الأحاديث والأقوال التي تلقاها عن شيوخه.

وسئل يحيى بن معين عن مسألة سكنى في دكان، فقال: ليس هذا بابتنا ـ أي ليس مما نشتغل به ـ هذا بابة أحمد بن حنبل[٢]. يعترف يحيى بن معين عالم العلماء بالجرح والتعديل أنه ليس بفقيه ولا مجتهد؛ وإنما هذه صفة أحمد بن حنبل، وهو من أعرف الناس بالإمام أحمد.

ولدقة فقه الإمام وورعه واحتياطه لدينه جعله كثير من أئمة الحديث ـ وفيهم الفقهاء ـ حجة عند الله، أي قلّدوه واقتدوا به. قال إسحاق ابن راهويه: أحمد بن حنبل حجة بين الله وبين عبيده في أرضه[٣]. وقال علي بن المديني: إذا ابتليت بشيء فأفتاني أحمد بن حنبل، لم أبالِ إذا لقيت ربي كيف كان[٤].

وقال المروزي: حضرت أبا ثور ـ وقد سئل عن مسألة ـ فقال: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل شيخنا وإمامنا فيها كذا وكذا[٥].

---

(١) المصدر نفسه (٦٢).
(٢) المناقب (٦٣).
(٣) ابن عساكر ٦٧ ـ أ.
(٤) البداية والنهاية ١٠/٣٣٦.
(٥) ابن عساكر ٦٨ ـ أ.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: قد جعلت أحمد بن حنبل إماماً فيما بيني وبين الله عزّ وجلّ[1].

ومن الطريف أن امرأتين مجوسيتين اختصمتا في مواريث لهما إلى رجل من المسلمين، فقضى لواحدة منهما على الأخرى، فقالت له: إن كنت قضيت عليّ بقضاء أحمد بن حنبل رضيت، وإلا فلا أرضى[2]. ومعنى هذا أن الإمام أحمد شهر بفقهه وورعه حتى بلغ تَيْن المجوسيتين.

رؤيا صادقة تؤيد مذهب أحمد:

قال أبو بكر أحمد بن محمد بن بكر الرملي قاضي دمشق[3]: دخلت العراق فكتبت كتب أهل العراق، وكتبت كتب أهل الحجاز، فمن كثرة اختلافهما لم أدرِ بأيهما آخذ، فعبرت باب الطاق[4]، وأنا أريد الكرخ، وقطيعة الربيع[5]، فحضرت صلاة المغرب فدخلت المسجد، فلما أن قلت: الله أكبر، تفكرت في قول أهل العراق: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» وفي قول أهل الحجاز: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» قال: فمن كثرة اختلافهما تركت الجماعة وخرجت، فأصابني همٌّ، وبت بغم، فلما كان في جوف الليل قمت وتوضأت وصليت ركعتين وقلت: اللهم اهدني لما تحب وترضى، ثم أويت إلى فراشي، فرأيت النبي ﷺ - فيما يرى النائم - دخل من باب بني شيبة، فأسند ظهره إلى الكعبة، ورأيت الشافعي وأحمد بن حنبل

---

(1) ابن عساكر ٧٠ - أ.
(2) الحلية ١٧٣/٩.
(3) ابن عساكر: ترجمة أحمد بن محمد بن بكر الرملي.
(4) باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي.
(5) قطيعة الربيع: محلة ببغداد.

على يمين النبي ﷺ يبتسم إليهما، ورأيت بشراً المريسي على يسار النبي ﷺ مُكلَّح الوجه؛ فقلت: يا رسول الله، من كثرة اختلاف هذين الرجلين لم أدرِ بأيهما آخذ، فأومأ إلى الشافعي وأحمد بن حنبل وقال: ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ﴾[1] ثم أومأ إلى بشر المريسي وقال: ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء، فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾[1].

قال أبو بكر: والله لقد رأيت هذه الرؤيا، وتصدقتُ من الغد بألف دينار، وعلمت أن الحق مع الشيخين ـ الشافعي وأحمد ـ لقول النبي ﷺ: «الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية»، ولقوله ﷺ: «تعلَّموا من قريش ولا تعلِّموها»؛ فوجدنا الشافعي قرشياً مطَّلبياً، فحق على أهل الإسلام أن يتبعوه في مقالته، وبالله التوفيق.

ورأى أحمد بن نصر رؤيا تشبهها، قال[2]: رأيت النبي ﷺ في منامي، فقلت له: يا رسول الله، أبمن تأمرنا أن نقتدي من أمتك في عصرنا ونركن إلى قوله، ونعتقد مذهبه؟ فقال لي: عليكم بمحمد بن إدريس فإنه مني، وإن الله قد رضي عنه، وعن جميع أصحابه، ومن يصحبه ويعتقد مذهبه إلى يوم القيامة.

فقلت له: وبمن؟ قال: بأحمد بن حنبل، فنعم الفقيه الورع الزاهد.

كراهيته أن يكتب اجتهاده واجتهاد غيره:

عرف عن الإمام أنه كان يكره أن يكتب اجتهاد وفتاويه، فقد روي أن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني المتوفى سنة ٢٧٤ هـ ـ أحد

---

(١) الأنعام (٨٩).

(٢) ابن عساكر: ترجمة أحمد بن حنبل.

أصحاب أحمد ـ قال: سألت أبا عبد الله عن مسائل نكتبها، فقال: أي شيء قلت يا أبا الحسن؟ فلولا الحياء منك ما تركتك تكتبها، وإنه عليَّ لشديد، والحديث أحب إليّ منها.

قلت: إنما تطيب نفسي في الحمل عنك، إنك تعلم أنه منذ مضى رسول الله ﷺ قد لزم أصحابه قوم، ثم لم يزل يكون للرجل أصحاب يلزمونه ويكتبون، قال: من كتب؟ قلت: أبو هريرة، وكان عبد الله بن عمرو يكتب، فقال لي: فهذا الحديث، فقلت له: فما المسائل إلا حديث، ومن الحديث تشتق. وقال حنبل بن إسحاق: رأيت أبا عبد الله يكره أن يكتب شيء من رأيه أو فتاويه.

وقال الإمام أحمد: بلغني أن إسحاق الكوسج يروي عني مسائل بخراسان، اشهدوا أني قد رجعت عن ذلك كله[1].

وكما كان يكره أن يكتب فقهه كان يكره أن يكتب فقه غيره واجتهاده حتى من كان يحبهم من الأئمة ويؤثرهم ويثني عليهم؛ ذلك أنه ـ رحمه الله ـ كان يخشى أشد الخشية أن ينصرف العلماء والناس عن النصوص الحقيقية من الكتاب والسنّة إلى أقوال واجتهادات لم تصدر عن معصوم، وكبار الأئمة المجتهدون ما يريدون أن يأخذ علمهم من بعدهم بتقليد دون معرفة الأدلة. يقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله: لا ينبغي لأحد أن يقول قولي حتى يعلم من أين أخذته. ويقول المزني من أصحاب الإمام الشافعي في مقدمة كتابه المختصر: اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، ومن معنى قوله، لأقربه على من أراده، مع إعلاميه نهيه عن تقليده، وتقليد غيره، لينظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه. والإمام مالك من كبار أئمة

---

(١) المناقب (١٩٣).

الحديث في عصره، ندم في مرض الموت وبكى على أنه لم يجعل اجتهاده كله وفتاويه من الأصلين كما تقدم.

وقال الإمام أحمد لعثمان بن سعيد: لا تنظر في كتب أبي عبيد، ولا فيما وضع إسحاق ـ يعني ابن راهويه ـ ولا سفيان ولا الشافعي، ولا مالك، عليك بالأصل[1].

وسأله رجل: أكتب كتب الرأي؟ قال: لا، قال: فابن المبارك كتبها، قال: ابن المبارك لم ينزل من السماء، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق[2].

جمع فقه الإمام:

لئن كان الإمام متشدداً في منع من يريد كتابة اجتهاده وأقواله؛ لقد كتب عنه ـ مع ذلك ـ الكثير جداً. يقول ابن القيم: «كان أحمد شديد الكراهة لتصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث، ويكره أن يكتب كلامه، ويشتد عليه جداً، فعلم الله حسن نيته وقصده، فكتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سِفراً ومنَّ الله علينا بأكثرها، فلم يفتنا منها إلا القليل.

وجمع الخلال نصوصه في الجامع الكبير فبلغ نحو عشرين سِفراً أو أكثر، ورويت فتاويه ومسائله، وحدث بها قرناً بعد قرن، فاصرت إماماً وقدوة لأهل السنّة على اختلاف طبقاتهم، حتى إن المخالفين لمذهبه بالاجتهاد، والمقلدين لغيره ليعظمون نصوصه وفتاويه، ويعرفون لها حقها وقربها من النصوص وفتاوي الصحابة، ومن تأمّل فتاويه وفتاوي الصحابة، رأى مطابقة كل منهما على الأخرى، ورأى الجميع كأنها

(١ و٢) أعلام الموقعين ١/٢٨.

تخرج من مشكاة واحدة حتى إن الصحابة إذا اختلفوا على قولين جاء عنه في المسألة روايتان»[1].

وأول من دون المسائل في الفقه عن أحمد بن حنبل ولداه: صالح وعبد الله، والكوسج المتوفى سنة ٢٥١ هـ. وهذا هو الذي بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن بعض تلك المسائل، فحملها في جراب على كتفيه، وسافر راجلاً إلى أحمد، ثم عرض خطوط أحمد على كل مسألة استفتاه عنها، فأقر له، وأعجب به.

ثم دون المسائل أبو بكر الأثرم المتوفى سنة ٢٦٠ هـ، ثم حنبل ابن إسحاق المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، ثم عبد الملك الميموني المتوفى سنة ٢٧٤ هـ، وأبو بكر المروزي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ، وأبو داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، وحرب الكرماني المتوفى سنة ٢٨٠ هـ، وإبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ.

والذي جمع هذا كله من علم الإمام أحمد وفقهه أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال المتوفى سنة ٣١١ هـ.

يقول أبو بكر محمد بن الحسين بن شهريار: كلنا تبع للخلال لأنه لم يسبقه إلى جمعه وعلمه أحد[2]. وصنف في ذلك «كتاب السنّة» في ثلاث مجلدات و «كتاب العلل» في عدة مجلدات و «كتاب الجامع لعلوم الإمام أحمد» نحو مائتي جزء، قيل: لم يصنف في مذهبه مثله[3].

---

(١) إعلام الموقعين ٢٨/١.
(٢) تاريخ بغداد ١١٣/٥.
(٣) تذكرة الحفاظ ٧٨٥.

وقال الخطيب عن الخلال: وكان ممن صرف عنايته إلى جمع علوم أحمد بن حنبل، وتطلُّبها، وسافر لأجلها، وكتبها عاليةً ونازلة، وصنفها كتباً، ولم يكن فيمن ينتحل مذهب أحمد بن حنبل أجمع منه لذلك[1].

فقهه واجتهاده:

عرفنا مما تقدم تعلق أحمد بالأثر، فهو أساس اجتهاده وفتاويه، لا يعدل عن ذلك إلى القياس حتى يستنفد النصوص، ثم اجتهاد الصحابة، وإذا كان للصحابة رأيان رجّح بينهما أو أقر الرأيين معاً، ولهذا يروى عنه في المسألة روايتان، وحيناً ثلاث روايات، قال عبد الوهاب الوراق: «ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، فقالوا له: وأي شيء بان لك من فضله؟ فقال: رجل سئل ستين ألف مسألة فأجاب فيها: حدثنا وأخبرنا».

يجيب الإمام بستين ألف مسألة، من خراسان وما وراءها، والعراق وفارس وما حولهما.

واشتهاره بالسنّة والعلم بها، مع الأمانة والدين والورع، وصبره على البلاء في اعتقاده، جعل الناس يتناثلون إليه من كل صوب يستفتونه في كل ما يعرض لهم من أمور دينهم ودنياهم.

وإذا لم تكن ستون ألف مسألة تصنع من أحمد فقيهاً إماماً مجتهداً فما أحد ـ في هذا القياس ـ جديراً أن يكون إماماً مجتهداً؛ فمن الصعب أن يُجمع لأحد من كبار المجتهدين هذا العدد الضخم من المسائل، حتى ولو كان في هذا القول بعض المبالغة.

---

(١) تاريخ بغداد ١١٢/٥.

وليس معنى أن يكون جوابه للمسألة يحدثنا وأخبرنا أنه كان يُلقي بالأثر من غير فقه، بل كان دقيقاً بما يفتي، عليماً بما يأخذ أو ما يدع، حتى إنه ربما أجاب إجابة فيها من بعد النظر وشموله ما لا يصل إليه كثير ممن شهر بالاجتهاد. قال علي بن عقيل[1]: ومما وجدناه من فقه أحمد ودقة علمه: أنه سئل عن رجل نذر أن يطوف بالبيت على أربع، فقال: يطوف طوافين، ولا يطوف على أربع. يقول ابن عقيل: فانظر إلى هذا الفقه، كأنه نظر إلى الانكباب فرآه مُثْلة، وخروجاً عن صورة الحيوان الناطق إلى التشبه بـالبهيم، فصانـه، وصان البيت والمسجد عن الشهرة، ولم يبطل حكم لفظه بالمشي على اليدين، فأبدلها بالرجلين التي هي آلة المشي. ومن دقيق اجتهاده: أنه سئل[2] عن رجل حلف بالطلاق ثلاثاً أنه لا بد أن يطأ امرأته الليلة فوجدها حائضاً، قال: تطلق منه امرأته ولا يطؤها، قد أباح الله الطلاق، وحرم وطء الحائض. وقال ابن عقيل: ولقد كانت نوادر أحمد نوادرَ مجتهدٍ بلغ من دقة الفهم ما لم يبلغه كثير غيره، فمن ذلك[3] أن أبا عبيد قصده فقام من مجلسه، فقال: يا أبا عبد الله، أليس قد روي: المرء أحق بمجلسه، فقال: بلى، يجلس ويُجلس فيه من أحب.

أساس فقهه:

هناك قاعدة يطبق عليها الفقه الحنبلي اختصرها ابن تيمية في قوله: «توقيف في العبادات، وعفو في المعاملات»، وقد فصل هذا القول ابن قيم الجوزية بقوله[4]: «الأصل في العبادات البطلان، حتى يقوم

---

(١) المناقب (٦٥).

(٢) المناقب (٦٤).

(٣) نفس المصدر (٦٦).

(٤) إعلام الموقعين: ج ١ (ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

دليل على الأمر. والأصل في العقود والمعاملات الصحة حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم. والفرق بينهما أن الله سبحانه وتعالى لا يُعبد إلا بما شرعه على ألسنة رسله، فإن العبادة حقُّه على عباده، وحقه الذي أحقَّه هو، ورضي به وشرعه، وأمّا العقود والشروط والمعاملات فهي عفو حتى يحرمها، ولهذا نعى الله سبحانه وتعالى على المشركين مخالفة هذين الأصلين: وهو تحريم ما لم يحرمه، والتقرب إليه بما لم يشرعه، وهو سبحانه لو سكت عن إباحة ذلك وتحريمه لكان ذلك عفواً لا يجوز الحكم بتحريمه وإبطاله، فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه وما سكت عنه فهو عفو، فكل شرط وعقد ومعاملة سكت عنها فإنه لا يجوز القول بتحريمها، فإنه سكت عنها رحمة منه من غير نسيان وإهمال».

وهذا الأصل يعطي الفقه الحنبلي صفة الحركة والمرونة اللتين تُحلان أكثر مشاكل العصور والأمم.

هذا أساس فقه الإمام، فالعبادات لا تحتمل من الاجتهاد إلا أن نفهم المراد من النص وندرك أنه محكم غير منسوخ، ونمتثل الأمر، ولا نقدم بين يدي الله ورسوله، والنصوص في العبادات كلها متكاملة لا تحتاج إلى من يتزيد فيها، وليس للقياس ولا الاستحسان ولا الإجماع مكان في العبادات عند الإمام أحمد.

والسماحة في المعاملات في المذهب الحنبلي في أمور كثيرة، ومن أهمها: حرية التعاقد إلا في حال مخالفته لصريح القرآن والسنّة؛ كالتعاقد على الميسر والربا والخمر والزنى.

وفي كتاب الله، وسنّة رسول الله، وعمل الصحابة مندوحة عن الضيق والحرج والتشدد.

من أصول فقه أحمد:

لم يضع أحد من الأئمة في القرون الثلاثة أصولاً لمذهبه، إلا الإمام الشافعي، فهو أول من وضع فن الأصول، وهذا معترف به من علماء هذا الشأن، إلا عند من طغى على عقله العصبية والتبجح. غاية الأمر أنه سُمع من الأئمة تعابير وأفكار تشير إلى بعض مناهجهم في الفتيا، ثم أتى من بعدهم أصحابهم فبنوا على ما وضع أئمتهم من خطوط عريضة، فأنشؤوا نواة أصول المذهب ثم نما ونَضِج.

وكذلك الإمام أحمد وضع أفكاراً في أصول مذهبه بنى عليها طريقته في الاجتهاد، وكان يذهب إلى أن الأدلة في الأحكام الشرعية، والحوادث التي لا تدخل تحت العلوم الضرورية مأخوذة من أصول خمسة[1]:

١ ـ كتاب الله ويقرأ: ﴿ما فَرَّطنا في الكتاب من شيء﴾[2].

٢ ـ سنّة رسول الله ﷺ ويتلو: ﴿فإن تَنازَعْتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرسول﴾[3].

٣ ـ إجماع أهل العصر من العلماء، أهل الحل والعقد، إذا لم يختلفوا، فإن خالف بعضهم ـ ولو واحد منهم ـ لم يكن إجماعاً. وإذا انتشر القول عن بعضهم، وعلمه جميعهم، فلم ينكروا شيئاً منه فهو إجماع.

وكان يقول: الإجماع إجماع الصحابة، ومن سواهم تبع لهم.

---

(١) طبقات الحنابلة ٢/٢٨٥.
(٢) الأنعام (٣٨).
(٣) النساء (٥٩).

وكان يحب إجماع أهل المدينة ويقدمه على غيره.

وكان يقول: إن صح إجماع بعد الصحابة، في عصر من الأعصار قلت به.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: ما يدَّعي فيه الرجل الإجماع فهو كذب.

وقال: من ادَّعى الإجماع فهو كاذب[1].

كما نقلوا عنه أنه قرر أن الإجماع على فرض وجوده فلا مطمع في العلم به.

٤ ـ قول الصحابي إذا انتشر ولم يعرف له منكر. وكذلك عنده إذا اختلف الصحابة على قولين وانقرض العصر على أحدهما جاز القول بالآخر عنده بعدهم.

٥ ـ القياس، وهو: رد الشيء إلى نظيره بعلة تجمع بين أصله وفرعه، فإن عُدم ذلك فلا قياس. وكان رحمه الله يجعل القياس في الأدلة بمنزلة الميتة مع الضرورة، والتراب عند عدم الماء، وكان يمنع ـ رحمه الله ـ من القول بالاستحسان، ليس الدين عنده مأخوذاً من طريق الحسن الجميل.

وعند ابن القيم: أن أصول الإمام مبنية على خمسة أصول أيضاً، مع بعض الاختلاف والتفصيل؛ قال[2]:

(أحدها): النصوص، فإذا وجد النص أفتى بموجبه، ولم يلتفت إلى ما خالفه، ولا من خالفه كائناً من كان، ولهذا لم يلتفت إلى

---

(١) ابن حنبل لأبي زهرة ٢٦٤.

(٢) خلاصة عن إعلام الموقعين ١/٢٩ ـ ٣٢.

خلاف عمر في المبتوتة[1]، لحديث فاطمة بنت قيس[2]، ولا إلى خلافه في التيمم للجنب لحديث عمار بن ياسر[3]، ولا إلى خلافه في استدامة المحرم الطيب الذي تطيَّب به قبل إحرامه لصحة حديث عائشة في ذلك، ولا خلافه في منع المفرد والقارن - في الحج - من الفسخ إلى التمتع، لصحة أحاديث الفسخ... الخ وقال: وهذا كثير جداً.

(الثاني): ما أفتى به الصحابة، فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى لا يُعرف له مخالف منهم فيها لم يعدُها إلى غيرها، ولم يقل: إن ذلك إجماع... إلى أن قال ابن القيم: وإذا وجد الإمام أحمد هذا النوع عن الصحابة لم يقدم عليه عملاً ولا رأياً ولا قياساً.

(الثالث): إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنّة، ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال، حكى الخلاف فيها، ولم يجزم بقول.

(الرابع): الأخذ بالمرسل، والحديث الضعيف، إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه، وهو الذي رجحه على القياس، وليس المراد بالضعيف عنده الباطل، ولا المنكر، ولا ما في روايته متّهم، بحيث لا يسوغ الذهاب إليه فالعمل به، بل الحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح، وقسم من أقسام الحسن - وهو رأي ابن تيمية أيضاً -.

(الخامس): القياس، فإذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة

(1) المبتوتة: هي المطلقة التي لا رجعة لها، وفي الحديث: «لا تبيت المبتوتة إلا في بيتها».
(2) وهو في مسند أحمد ٣٧٣/٦.
(3) وهو في مسند أحمد ٢٦٤/٤.

نص ولا قول عن الصحابة أو واحد منهم ولا أثر مرسل أو ضعيف؛ عدل إلى القياس، فاستعمله للضرورة، وقد قال في كتاب الخلال: سألت الشافعي عن القياس؟ فقال: إنما يصار إليه عند الضرورة. وكان الإمام أحمد شديد الكراهة والمنع للإفتاء بمسألة ليس فيها أثر عن السلف، كما قال لبعض أصحابه: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام[1].

وفي ترتيب المدارك: قال أحمد: الخبر الضعيف عندي خير من القياس[2].

وقال إسحاق بن إبراهيم بن هانىء في مسائله[3]: قلت لأبي عبد الله: حديث عن رسول الله ﷺ مرسل برجال ثبت أحب إليك أو حديث عن الصحابة والتابعين متصل برجال ثبت؟ فقال أبو عبد الله رحمه الله: «عن الصحابة أعجب لي». ورأيه أن الصحابة كانوا يعملون ويدركون، ويطبقون أحكام القرآن والسنّة على نحو أسلم من الأجيال المتأخرة، وجميع هؤلاء الصحابة أهل للصدق والثقة والتوقير؛ فإن كان في اجتهادهم بعض المخالفة لما في كتاب الله والثابت من حديث رسول الله فلا يقبل اجتهادٌ مّا معهما.

والأمر عنده على الوجوب، وصيغة «افعلوا» تدل بمجردها على كونه أمراً، وهي ـ عنده ـ على الفور، وإذا ورد لفظ أمر بعد تقدم نهي دل

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) ترتيب المدارك ١/ ٣٠. ويقول القاضي عياض تعليقاً على هذا بقوله: وبديهة العقل تنكر هذا، فلا خير في بناء على غير أساس. أقول: وعلى ما تقدم من قول ابن القيم: يريد بالضعيف الحسن.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٩.

على الإباحة دون الإيجاب، ويقرأ: ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾[1]. وكان يقول: الأمر بالشيء نهي عن ضده، ويقول: إن النهي يدل على فساد المنهي عنه[2]. وكان لا يرى القول بشريعة من مضى ويقول: قال تعالى: ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ﴾[3].

المصلحة المرسلة عنده:

ومن أصول الإمام رحمه الله المصالح المرسلة، ولم يذكرها ابن القيم مع الأصول الخمسة، وقد كان أكثر من أخذ بها الإمام أحمد والإمام مالك، وأقلهم أخذاً بها الحنفية فالشافعية.

وقد يستغرب أن يأخذ بها الإمام مع أنه شديد التعلق بالنصوص، ولكن إذا علمنا أنه كان يعتد كثيراً بأفعال الصحابة، وأنهم قاموا بكثير من جلائل الأعمال التي لم يرد بها نص بنفي أو إثبات؛ عرفنا لِمَ جعلها من أصوله. ولقد بالغ أصحابه بها حتى انتهى الأمر إلى الطوفي الحنبلي الذي كان يرى أن المصلحة مقدمة على النص، وهذا لا شك انحراف كبير، وهو لا يتفق مع أقوال الإمام ولا مع المذهب الحنبلي.

يقول ابن القيم[4]: «من المسلمين من فرطوا في رعاية المصلحة المرسلة، فجعلوا الشريعة قاصرة، لا تقوم بمصالح العباد، محتاجة إلى غيرها، وسدّوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من طرق الحق والعدل، ومنهم من أفرطوا فسوغوا ما ينافي شرع الله، وأحدثوا شراً طويلاً وفساداً عريضاً».

---

(١) طبقات الحنابلة ٢/٢٠٥، والآية في المائدة (٣).

(٢) نفس المصدر ٢٨٢.

(٣) المائدة (٤٨).

(٤) علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلّاف ٨٨.

بقي أن نعلم ما هي المصلحة المرسلة؟

المصلحة المرسلة: أي المطلقة، وهي في اصطلاح الأصوليين: «المصلحة[1] التي لم يشرع الشارع حكماً لتحقيقها، ولم يدل دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها، وسميت مطلقة لأنها لم تقيد بدليل اعتبار أو دليل إلغاء». ومثالها: المصلحة التي شَرَع لأجلها الصحابة اتخاذ السجون، أو ضرب النقود، أو غير هذا من المصالح التي اقتضتها الضرورات، أو الحاجات، أو التحسينات، ولم تشرع أحكام لها، ومعلوم أنّ مصالح الناس لا تنحصر جزئياتها، وأنها تتجدد بتجدد أحوال الناس، وتتطور باختلاف البيئات.

ودليل المصلحة المرسلة: أن من استقرأ تشريع الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين؛ تبين له أنهم شرعوا أحكاماً كثيرة لتحقيق مطلق المصلحة: فأبو بكر جمع الصحف المفرقة التي كانت مدوناً فيها القرآن، وحارب مانعي الزكاة، واستخلف عمر بن الخطاب. وعمر أمضى الطلاق ثلاثاً بكلمة واحدة، ومنع سهم المؤلفة قلوبهم من الفيء، ووضع الخراج، ودوّن الدواوين. وعثمان جمع المسلمين على مصحف واحد ونشره وحرق ما عداه، وورث زوجة من طلقها للفرار من إرثها. وعلي حرق الغلاة من الشيعة. والحنفية حجروا على المفتي الماجن، والطبيب الجاهل، والمكاري المفلس[2]. والمالكية أباحوا حبس المتهم وتعزيره توصلاً إلى إقراره. والشافعية أوجبوا القصاص من الجماعة إذا قتلوا الواحد.

أما الإمام أحمد فقد أخذ بها في السياسة الشرعية بشكل عام: وهي

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ابن حنبل لأبي زهرة ٢٩٧.

ما ينهجه الإمام لإصلاح الناس، وحَمْلهم على ما فيه مصلحة، وإبعادهم عما فيه مفسدة، وقرر ـ رحمه الله ـ في ذلك عقوبات في الأخذ بها إصلاح الناس، وإن لم يَرِد فيها نصوص. ولقد سار أصحاب أحمد وتلاميذهم في باب السياسة الشرعية إلى مدى بعيد، وأفتوا فتاوي كثيرة، كان أساسَها مصلحة الجماعة، معتمدين على أن المصلحة أصل أساسي لإقامة الشريعة العادلة، وحماية الجماعة الإسلامية، ومن ذلك قتل الجاسوس على المسلمين إذا اقتضت المصلحة قتله.

ولا يخشى أحد أن تتخذ وسيلة لاتباع الهوى والظلم، فإنه لا بد أن يتوفر فيها ثلاثة شروط[1]:

أولها: أن تكون مصلحة حقيقية لا وهمية بحيث يجلب بها نفع، أو يدفع ضرر.

ثانيها: أن تكون مصلحة عامة بحيث تجلب النفع لأكبر عدد من الناس.

ثالثها: أن لا يعارض التشريع لهذه المصلحة حكماً، أو مبدأ ثبت بالنص أو الإجماع.

الاستصحاب:

من أصول الإمام الاستصحاب: وهو استدامة إثبات ما كان ثابتاً، أو نفي ما كان منفياً ـ كما يقول ابن القيم ـ حتى يقوم دليل على تغيير الحالة؛ فهذه الاستدامة لا تحتاج إلى دليل إيجابي، بل تستمر لعدم وجود دليل مغير. وهذا في المعاملات لا في العبادات؛ فإذا سئل

(١) مختصر من أصول خلاف ٨٤ ـ ٨٦.

المجتهد عن حكم عقد أو تصرف، ولم يجد نصاً في القرآن أو السنّة ولا دليلاً شرعياً يطلقه على حكمه، حكم بإباحة هذا العقد أو التصرف بناءً على أن الأصل في الأشياء الإباحة، وهي الحال التي خلق الله عليها ما في الأرض جميعاً، فما لم يقم دليل على تغيرها فالشيء على إباحته الأصلية.

الذرائع:

وكان ـ رحمه الله ـ يأخذ بالذرائع: وهي كل ما يكون وسيلة لأمر فهو مطلوب بطلبه؛ كالنهي عن البيع عند النداء خشية التخلف عن الجمعة وما شابه ذلك. وكل ما يكون وسيلة لنهي فهو حرام كحرمته كالنهي عن التشاحن والتباغض، ويتبعه النهي عن كل ما يكون وسيلة إليه كالنهي عن بيع بعض على بعض، وأمثال ذلك، وللنية في الذرائع مدخل واضح.

الفتوى وشروط المفتي عند أحمد:

قال الإمام أحمد[1] في رواية ابنه صالح عنه: ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بوجوه القرآن، عالماً بالأسانيد الصحيحة، عالماً بالسنن، وإنما جاء خلاف من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي ﷺ، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها.

وقال في رواية أبي الحارث: لا يجوز الإفتاء إلا لرجل عالم بالكتاب والسنّة.

---

(١) إعلام الموقعين ١/٤٤ ـ ٤٥.

هل تجوز الفتوى بالتقليد؟

مما تقدم يعلم من كلام الإمام أحمد أن لا بد للمفتي من أن يكون مجتهداً، ولا يحق له أن يفتي بالتقليد، لأن التقليد ليس بعلم ـ كما قال الإمام أحمد وسيأتي قريباً ـ والله يقول: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ أي لا تتبع غيرك بالظن والتخمين من غير علم.

يقول ابن القيم الحنبلي: هذه المسألة فيها ثلاثة أقوال لأصحاب أحمد:

أحدها: أنه لا يجوز الفتوى بالتقليد، لأنه ليس بعلم، وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم وهذا قول أكثر الأصحاب، وقول جمهور الشافعية.

الثاني: أن ذلك يجوز فيما يتعلق بنفسه، فيجوز أن يقلد غيره من العلماء إذا كانت الفتوى لنفسه، ولا يجوز أن يقلد العالم فيما يفتي به غيره.

والثالث: أنه يجوز ذلك عند الحاجة وعدم العالم المجتهد.

رأي الإمام الشافعي بالمفتي:

روى الخطيب في (الفقيه والمتفقه) له عن الشافعي، قال: لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله، بناسخه ومنسوخه، ومُحكَمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله ومكّيه ومدنيّه، وما أريد به. ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ، وبالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، وما يحتاج إليه للسنّة والقرآن، ويستعمل هذا مع الإنصاف. ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار، وتكون له قريحة بعد هذا، فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في

الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتي[1].

رأي الحنفية بالمفتي:

جاء في حاشية ابن عابدين[2]: قال في فتح القدير: وقد استقر رأي الأصوليين على أن المفتي هو المجتهد، فأمّا غير المجتهد ممن يحفظ أقوال المجتهد فليس بمفتٍ.

وكان الإمام أبو حنيفة يقول لأصحابه[3]: إن توجه لكم دليل فقولوا به.

وكان يقول[4]: لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعرف مأخذه من الكتاب والسنّة.

رأيه في الاجتهاد:

من الفقهاء من أقفل باب الاجتهاد كالحنفية وبعض الشافعية إلا لمُفتٍ كما تقدم في ذلك بالنسبة إليهما، أما المالكية فإنهم يقررون أن المفتي يجب أن يكون مجتهداً، وقالوا: إن نوعاً من الاجتهاد لا يخلو منه زمانٌ بل هو باقٍ ما بقي الإسلام والمسلمون، لأن الحوادث ـ وإن تشابهت صورها الماضية واللاحقة ـ لا تتحد شخصياتها.

أما الحنابلة فقرروا أن باب الاجتهاد بكل طرائقه لا يُغلَق، وإن كانت المداركُ متباينة، وهذا ما تضافرت عليه أقوال المتأخرين، وأقوال المتقدمين، بل قد أقره الإمام أحمد نفسه كما سيأتي. ولقد قال ابن

---

(١) إعلام الموقعين ٤٦/١.
(٢) حاشية ابن عابدين ٤٨/١.
(٣) الدر المختار ٤٧/١.
(٤) رسالة رفع التردد لابن عابدين (٢٢).

عقيل - من كبار المتقدمين في المذهب -: إنه لا يَعرف خلافاً فيه - أي في الاجتهاد - بين المتقدمين[1]. وإن أقر المتأخرون أنه قد يوجد عصر يخلو من المجتهد المطلق، فابن حمدان الحنبلي يقول: «ومن زمن طويل عُدم المجتهد المطلق، ومع أنه الآن أيسر منه في الزمن الأول»[2].

ويقول ابن القيم في مناسبة الفتوى[3]: لا يجوز الفتوى بالتقليد، لأنه ليس بعلم، والفتوى بغير علم حرام، ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم، وأن المقلّد لا يُطلق عليه اسم عالم، وهذا قول أكثر الأصحاب وقول جمهور الشافعية[4]. ويورد قولين آخرين: أحدهما: أنه يجوز للمقلّد أن يفتي لنفسه فقط، ولا يجوز أن يفتي غيره بالتقليد.

والثاني: يجوز أن يفتي بالتقليد عند الحاجة، وعدم العالم المجتهد.

أما الإمام أحمد فقد كان يقول[5]: العالم لا يقلد أحداً، وإن ضاق عليه وقت الحادثة. ويقول: إن العامي يمكنه ضرب من الاجتهاد، وهو طلب الأوثق في نفسه، والأدين عنده والأعلم.

وجاء في طبقات الحنابلة[6]: وكان - أي الإمام أحمد - يُسوِّغ

(١) ابن حنبل ٣٥٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) إعلام الموقعين ١/٤٥ - ٤٦.
(٤) وعلى هذا يقول الغزالي بالمستصفى: التقليد: هو قبول قول بلا حجة وليس ذلك طريقاً إلى العلم لا في الأصول ولا في الفروع.
(٥ و ٦) طبقات الحنابلة ٢/٢٨٣.

الاجتهاد في الدين، إذا حدثت الحوادث التي لا نصوص عليها. وكان الإمام أحمد يقول: إن الحق في أحد جهتَي المجتهدين، فالمصيب له أجران[1] والمخطىء له أجر، والطِلبة إصابة الدليل. ومن مذهب الإمام أحمد: أن العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به.

* * *

(١) المصدر السابق ٢/٢٨١.

علمه بالعربية

لا يستطيع أحد أن يدَّعي أنه مجتهد أو فقيه أو محدِّث أو عالم بعلم ما من علوم الإسلام؛ إلا وأن يكون عالماً باللغة العربية لا بنحوها وصرفها وعلوم بلاغتها فحسب، بل بأولى من ذلك كله، أن يكون خبيراً بأساليبها، ودقيق لغتها، ليستطيع أن يفهم فهماً صحيحاً كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ؛ وهذا لا يكون إلا بأن يحفظ ويفهم كثيراً من كلام العرب في الشعر والنثر، وأن يطبع نفسه على ذلك حتى لا ينطق إلا بما يوافق طريقة كلام العرب. وهذا ما كان عليه الإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد، وأشهرهم في ذلك الإمام الشافعي الذي عاش مع هذيل يقيم معهم بإقامتهم، وينتجع حيث ينتجعون حتى صار كأحدهم، وهذا مع ما كان يحفظ من أشعارهم حتى صار من أعظم رواتها، ويحفظ من أشعار غيرهم. وأما الإمام أحمد فقد كان عربياً من شيبان، صحيح الطبع، سليم النطق، عرف أساليب العرب ولغاتهم.

إمام في اللغة:

وحسبنا في ذلك كلام الشافعي سيد من نطق بالضاد في عصره، حيث قال مثنياً على الإمام أحمد بأمور كثيرة منها اللغة العربية؛ بل جعله إماماً في كل ما أثنى عليه به.

قال الربيع بن سليمان[1]: قال لنا الشافعي: أحمد إمام في ثمانِ خصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنّة.

والإمام الشافعي يعني بدقة ما تحمل هـذه الإمامـة من تعظيم وإجلال، وإن لم يكن الإمام أحمد شهر بذلك؛ لأن الحديث والفقه غلباه على كل أمر، ولكن المتتبع لاستنباط الإمام أحمد من الكتاب والسنّة أو شرحه لهما يعرف كيف تكون البراعة في الفهم والأخذ والشرح.

الإمام أحمد كتب كثيراً من العربية:

كان رحمه الله يعلم ما للعربية من أصالة على من أراد التوسع في فهم كلام الله واستخراج كنوز الأحكام والحِكم والعبر، لذلك كان يُقبل على كتابة العربية حتى قال ـ فيما رواه عنه محمد بن حبيب ـ: كتبت من العربية أكثر مما كتب أبو عمرو بن العلاء[2].

وكان يُسأل عن ألفاظ من اللغة تتعلق بالتفسير والأخبار، فيجيب عن ذلك بأوضح جواب وأفصح خطاب.

ومما رواه المروزي: كان أبو عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ لا يلحن في الكلام، بل كان حريصاً على ألا يلحن أبناؤه وبناته، وقد تقدم كيف كان يضرب بنته زينب وينتهرها على اللحن.

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٥.
(٢) طبقات الحنابلة (٧ ـ ٨).

شيوخ الإمام أحمد

شيوخه في الحديث:

إن أول من سمع منه الإمام أحمد في حداثته أبو يوسف صاحبُ أبي حنيفة، ولم يسمع منه إلا قليلاً حتى تركه، وقصد إلى هُشيم بن بشير وذلك سنة تسع وسبعين ومائة، وكان عمر الإمام حينئذٍ نحو ست عشرة سنة، وثبت عنده إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانين. وكان هُشيم أعظمَ من أثَّر فيه من شيوخه في الحديث؛ وهشيم هذا روى عنه مالك ابن أنس، وشعبة والثوري، وهم أكبر منه، وهو أصغر شيخ لهم. وقال الإمام أحمد عنه: وكان هشيم كثير التسبيح، ولازمته أربعاً أو خمساً ما سألته عن شيء هيبة له إلا مرتين[1]. والإمام أحمد مع ملازمته لشيخه هشيم كان أحياناً يتلقى عن غيره، فقد حضر مجلس عمير بن عبد الله ابن خالد سنة اثنتين وثمانين ومائة، وفي هذه الأثناء سمع عبد الرحمن ابن مهدي، وسمع أبا بكر بن عياش، وروى عنه[2].

وبعد موت هشيم أخذ الإمام أحمد يتلقى الحديث حيثما وجده؛ يقول ابن عساكر: وسمع خلقاً كثيراً من الكوفيين والبصريين وأهل

---

(١) تهذيب التهذيب ١١/٦١ ـ ٦٢.
(٢) ابن عساكر ٦٣ ـ ب.

الحرمين، واليمن، والجزيرة. ويقول أحمد برواية ابنه[1]: أول قدمة قدمت البصرة سنة ست وثمانين، وسمعنا من بشر بن المفضل، ومرحوم، وزياد بن الربيع، وشيوخ. والثانية سنة تسعين؛ سمعنا من ابن أبي عدي. والثالثة سنة أربع وتسعين، فنزل عند يحيى بن سعيد ستة أشهر. والرابعة سنة مائتين، فسمعنا من عبد الصمد وأبي داود البرساني.

وفي تهذيب التهذيب[2]: طاف البلاد، فروى عن بشر ابن المفضل، وإسماعيل بن علية، وسفيان بن عيينة، وجرير بن عبد الحميد، ويحيى بن سعيد القطّان، وأبي داود الطيالسي، وعبد الله بن نمير، وعبد الرزاق، وعلي بن عياش الحمصي، والشافعي، وغُندَر، ومعتمر بن سليمان وجماعة كثيرين.

وفي ابن عساكر[3]: سمع من أهل دمشق: من الوليد بن مسلم، وزيد بن يحيى بن عبيد ـ وأظن أنه سمع منهما بمكة ـ ومن أبي مُسهر الغساني، وأراه سمع منه بدمشق أو ببغداد، وسمع سفيان بن عيينة، وهشيم بن بشير، وإسماعيل بن عليَّة، وأبا عبيدة عبد الواحد بن واصل الحداد، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وبشر بن المفضل، وإبراهيم بن سعد الزهري، ووكيع بن الجراح، وعبد الله ابن نمير، وأبا معاوية الضرير، وأبا أسامة حماد بن أسامة، وعبد الرزاق ابن همام، وأبا قَرة موسى بن طارق الزَّبيدي اليمانيين، ويحيى بن سليم الطائفي، ومحمد بن يزيد، ويزيد بن هارون الواسطيين، وجماعة سواهم يطول ذكرهم.

(١) ابن عساكر ٦١ ـ ب.
(٢) تهذيب التهذيب ١/٧٢.
(٣) ابن عساكر ٢/٦٣ ـ ب.

وممن روى عنهم الإمام أحمد: الإمام الشافعي، فقد أفرد البيهقي ما رواه أحمد عن الشافعي، وهي أحاديث تبلغ عشرين حديثاً، يقول ابن كثير[1]: ومن أحسن ما رويناه عن الإمام أحمد عن الشافعي عن مالك بن أنس عن الزهري، عن عبد الرحمن بـن كعب بن مالك عن أبيه[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه».

وقد أورد ابن الجوزي[3] في مناقبه أربعة عشر وأربعمائة شيخ، وامـرأة واحدة روى عنها هي: أم عمر بنت حسان بن زيد الثقفي. فمن أراد استقصاء شيوخ الإمام فليظفر بها هناك.

شيوخه في الفقه:

ما نعرف للإمام أحمد من شيخ للفقه إلا الإمام الشافعي، فقد اكتشفه في مجلس له في مكة يوم آثر مجلسه على مجلس ابن عيينة مع أنه شيخه وشيخ الشافعي من قبله، وتقدمت القصة[4].

وفي هذه القصة دليل قوي على أن الإمام أحمدَ لم تكن غايته أن يحفظ ويجمع، ويكثر وينتقي، ويباهي بالعلو، وغير ذلك مما هو من صناعة المحدِّثين، وإنما غايته العظمى أن يتفقه في دين الله، ويتعلم كيف يستخرج الأحكام، ويستنبط المسائل.

وقال الحسن بن محمد الزعفراني[5]: «كنا نحضر مجلسَ بشر

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٢٦.
(٢) الحديث في مسند أحمد ٣/٤٥٥.
(٣) المناقب (٣٣ ـ ٥٤).
(٤) انظر صفحة ٥٣ من هذا الكتاب.
(٥) معجم الأدباء ١٧/٣٠٤.

المريسي، فكنا لا نقدر على مناظرته، فمشينا إلى أحمد بن حنبل، فقلنا له: ائذن لنا في أن نحفظ الجامع الصغير الذي لأبي حنيفة لنخوض معهم إذا خاضوا؛ فقال: اصبروا، فالآن يقدَم عليكم المطّلبيّ الذي رأيته بمكة، قال: فقدم علينا الشافعي، فمشينا إليه، وسألناه شيئاً من كتبه، فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد، فدرستُه في ليلتين، ثم غدوتُ على بشر المريسي، وتخطيت إليه، فلما رآني قال: ما جاء بك يا صاحب الحديث؟ قال: قلت: ذَرْني من هذا، إيش الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد؟ فناظرته فقطعته، فقال: ليس هذا من كيسكم، هذا من كلام رجل معه نصف عقل أهل الدنيا!!.

وقال الإمام أحمد[1]: ما زلنا نلعَن أهل الرأي، ويلعوننا حتى جاء الشافعي فمزج بيننا. يريد أنه تمسك بصحيح الآثار، واستعملها.

وفي وفيَات الأعيان[2]: وكان ـ أي أحمد بن حنبل ـ من أصحاب الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ وخواصه، ولم يزل مُصاحبَه إلى أن ارتحل الشافعي.

وقال ابن حبان[3]: كان أحمد بن حنبل وأبو ثور يحضران عند الشافعي.

وقال الحسن بن محمد بن الصباح[4]: قال لي أحمد بن حنبل: إذا رأيت الشافعي قد خلا فأعلمني، فكان يجيئه ارتفاع النهار فيَبقى معه.

(١) ترتيب المدارك ١/ ٩٥.
(٢) وفيات ١/ ٢٠.
(٣) طبقات الشافعية ٢/ ١١٥.
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢٢٧.

وقال أبو تراب حميد بن أحمد البصري[1]: كنت عند أحمد ابن حنبل، نتذاكر في مسألة، فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث. فقال: إن لم يصحَّ فيه حديث، ففيه قول الشافعي، وحجته أثبتُ شيءٍ فيه.

وقال الحسن بن محمد الزعفراني[2]: ما ذهبت إلى الشافعي إلا وجدت أحمد بن حنبل في مجلسه، ولقد كان أحمد بن حنبل ألزم للشافعي منّا.

وكان يقول[3]: إذا سئلت عن مسألة لا أعلم فيها خبراً، قلت فيها بقول الشافعي لأنه عالم قريش، وذكر الحديث[4].

أدبه مع شيوخه:

مثل أحمد من يعلمُ قيمة العلم والمعلم، ومثله من يعترف بالفضل لأولي الفضل، وهذا مع طبيعة أخلاقه الإسلامية، ومزاجه الخاضع للسنّة، مما جعله من خير أولئك الذين تأدبوا مع شيوخهم وتواضعوا لهم، ولا يتعلم من لا يتواضع لمعلمه، وفي الأثر: تواضعوا لمن تَعلَّمون منه.

وعن عمرو الناقد قال: كنا عند وكيع، وجاء أحمد بن حنبل، فقعد، وجعل يصف من تواضعه بين يديه، فقال عمرو: فقلت: يا أبا

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٥٤.
(٢) المصدر نفسه ١/٢٢٧.
(٣) طبقات الشافعية ١/٢٠٠.
(٤) الحديث: «لا تؤموا قريشاً وائتموا بها، ولا تَقَدَّموا على قريش وقدِّموها، ولا تعلموا قريشاً وتعلموا منها».. الحديث.

عبد الله، إن الشيخ يكرمك فما لك لا تتكلم؟ قال: وإن كان يكرمني فينبغي لي أن أجله.

ويقول قتيبة بن سعيد[1]: قدمت بغداد، وما كانت لي همة إلا أن ألقى أحمد بن حنبل؛ فإذا هو قد جاءني مع يحيى بن معين، فتذاكرنا، فقام، فقام أحمد بن حنبل، وجلس بين يديّ وقال: أملِ عليَّ هذا. ثم تذاكرنا، فقام أيضاً، وجلس بين يديّ، فقال قتيبة: يا أبا عبد الله، اجلس مكانك، فقال: لا تشتغل بي، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه. وقال خلف[2]: جاءني أحمد ابن حنبل يسمع حديث أبي عوانة، فاجتهدت أن أرفعَه فأبى وقال: لا أجلس إلا بين يديك؛ أُمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه.

وقال إسحاق الشهيد[3]: كنت أرى يحيى القطّان يصلِّي العصر، ثم يستند إلى أصل منارة مسجد، فيقف بين يديه: علي بن المديني، والشاذكوني، وعمر بن علي، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وغيرهم؛ يستمعون الحديث وهم قيام على أرجلهم، إلى أن تحين صلاة المغرب، لا يقول لأحد منهم اجلس، ولا يجلسون هيبة وإعظاماً.

---

(١) المناقب (٥٧ ـ ٥٨).

(٢ و ٣) المصدر السابق.

تلاميذ الإمام أحمد

للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أصحاب كثيرون: منهم من أخذ عنه فقهه وروى من حديثه وهؤلاء أخذوا منه عقائده، ومنهم من روَوا عنه ممن ليس في مرادهم إلا صناعةُ الحديث. وقد أثنى العلماء على أصحاب أحمد، وجعلوهم مقياساً للسُّنِّي والمبتدع. قال عبد الوهاب الوراق: إذا تكلم الرجل في أصحاب أحمد فاتهمه، فإن له خبيئة، ليس هو بصاحب سنة.

ولنبدأ بمن روى عنه من مشايخه ومن الأكابر والأوائل:

فمنهم المحدث الكبير عبد الرزاق بن همّام الصنعاني صاحب المصنف، فقد روى عن أحمد بن حنبل عن الوليد بن مسلم عن زيد ابن واقد قال: سمعت نافعاً مولى ابن عمر: أن ابن عمر كان إذا رأى مصلياً لا يرفع في الصلاة[1] حَصبه وأمره أن يرفع[2].

ومنهم عبد الرحمن بن مهدي الذي وضع له الإمام الشافعي الرسالة حين سأله إياها، ومنهم الإمام الشافعي؛ يقول عبد الله: جميع ما حدث به الشافعي في كتابه فقال: حدثني الثقة أو أخبرني الثقة فهو أبي ـ يريد[3] أحمد بن حنبل ـ.

---

(١) أي يرفع يديه عند الركوع وعند الرفع من الركوع.
(٢) المناقب (٨٣).
(٣) الحلية ٩/١٧٠.

مثال ذلك: قال الربيع: أنا الشافعي، قال: أنا الثقة من[1] أصحابنا، عن يحيى بن سعيد القطان عن شعبة بن الحجاج، عن قيس ابن مسلم، عن طارق بن شهاب، أن عمر بن الخطاب قال: إنما الغنيمة لمن شهد الوقعة[2].

وقال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلة الثانية إلى بغداد سنة تسعين ومائة ـ وعمر أحمد إذ ذاك نيِّف وثلاثون سنة ـ: يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهبْ إليه حجازياً كان أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً. يعني: لا يقول ـ أي الشافعي ـ بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين، ويُنزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب. يقول ابن كثير: وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيمٌ لأحمد وإجلالٌ له، وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعّف يُرجع إليه[3].

ومنهم معروف الكرخي، وإسماعيل بن علية، ووكيع بن الجراح، وأسود بن عامر، والحسن بن موسى الأشيب.

ومنهم داود بن عمرو الضبي، وأبو زكريا يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني، وقتيبة بن سعيد، وخلف بن هشام. ومنهم علي ابن المديني، وأحمد بن أبي الحواري، ومحمد بن المصفّى وغيرهم من الشيوخ والأكابر.

---

(١) في المناقب: عن، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) المناقب (٨٤).

(٣) البداية والنهاية ٣٢٧/١٠.

أصحابه الذين نقلوا فقهه ورووا عنه:

هم أعيان المذهب وأئمته. منهم: ابناه صالح وعبد الله، ولكن صالحاً أكثرُ نقلاً لفقهه، وعبد الله أكثرُ رواية عنه في الحديث. ومنهم ابن عمه حنبل بن إسحاق بن حنبل، وإسحاق بن منصور الكوسج المروزي، وأبو داود السجستاني، وأبو إسحاق إبراهيم الحربي، وإبراهيم بن إسحاق النيسابوري، وأبو بكر أحمد بن محمد الأثرم، وأبو بكر أحمد بن محمد المروزي، وعبد الملك الميموني، ومهنّا الشامي، وحرب الكرماني، وأبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي، ومثنى بن جامع الأنباري، وأبو طالب المشكاني، والحسن بن ثواب، ومحمد بن موسى بن مشيش، وابن بدينا الموصلي، وعبد الوهاب الوراق، وأحمد بن القاسم، والقاضي الرقي، وأحمد بن أصرم المزني، وعلي بن سعيد النسوي، وأبو الصقر، والبُرزاطي - واسمه محمد بن أحمد - والبغوي، والشالَنْجي، وعبد الرحمن المتطبب، وأحمد بن الحسن الترمذي، وأحمد بن أبي عبدة، وأحمد بن نصر الخفاف، وأحمد بن واصل المقرِّي، وأحمد بن هشام الأنطاكي، وأحمد بن يحيى الحلواني، وأحمد بن محمد الصائغ، وأحمد ابن محمد بن صدقة. وهم مائة ونيِّف وعشرون نفساً، اكتفينا منهم بذكر من ذكرناه[1].

أصحاب أحمد في طبقات الشيرازي:

وفي طبقات الفقهاء للشيرازي[2] - عمن نقل فقه الإمام أحمد - يقول:

---

(١) الطبقات ١/٧ والمناقب (٥١٠).

(٢) الطبقات ١٦٩ - ١٧٢.

وأما أحمد بن حنبل رضي الله عنه فقد نقل عنه الفقه جماعة:

منهم ابنه صالح: ويكنى أبا الفضل، ولي القضاء بأصبهان، ومات بها في سنة ست وستين ومائتين، وله ثلاث وستون سنة.

ومنهم ابنه الآخر عبد الله: وكنيته أبو عبد الرحمن، وكان عالماً بعلَل الحديث، وأسماء الرجال، مات ببغداد سنة تسعين ومائتين، وله سبع وسبعون[1]. وقبره في مقابر باب التبن، أوصى بأن يُدفن هناك، وقال: بلغني أن هناك نبياً مدفوناً، ولأنْ أكون في جوار نبي أحبُّ إليّ أن أكون بجوار أبي.

ومنهم أبو علي حنبل بن إسحاق: مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

ومنهم أبو بكر المروزي: وخرج إلى الغزو، فشيّعه الناس، فَحُزروا بسامُرًّا ـ سوى من رجع ـ نحواً من خمسين ألفاً، فقيل له: يا أبا بكر، هذا عَلَم قد نُشِر لك، فبكى، ثم قال: ليس هذا العلم لي إنما هو علم أحمد بن حنبل. وكان يقول: قليلُ التقوى يهزم كثير الجيوش. مات سنة خمس وسبعين ومائتين، ودفن قريباً من أحمد.

ومنهم أبو بكر أحمد بن محمد بن هانىء الكلبي الأثرم: وكان حافظاً للحديث، وكان يحيى بن معين يقول: الأثرم كأن أحد أبويه جِنّيًّا، لتيقظه.

ومنهم أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني: وهو إمام في الحديث، روى عنه أحمد بن حنبل حديثاً واحداً، وروى هو عن أحمد ابن حنبل مسائل. مات سنة خمس وسبعين ومائتين، وله ثلاث وسبعون سنة.

---

(١) هكذا ورد في الأصل: سبع وتسعون والصواب ما أثبتناه لأنه ولد سنة ٢١٣ وتوفي سنة ٢٩٠.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم الحربي: إمام في الحديث، وله مصنفات كثيرة. مات سنة خمس وثمانين ومائتين.

ثم حصلت الرواية عن أحمد في طبقة أخرى:

فمنهم أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال: له مصنفات كثيرة في الفقه، وله كتاب «الجامع» في المذهب، وأخذ العلم عن المروزي، وصالح وعبد الله ابني أحمد، ومات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، ودفن عند المروزي.

ومنهم أبو علي الحسين بن عبد الله الخِرقي، والد مصنف مختصر الخرقي - وهو أبو القاسم عمر بن الحسين - مات سنة تسع وتسعين ومائتين.

ومنهم أبو الحسين علي بن محمد بن بشار الزاهد، وكان يروي مسائل صالح، توفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة.

ومنهم أبو محمد البَربَهاري.

ثم انتقل الشيرازي إلى طبقة أخرى، ونكتفي بما ذكرناه. والواقع أن الشيرازي صاحب الطبقات لم يُحصِ مَن أخذ عن الإمام أحمد أو من أخذ عمن أخذ عن الإمام، وهم كثيرون انتقى رحمه الله منهم بعضهم.

مَن روى عنه الحديث:

من روى عنه الحديث كثيرون، حتى وُضعت المؤلفات في تَعدادهم، ونذكر منهم: ابنيه عبد الله وصالحاً، والحسن بن الصباح البزار، ومحمد بن إسحاق الصنعاني، وأحمد بن الحسن الترمذي، وأبو بكر محمد بن طريف الأعْيَن، وأبو داود السجستاني، وأبو عبد الله

البخاري، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج، وإبراهيم بن إسحاق الحربي، وموسى بن هارون الحمال، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، وعباس الدوري، ومحمد بن عبيد الله المناوي، وبَقيّ بن مَخْلَد، وأحمد بن يحيى الحلواني، وإدريس بن عبد الكريم الحداد المقري، ومحمد بن يحيى المروزي، وإبراهيم بن هاشم البغوي، ومحمد ابن عبد الله الحضرمي مطيِّن، ويعقوب بن شيبة المصري، وأبو بكر الأثرم، وأبو بكر المروزي، وأبو زرعة الدمشقي، في جماعة آخرهم أبو القاسم البغوي[1].

مناظراته ومذاكراته:

ما كان الإمام أحمد ممن يحب الجدال وهو بطبعه ودينه وورعه أبعدُ الناس عنه، ولكنه يتحرى البحث عن الحق، فإن اعتقد أنه وصل إليه التزمه ودافع عنه النافينَ له والمتشككين. وخوفه من أن يزلق إلى الباطل جعله يعتمد في أدلته على ما في كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ كما قد سبق من غير تعمق قد يَخرج به عن مدلول النص.

فإن بدأ أحد يجادله في صحة ما يعتقد سواء في الأحكام أو في العقائد؛ لم يألُ أن يحتج لما يرى، ولا يجادل إلا الباحثين عن الحق من غير تعنت ولا ولوع بالجدل.

وقد ندب للمناظرات كثيراً في اختياراته الفقهية التي خالف فيها في بعض الأمور الأئمة الثلاثة، وفي التزامه لعقائد في أصول الدين، ومنها: أن القرآن كلام الله غير مخلوق وقد كان مصدر المحنة، وجُودل في ذلك، وثبت على ما يعتقد وأصابه بذلك عَنَت شديد كما سيأتي.

وما نورد هنا كل مناظراته، فردوده في هذا الكتاب مبثوثة هنا

(١) ابن عساكر المجلد ٢/٦١ ـ أ.

وهناك، وما نورد هنا إلا مناظرة لطيفة بين صديقين، أو بين شيخ وصاحبه وهما الإمام الشافعي والإمام أحمد، فقد حُكي[1] أن أحمد ناظر الشافعي في تارك الصلاة، وقد كان يعتقد أن تارك الصلاة كافر.

فقال له الشافعي: يا أحمد أتقول إنه يكفر؟.

قال أحمد: نعم.

قال الشافعي: إذا كان كافراً فبمَ يسلم؟.

قال أحمد: يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال الشافعي: فالرجل مستديم لهذا القول، لم يتركه.

قال أحمد: يسلم بأن يصلي.

قال الشافعي: صلاة الكافر لا تصح، ولا يحكم بالإسلام بها، فسكت أحمد. والله أعلم

أما مذاكراته ـ رحمه الله ـ أو مساجلاته فهي أيضاً كثيرة، ولا بد لكل محدث كبير من أن يذاكِر أو يُذاكَر، وهذه المذاكرة تنبىء في النتيجة عمن عنده زيادات في بعض الأحاديث أو في الطرق ولا بد من أن يفيد كلٌّ من الآخر ما ليس عنده.

وإليك هذه المذاكرة بين محدِّث مصر أحمد بن صالح وأحمد بن حنبل:

قال أبو بكر بن زنجويه[2]: قدمتُ مصر وأتيت أحمد بن صالح[3]، فسألني من أين أنت؟ قلت: من بغداد، قال: منزلك من منزل أحمد ابن حنبل؟ قلت: أنا من أصحابه، قال: تكتب لي موضع منزلك؟ فإني

---

(١) طبقات الشافعية ٢/٦١.

(٢) تاريخ بغداد ٤/١٩٧.

(٣) أحمد بن صالح: هو أبو جعفر الطبري المقرىء، كان أحد كبار علماء الحديث في مصر.

أريد أُوافي العراق، حتى تجمع بيني وبين أحمد بن حنبل؛ فكتبت له. فوافى أحمدُ بن صالح سنة اثنتي عشرة إلى عفان، فسأل عني، فلقيني؛ فقال: الموعد الذي بيني وبينك، فذهبت به إلى أحمد ابن حنبل، واستأذنت له فقلت: أحمد بن صالح بالباب، فأذن له، فقام إليه ورحب به، وقرَّبه، وقال له: بلغني أنك جمعت حديث الزهري، فتعال نتذاكر ما روى الزهري عن أصحاب رسول الله ﷺ؛ فجعلا يتذاكران، ولا يُغرِب أحدهما على الآخر حتى فرغا، قال: وما رأيت أحسنَ من مذاكرتهما. ثم قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح: تعال حتى نذاكِر ما روى الزهري عن أولاد أصحاب رسول الله ﷺ، فجعلا يتذاكران، ولا يُغرب أحدهما على الآخر، إلى أن قال أحمد ابن حنبل لأحمد بن صالح: عند الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف قال النبي ﷺ: «ما يَسرُّني أن لي حُمر النَّعَم وأنَّ لي حلف المطيِّبين»[1].

فقال أحمد بن صالح: أنت الأستاذ وتذكر مثل هذا؟ فجعل أحمد يبتسم ويقول: رواه عن الزهري رجل مقبول أو صالح: عبد الرحمن ابن إسحاق؛ فقال: من رواه عن عبد الرحمن؟ فقال: حدثناه رجلان ثقتان: إسماعيل بن عُلَيَّة، وبشر بن المفضل.

فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل: سألتك بالله إلا أمليته عليَّ، فقال أحمد: من الكتاب، فقام ودخل وأخرج الكتاب، وأملى عليه، فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل: لو لم أستفد بالعراق إلا هذا الحديث كان كثيراً، ثم ودَّعه وخرج.

---

(١) اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتيم في دار ابن جدعان في الجاهلية، وجعلوا طيباً في جفنة وغمسوا أيديهم فيه، وتحالفوا على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم، فسمُّوا المطيبين.

قراءة الإمام أحمد

القراءة سنة متَّبعة، وما كان يكمل فضلُ العالم أو المحدِّث أو الفقيه حتى يؤثر قراءة من القراآت المتواترة، ويأخذ بأصولها وأحكامها عن الشيوخ من أولي هذا الشأن؛ وهذه طريقة جميلة بل واجبة، أهملها كثيرٌ من العلماء في العصور المتأخرة. وإن لم يهتم العالم في الشريعة بكتاب الله قراءةً ثم فهماً قصَّر بأجَلِّ ما في الإسلام.

حب أحمد لقراءة نافع:

جاء في طبقات الحنابلة[1]: أن الإمام كان يحب قراءة نافع، لأنها أكثر اتِّباعاً. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي: أيُّ القراءة أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة، قلت: فإن لم يكن؟ قال: قراءة عاصم[2].

ونافع هذا: هو ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني الليثي مولاهم أحدُ القراء السبعة، أخذ القراءة عَرْضاً عن جماعة من تابعي أهل المدينة؛ قال موسى بن طارق: سمعته يقول: قرأت على سبعين من التابعين. وأخذ عنه كثيرون: منهم مالك بن أنس، وعثمان ابن سعيد (ورش)، وعيسى بن مينا الملقب قالون، والليث بن سعد وغيرهم كثير. وأقرأ الناس دهراً طويلاً نيفاً عن سبعين سنة، وانتهت

(١ و ٢) طبقات ٢/٣٠٧ وطبقات القراء ٢/٣٣٢.

إليه رياسة القراءة بالمدينة، وكان متبعاً لآثار الأئمة الماضين ببلده.

وقال مالك بن أنس: قراءة أهل المدينة سنة، قيل له: قراءة نافع؟ قال: نعم. وقال قالون: كان نافع من أطهر الناس خُلُقاً، ومن أحسن الناس قِراءة، وكان زاهداً، جواداً، صلى في مسجد النبي ﷺ ستين سنة. وقال الليث بن سعد: حججت سنة ثلاث عشرة ومائة وإمام الناس في القراءة بالمدينة نافع[1].

شيوخه في القراءة:

ذكر أبو القاسم الهذلي في كامله: أن الإمام أحمد أخذ القراءة عَرْضاً عن يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عيّاش راوي عاصم، وعبيد ابن عقيل عن أبي عمرو بن العلاء، وإسماعيل بن جعفر عن شيبة بن نصاح، ثم عن نافع الكوفي، وعبد الرحمن بن قلوقا أخذ القراءة عَرْضاً عن حمزة[2].

ويتبين من هذا أنه قرأ برواية عاصم، وأبي عمرو بن العلاء، ونافع. ونافع أحبُّ القراء إليه كما تقدم، ثم عاصم.

وقال مرة في قراءة عاصم[3]: لولا خلف من أصحاب عاصم لما وسع أحدٌ أن يقرأ بغير قراءته.

من روى عنه القراءة:

وقد روى القراءة عنه عَرْضاً ابنه عبد الله ذكر ذلك الهذلي في كامله[4].

---

(١) ملخص من طبقات القراء ٣٣٠ ـ ٣٣٣.
(٢) طبقات القراء ١١٢.
(٣) ابن عساكر ١٧.
(٤) طبقات القراء ١١٢.

رأي الإمام أحمد وغيره في قراءة حمزة:

يقول ابن قتيبة[1] ـ في معرض اختلاف القرآت وكتابة المصحف ـ: ثم خلف قومٌ بعد قوم من أهل الأمصار، وأبناءُ العجم ليس لهم طبعُ اللغة، ولا علم التكلُّف، فَهفَوا في كثير من الحروف، وزلُّوا، وقرأوا بالشاذ وأخَلُّوا، منهم رجلٌ ـ يقصد به حمزة بن حبيب ـ ستر الله عليه عند العوامّ بالصلاح، وقرَّبه من القلوب بالدِّين. لم أرَ فيمن تتبعت وجوه قراءته أكثر تخليطاً ولا أشدَّ اضطراباً منه، لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره ثم يؤصِّل أصلاً، ويخالف إلى غيره لغير ما علة، ويختار في كثير من الحروف ما لا مَخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة.

هذا إلى نبذه ـ في قراءته ـ مذاهب العرب وأهلِ الحجاز؛ بإفراطه في المدِّ والهمز والإشباع، وإفحاشه في الإضجاع والإدغام، وحمله المتعلمين على المرْكَب الصعب، وتعسيره على الأمة ما يسَّره الله، وتضييقه ما فسحه.

ومن العَجَب أنه يُقرىء الناس بهذه المذاهب، ويَكرهُ الصلاة بها! ففي أيّ موضع تستعمل هذه القراءة إن كانت الصلاةُ لا تجوز بها؟!.

وكان ابن عيينة يرى لمن قرأ في صلاته بحرفه ـ أي بحرف حمزة ـ أو ائتم بإمام يقرأ بقراءته أن يُعيد، ووافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين، منهم بشر بن الحارث، وأحمد بن حنبل.

ويقول ابن الجزري في طبقات القراء[2] ـ عن حمزة بن حبيب ـ: «استفتح القرآن من حمران وعرض على الأعمش، وأبي إسحاق وابن

---

(١) تأويل مشكل القرآن (٤١).

(٢) الطبقات ٢٦١ ـ ٢٦٣.

أبي ليلى، وكان الأعمش يجوِّد حرف ابن مسعود، وكان ابن أبي ليلى يجوِّد حرف علي، وكان أبو إسحاق يقرأ من هذا الحرف، ومن هذا الحرف. وكان حمران يقرأ قراءة ابن مسعود، ولا يخالف مصحف عثمان». وممن أخذ عنه ـ وهو أجل أصحابه ـ علي بن حمزة الكسائي. وقال: «وإليه ـ أي إلى حمزة ـ صارت الإمامة في القراءة بعد عاصم والأعمش، وكان إماماً حُجَّةً ثقة ثبتاً، قيِّماً بكتاب الله، بصيراً بالفرائض، عارفاً بالعربية، حافظاً للحديث، عابداً خاشعاً، زاهداً، وَرِعاً، قانتاً لله، عديم النظير. قال أبو حنيفة لحمزة: شيئان غلبتنا عليهما لسنا ننازعك فيهما: القرآن والفرائض. وقال سفيان الثوري: غلب حمزةُ الناس على القرآن والفرائض» وقال أيضاً عنه: ما قرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثر. إلى أن قال ابن الجزري: وأما ما ذُكر عن عبد الله بن إدريس[1] وأحمد بن حنبلٍ من كراهة قراءة حمزة فإن ذلك محمول على قراءة من سَمِعا منه ناقِلاً عن حمزة، وما آفة الأخبار إلّا رواتها.

قال ابن مجاهد: قال محمد بن الهيثم: والسبب في ذلك أنّ رجلاً ممن قرأ على سليم ـ هو سليم بن منصور ممن قرأ على حمزة ـ حضر مجلس ابن إدريس فقرأ، فسمع ابن إدريس ألفاظاً فيها إفراطٌ في المد والهمز وغير ذلك من التكلّف، فكره ذلك ابن إدريس، وطعن فيه.

قال محمد بن الهيثم: وقد كان حمزة يكره هذا، وينهى عنه.

قال ابن الجزري: قلت أمَّا كراهته الإفراط من ذلك، فقد روينا عنه

---

(١) هو عبد الله بن إدريس أبو محمد الأودي الكوفي الإمام العلم الحجة أخذ القراءة عن نافع وسليمان بن مهران الأعمش توفي آخر سنة اثنتين وتسعين ومائة.

من طُرُق أنه كان يقول لمِن يُفرط عليه في المَدّ والهمز: لا تفعل، أما علمت أنَّ ما كان فوق البياض فهو برص، وما كان فوق الجعودة فهو قَطَط، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة؟ اقال يحيى بن مَعين: سمعت محمد بن فضيل يقول: ما أحسب أن الله يدفع البلاءَ عن أهل الكوفة إلا بحمزة.

أقول: لقد أوردت هنا ما على حمزة بن حبيب وماله، لنكون أقرب إلى الإنصاف، ولكن الذي يُتصور أنه أدنى من الصواب، أنه لا تخلو قراءة حمزةمن بعض تزيّد بالغ فيه الخَلَف؛ وإلا فبعيد أن يكون سفيان ابن عيينة وبشر بن الحارث وأحمد بن حنبل ومعهم القارىء المشهور عبد الله بن إدريس وابن قتيبة؛ أن يكونا هؤلاء جميعهم يشتدون في إنكار قراءة حمزة من غير أن يكون عنده شيء يُنكر، ولا يخفى على مثل هؤلاء ما قيل من أن الآخذين عنه هم المتزيدون. وعلى كل حال فقراءة حمزة قراءةٌ سبعية متواترة أجمع العلماء على قبولها، وخشي بعضُهم مما يظن فيها من تزيُّد أو تكلف أو خروج عن السهولة والسماحة أحياناً في أداء كتاب الله.

طريقة أدائه للقرآن:

كان الإمام - رحمه الله - لا يميل شيئاً من القرآن، ويروي الحديث: «أُنزل القرآن مُفَخماً ففخِّموه» وكان لا يدغم شيئاً في القرآن، إلا «اتخذتم» وبابَه - كأبي بكر - ويمد مدّاً متوسطاً، وكان يكره التغني بالقرآن. ومما تقدم يظهر لك عدم حبه للتكلّف الزائد في مخارج الحروف.

عَقيدَة الإمَام أحمَد

قد عرفنا مما تقدم أن الإمام أحمد بن حنبل لا يَعتد باجتهادٍ ما لم يُدعَّم بالأصلين، ولئن كان الإمام أحمد في الفقه والاجتهاد شديد التشبث بالأصلين وآراء السلف من الصحابة والتابعين لقد كان في أصول الدين والعقيدة أشدّ تشبثاً واستمساكاً.

وإذا كان الإنسان ما يزال عاجزاً عن استقصاء ما في ذاته من دقيق الخَلْق، فكيف يمكن بالعقل أن يدرك كنه الله سبحانه خالق الكون ومن بيده الأمر كله؟ وكيف يدركه سبحانه بصفاته وليس كمثله شيء نقيسه عليه؟.

فالسبيل إلى ذلك ـ كما يرى الإمام ـ أن ندع كلام الله تعالى في ذاته وصفاته والثابت من حديث رسول الله ﷺ في ذلك؛ أن ندعهما يمران إلى قلوبنا من غير تأويل ولا تعقيد لأنَّا لا ندري ـ إنْ أوَّلنا ـ أكان تأويلنا موافقاً لمراد الله تعالى فيما أنزل أم لا؟ فالمؤول لا يستطيع أن يدَّعي الجزم بما أوَّل، واليقين هو الظاهر، وهو الحقيقة دون المجاز.

والله سبحانه خاطبنا بما نفهم، وبما تدل عليه الألفاظ والتعابير العربية يقول سبحانه: ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[1]،

---

(١) سورة يوسف (٢).

ويقول: ﴿ وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين. نَزَلَ به الروحُ الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين ﴾[1].

وقد يستطيع المرء أن يَعِي دَلالة الكلام ولا يدركَ مُرادَه بالنسبة إلى الله سبحانه أو صفاته؛ فما عليه ـ والأمر كذلك ـ إلا أن يسلك طريق السلامة وذلك بأن يُثْبت ما أثبت الله، ويَنفي ما نَفَى الله، ثم ليفوض المراد إلى الله سبحانه. أما التفويض من غير إثبات أو نفي فهو ـ عند الإمام أحمد ـ تعطيل لكلام له دلالته اللفظية والمعنوية.

والإمام أحمد ومَن قبلَه من أئمة السنة لم يجرؤوا ـ خوفاً من الله ـ على ما جرؤ عليه غيرهم، بل استسلموا لما ورد، فقبلوه من غير تأويل واعتقدوه.

وما كانت شدة الإمام أحمد في التمسك بالأثر ـ وخصوصاً في قضايا الكلام والتوحيد ـ وحملِه الراية ضد المبتدعين إلا نتيجة لكثرة ما كان في عصره من مجادلاتٍ قد تستدعي العبث بكتاب الله، وتغيير معالمه بالتأويل. ومهما تجتهد العقول فلن تصلَ إلى كُنه ما ليس من شأنها، والسلامة في الاتباع، والهَلَكة في الابتداع.

هذا ما استوحيته مما يُروى من كلام الإمام أحمد في العقائد التي شهر بها، وإليك التفصيل موجزاً.

رأيه في الكلام:

يُطلَق الكلامُ على علم أصول الدين الذي هو علم التوحيد، وإنما سُمي كلاماً لكثرة ما يدور حوله من مُجادلات، كان يثيرها في الغالب غيرُ أهل السنّة، ولقد صرح أئمةُ أهل السنّة كالشافعي ومالك وأحمد

(1) الشعراء (١٩٢ ـ ١٩٥).

بكراهيتهم لهذا النوع من الجدل، ومقتهم لمن يجادل في المسائل الخطرة التي تتعلق معظمها في الله سبحانه وصفاته.

فقد كتب[1] رجل إلى أحمد يسأله عن مناظرة أهل الكلام، فكتب إليه أحمد الكتاب التالي:

«أحسن الله عاقبتك. الذي كنا نسمع، وأدركْنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام، والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمر في التسليم، والانتهاء إلى ما في كتاب الله، لا تَعَدَّ ذلك. ولم يزل الناس يكرهون كل مُحدَث من وضع كتاب، وجلوسٍ مع مبتدع، ليردوا عليه بعض ما يُلبِّس عليه دينه».

ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل[2]: كتب أبي إلى عبيدالله ابن خاقان: «لستُ بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا، إلا ما كان في كتاب الله، أو حديث رسول الله ﷺ أو عن أصحابه، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود». وقال الإمام[3] أحمد أيضاً: لا تجالسوا أهل الكلام، وإن ذبّوا عن السنّة. وفي طبقات الحنابلة[4]: وكان يكره الكلام، ويمنع منه ويغضب لسماعه، ويأمر باتباع الأثر. ويقرأ: ﴿ وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾[5]، ويروي: «لا تقوم الساعة حتى تكون خصوماتهم في ربهم تعالى». وكان يقول[6]:

---

(١) ترجمة أحمد في مقدمة المسند تحقيق شاكر.

(٢) المناقب (١٥٦).

(٣) المناقب (١٥٦).

(٤) طبقات الحنابلة ٢/٢٧٠.

(٥) الرعد (١٣).

(٦) طبقات الحنابلة ٢/٢٧٤.

لا غيبة لأصحاب البدع، فقد قال النبي ﷺ في عيينة بن حصن: ابن «ذاك الأحمق المطاع».

وكان رحمه الله ربما هجر من اشتغل بالكلام، ولو كان من العلية في العلم والدين، فقد كان الحارث المحاسبي قد تكلم بشيء من مسائل الكلام؛ قال أبو القاسم النصر أباذي: بلغني أن أحمد ابن حنبل هجره بهذا السبب[1]. ولم يتكلم الإمام أحمد في مسائل تشبه أن تكون من الكلام إلا مضطراً ليرد على من يراهم منحرفين عن العقيدة التي صرح بها كتاب الله والسنّة النبوية، وليعرف الناس أن الكتاب والسنّة هما المصدران دون غيرهما في معرفة الله وصفاته، بل في كل ما لا مجال للعقل فيه. وكان يقول[2]: من صفة المؤمن من أهل السنّة والجماعة إرجاء ما غاب عنه من الأمور إلى الله، كما جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ «إن أهل الجنة يرون ربهم» فيصدقها ولا يضرب لها الأمثال، هذا ما اجتمع عليه العلماء في الآفاق.

وثبت عن الحسن البصري أنه قال: «لقد تكلم مُطَرِّف على هذه الأعداد بكلام ما قيل قبله، ولا يقال بعده، قالوا: وما هو يا أبا سعيد؟ قال: الحمد لله الذي من الإيمان به: الجهلُ بغير ما وَصف به نفسَه».

وثبت عن محمد بن الحسن ـ صاحب أبي حنيفة ـ أنه قال: اتفق الفقهاء كلهم من الشرق والغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فَسَّر شيئاً من ذلك، فقد خرج مما

---

(١) طبقات الشافعية ٢/٢٧٨.

(٢) المناقب (١٥٦).

كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يَصِفوا ولم يُفسِّروا، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنّة ثم سكتوا، فمن قال بقول جَهْم فقد فارق الجماعة.

قوله في الله عزّ وجلّ:

يقول رحمه الله: «إن الله عزّ وجلّ واحدٌ لا مِن عدَد، ولا يجوز عليه التجزؤ ولا القسمة، وهو واحد من كل جهة، وإنه موصوف بما أوجَبَه السمع والإجماع. ويقول: من قال: إن الله عزّ وجلّ لم يكن موصوفاً حتى وصفه الواصفون فهو بذلك خارج عن الدين»[1]. قال ذلك الإمام لأن فريقاً من المغالين الجهميين، كان يقول هذا القول.

الصفات عند الإمام:

كان رحمه الله يقول[2]: إن الله تعالى قديمٌ بصفاته التي هي مضافة إليه في نفسه، وقد سئل: هل الموصوف القديم وصفته قديمان؟ فقال: هذا سؤال خطأ، لا يجوز أن ينفرد الحق عن صفاته، فالله تعالى[3] هو الله الذي جاء في القرآن، والاعتقاد بالله هو الاعتقاد بالصفات التي وصف بها نفسه في كتابه، ومن ثَمَّ يجب أن نسلِّم بأن صفاته: السميع، والبصير، والمتكلم، والقادر، والمريد، والحكيم وغيرها، هي حق. كما أن الصفات الأخرى جميعاً التي تدخل في المتشابه؛ كالكلام عن «يَده» و«عرشِه» و«وجوده في كل مكان، ورؤية المؤمنين له يوم البعث» كلُّها أيضاً حق، وأخذاً بالحديث يجب أن نُسلِّم أيضاً بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر ليستمع

---

(١) الطبقات ٢/٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه ٢/٢٩٩.

(٣) كتاب السنّة ٣٧.

إلى دعوات عباده، كما يجبُ أن نسلِّم في الوقت نفسه بظاهر لفظ القرآن: ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد ﴾[1].

ومن ثم أنكر ابن حنبل بشدة قول الجَهْمية بالتعطيل، وتأويل القرآن والحديث، كما أنكر بشدةٍ لا تقل عن ذلك، تشبيه المُشبِّهة، رامياً إياهم بأنهم مشبِّهةٌ بلا وَعْيٍ منهم.

ويجب ـ في عقيدته ـ أن يؤمن المرء بالله بلا كيف، ويترك لله فهم أسراره، ويطرح دقائق علم الكلام في تناوله للعقائد، لأنها تنطوي على الغرور والخطر. هذا موقف الإمام أحمد، إنه غاية في البساطة وغايةٌ في القوة أيضاً من حيث النظرة القرآنية.

قوله في صفتيه السميع والبصير:

قوله في صفات الله تعالى أن نثبتها كما جاءت في كتاب الله بدون تعطيل ولا تأويل ـ كما تقدم ـ فهو سميع بسمع، بصير ببصر، من غير تشبيه ولا تمثيل، لأنه ليس كمثله شيء. يقول رحمه الله: وفي صفات الله تعالى ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالسمع، مثل قوله تعالى: ﴿ وهو السميع البصير ﴾ فبان بإخباره عن نفسه ما اعتقدته العقول فيه، وأن قولنا «سميع بصير» صفة من لا يشتبه عليه شيء، كما قال في كتابه الكريم. ولا تكون رؤية إلا ببصر، وليس ذلك بمعنى العلم كما يقول المخالفون؛ ألا ترى إلى قوله لموسى: ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾[2]، قال: وقوله تعالى: ﴿ وإن عَزَموا الطلاق فإن الله سميع

---

(1) سور الإخلاص.
(2) طه (٤٦).

عليم ﴾[1] يدل على أنَّ معنى «السميع» غير معنى «العليم»، وقال: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «سبحان من وسع سمعُه الأصوات» ومعنى ذلك من قوله: أنه لو جاز أن يسمع بغير سمع لجاز أن يعلم بغير علم، وذلك محال، فهو عالم بعلم، سميع بسمع.

فالإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يريد أن يُثبت ما أثبته الله ورسوله، ويَنْفي ما نفاه الله ورسوله، فإذا أثبت ما ورد أثبت معه ﴿ليس كمثله شيء ﴾ وأثبت ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾. وما يرى التأويل؛ لأن الله صرح بكلام يجب أن نفهمه على وجهه، ولو أراد المعنى المؤول لما أعجزه ذلك، ومن الجرأة على الله أن نؤول كلمة أو تعبيراً لا نقطع بأنها هي المراد من كلام الله تعالى، أو كلام رسوله ﷺ. ولقد نزل القرآن على رسوله، وحفظه الصحابة وفهموه، ولم يُؤولوه، بل أدركوا ظاهره، وهم العرب أصحاب الشأن في تصور معانيه وفهمها. ولو أن في كلام الله ما ينبغي أن يصرف عن معناه الحقيقي لدل عليه رسول الله ﷺ، ولرواه الصحابة رضوان الله عليهم، ولتلقاه التابعون وتابعوهم، إلى أوائل القرن الرابع، ولكنهم كلهم لم يؤولوا ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾[3].

قال الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي: وما أظن أحداً من أهل الأثر خالف في هذا إلا من أراد الله به غير الرشد[4].

---

(١) البقرة (٢٢٧).
(٢) المجادلة (١).
(٣) آل عمران (٧).
(٤) طبقات الحنابلة ٢/٢٦٥.

ولما اشتد عود المعتزلة، وتجاذبوا الآراء مع بعض أهل السنّة، لم يتخلص هؤلاء من تسرب طرائق المبتدعة وبعض أفكارهم وكذلك طبيعة التماس في المجادلة، يأخذ كل فريق من مجادله بعض آرائه وما يشعر، فما يرى نفسه إلا وهو يدافع عن أمر كان يدفعه.

ولكن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ازداد تمسكاً بالنص وعدم التأويل، حين رأى المجادلات محتدمةً بين الفرقاء في موضوع الله سبحانه وصفاته.

واستمر الإمام حياته كلّها يدافع عن عقيدته الأثرية حتى وافته منيّته؛ فلقد سئل[1] ـ رحمه الله ـ قبل موته بيوم عن أحاديث الصفات؟ فقال: تُمر كما جاءت، ويؤمن بها، ولا يُرد منها شيء إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا يوصف الله بأكثر مما وصف به نفسه، بلا حد ولا غاية ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ومن تكلم في معناها ابتدع.

قوله بما ورد في اليد:

وكان يقول في اليد ـ على مبدأ «الصفات تمر كما جاءت» ـ: إن لله تعالى يدين[2]، وهما صفة له في ذاته ليستا بجارحتين، وليستا بمركبتين، ولا جسماً، ولا من جنس الأجسام، ولا من جنس المحدود والتركيب، ولا الأبعاض والجوارح، ولا يقاس على ذلك، ولا له مِرفَق ولا عضُد، ولا فيما يقتضي ذلك من إطلاق قولهم «يد» إلا ما نطق به القرآن، أو صحت عن رسول الله ﷺ السنّة فيه. قال الله تعالى: ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «كلتا يديه يمين». وقال الله

---

(١) المصدر نفسه ٣٠٧.

(٢) طبقات الحنابلة ٢٩٤.

(٣) المائدة (٦٤).

عز وجل: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾[1]. وقال: ﴿والسموات مطوياتٌ بيمينه﴾[2]. ويفسد أن تكون يده القوة والنعمة والتفضل، لأن جمع يد - أي الجارحة - «أيدٍ»، وجمع تلك - أي التفضل والنعمة - أيادٍ، ولو كانت اليد عنده القوة لسقطت فضيلة آدم[3]، وثبتت حجة إبليس.

قوله في الوجه الوارد في القرآن والسنّة:

مذهبه في الوجه: أن[4] لله عز وجل وجهاً لا كالصورة المصوَّرة، والأعيان المخطَّطة؛ بل وجهاً وصفه سبحانه بقوله: ﴿كلُّ شيء هالكٌ إلّا وجهه﴾[5] ومن غَيَّر معناه فقد ألْحَد عنه، وذلك عنده وجهٌ في الحقيقة، دون المجاز، ووجه الله باقٍ لا يَبلى، وصفة له لا تفنى، ومن ادَّعى أن وجهه نفسه فقد ألحد، ومن غير معناه فقد كفر، وليس معنى وجه معنى «جسد» عند الإمام ولا «صورة» ولا «تخطيط» ومن قال ذلك فقد ابتدع.

قوله في النفس في القرآن:

وذهب رحمه الله إلى أن لله تعالى نفساً وقرأ ﴿ويحذركم الله نفسه﴾[6] وقال: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾[7]؛ وليست كنفس العباد

---

(١) ص (٧٥).
(٢) الزمر (٦٧).
(٣) يريد الإمام - رحمه الله -: أن مزية آدم أبي البشر أن خلقه الله بيده، ولو كانت اليد بمعنى القوة لبطلت هذه المزية ولاشترك الخلق كله من إنس وجان وسماوات وأرضين بأنهم خلقوا بقوة الله، وثبتت حجة إبليس لاستوائهما في الوجود بقوة الله.
(٤) طبقات ٢/٢٩٤.
(٥) القصص (٨٨).
(٦) آل عمران (٢٨ و ٣٠).
(٧) طه (٤١).

التي هي متحركة متصعِّدة، مترددة في أبدانهم، بل هي صفة له في ذاته، خالف فيها النفوس المجعولة. وحكى في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ تعلمُ ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾[1] قال: تعلم ما في نفسي المخلوقة، ولا أعلم ما في نفسك الملكوتية ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾[2]. وأنكر على من يقول بالتجسيم، وقال: إن الأسماء مأخوذةٌ بالشريعة واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على كل ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف؛ والله تعالى خارج عن ذلك كله، فلم يَجُز أنْ يُسمَّى جسماً لخروجه عن معنى الجسمية، ولم يجيء في الشريعة ذلك فبطل[3].

قوله في معنى الاستواء:

يقول ـ رحمه الله ـ في معنى الاستواء: هو العلو والارتفاع، ولم يزل الله تعالى عالياً رفيعاً قبل أن يخلق عرشه، فهو فوق كل شيء، والعالي على كل شيء، وإنما خصَّ الله العرش لمعنىً فيه مخالفٍ لسائر الأشياء، والعرش أفضل الأشياء وأرفعها، فامتدح الله نفسه: بأنه على العرش استوى، أي عليه علا، ولا يجوز أن يقال: استوى بمُماسَّة ولا بملاقاة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والله لم يلحقه تغيُّر ولا تبديل، ولا يلحقه الحدود، قبل خلق العرش.

وقال الإمام في رواية عنه: نحن نؤمن بأن الله عزّ وجل على العرش كيف شاء وكما شاء، بلا حَدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصف، أو يَحدُّها حادٌّ،

---

(١) المائدة (١١٦).
(٢) المائدة (١١٦).
(٣) طبقات ٢/٢٩٨.

وكان ينكر على من يقول: إن الله في كل مكان بذاته، لأن الأمكنة كلَّها محدودة[١].

وحُكي عن عبد الرحمن بن مهدي عن مالك: أن الله مستوٍ على عرشه المجيد كما أخبر، وأن علمَه في كل مكان ولا يخلو شيء من علمه. وعظم عليه الكلام في هذا واستبشعه[٢].

فالله سبحانه عالم بالأشياء، مدبِّرٌ لها من غير مخالطة، ولا موالجة، بل هو العالي عليها، المنفردُ عنها وقرأ أحمد: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾[٣] وقرأ: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[٤] وقرأ: ﴿يُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرُج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تَعُدون﴾[٥] وقرأ: ﴿إني متوفِّيك ورافعُك إليّ﴾[٦] وقرأ: ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[٧].

وقد روي عن أم سلمة زوجِ النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[٨] قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به واجب، والجحود به كفر. وقد أسند مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ كما في الغنية[٩].

(١ و ٢) الطبقات ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٣) الأنعام (١٨ و ٦٢).
(٤) فاطر (١٠).
(٥) السجدة (٥).
(٦) آل عمران (٥٥).
(٧) النحل (٥٠).
(٨) طه (٥).
(٩) الغنية ١/ ٥٠.

ويقول القرطبي[1]: «وقد كان السلف الأوَّل رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى، كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنها لا تعلم حقيقته؛ قال مالك: الاستواء معلوم - يعني في اللغة - والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة» على أن السلف قرنوا كل إثبات في الكتاب أو السنّة بقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾[2] وبقوله سبحانه: ﴿ولم يكن له كُفواً أحدٌ﴾[3] وبقوله سبحانه: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تُصبحون﴾[4].

أما غير السلف فقد اختلفوا على أربعة عشر قولاً، فأين يكمن الحق لدى هؤلاء جميعاً؟ وما اختلفوا إلا لأنهم أوَّلوا. والذين بدأوا بالتأويل هم المعتزلة والجهمية، وما فتئوا يؤوّلون، وينفون، ويجرِّدون حتى كادوا يجعلون من الإله الحق فكرة مجردة. ووضعوا لآرائهم ومعتقداتهم أصولاً ثم أوَّلوا عليها آيات الكتاب التي لا تتفق في ظاهرها مع ما أصّلوا.

قوله في كلام الله:

كان - رحمه الله - يقول: إن لله عزّ وجل كلاماً هو به متكلم، وذلك صفة له في ذاته خالف فيها الخُرس والبُكم والسُّكوت، وامتدح بها

---

(1) تفسير القرطبي ٧/٢١٩.
(2) الشورى (١١).
(3) الإخلاص (٤).
(4) الروم (١٧).

نفسه فقال عز وجل في الذين اتخذوا العجل: ﴿ألم يَروا أنه لا يُكَلِّمهم ولا يَهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين﴾[1]؟! فعابهم لمّا عبدوا إلهاً لا يتكلم.

وتبطل الحكاية عنده بقوله عز وجل: ﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾ و«تكليماً» مصدر: كلَّم يُكلِّم[2] وذلك يفسد الحكاية[3]، ولم ينقل عن أحد من أئمة المسلمين من المتقدمين من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين القول بالحكاية والعبارة، فدل على أن ذلك من البدع المحدثة[4].

وسوف نأتي على ذكر مسألة «خلق القرآن» على زعم من زعم، في الكلام على حكاية محنة الإمام إن شاء الله تعالى.

قوله في علم الله:

كان يقول: إن لله علماً، وهو عالم بعلم لقوله تعالى: ﴿والله بكل شيءٍ عليم﴾[5] ولقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[6] وذلك في القرآن كثير. وقد بينه الله عزّ وجلّ بياناً شافياً بقوله عز وجل: ﴿لكنِ الله يشهد بما أنزله إليك، أنزله بعلمه﴾[7]؛ وهذا يدل على أنه عالِم بعلم، وأن علمه بخلاف العلوم المُحدَثة التي

---

(١) الأعراف (١٤٧).

(٢) في الأصل: مصدر تكلم يتكلم فهو متكلم.

(٣) الحكاية: أي إن مخلوقاً ما حكى قوله تعالى، وإنما يفسد الحكاية، لأن التوكيد يرفع التجوز فلا تبقى إلا الحقيقة.

(٤) الطبقات ٢/٢٩٦.

(٥) النساء (١٧٦).

(٦) البقرة (٢٥٥).

(٧) النساء (١٦٦).

يَشُوبها الجهل، ويدخلها التغيير، ويلحقها النسيان، ومسكنها القلوب، وتحفظها الضمائر، ويقوِّمها الفكر، وتقوِّيها الذاكرة، وعلم الله تعالى بخلاف ذلك كله، صفة له لا تلحقها آفةٌ ولا فساد ولا إبطال، وليس بقلب ولا ضمير[1].

قوله في قدرة الله:

وكان يقول ـ رحمه الله ـ: إن لله قدرةً، وهي صفةٌ له في ذاته، وإنه ليس بعاجز ولا ضعيف، لقوله عز وجل: ﴿ وهو على كل شيءٍ قدير ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قل هو القادرُ على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾[2] ولقوله: ﴿ فقَدَرْنا فنعم القادرون ﴾[3]. ولقوله تعالى: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾[4]، ولقوله تعالى: ﴿ ذو القوة المتين ﴾[5]. فهو قدير قادر، وعليم وعالم، ولا يجوز أن يكون قديراً ولا قدرة له، ولا يجوز أن يكون عَليماً ولا علم له[6].

قوله في الإرادة:

وكان يقول: إن الله تعالى لم يزل مُريداً، والإرادة صفةٌ له في ذاته، خالف بها مَنْ لا إرادة له، والإرادة صفةُ مدح وثناء، وليست إرادته كإرادة الخلق، وقد أثبت ذلك لنفسه فقال: ﴿ إنما قولنا لشيء

---

(١) الطبقات ٢/٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(٢) الأنعام (٦٥).
(٣) المرسلات (٢٣).
(٤) فصلت (١٥).
(٥) الذاريات (٥٨).
(٦) الطبقات ٢/٢٩٤ ـ ٢٩٥.

إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[1] وقد دلَّت العبرة على أن من لا إرادة له فهو مُكرَه[2].

ونلاحظ هنا أن الذي دفعه أن يتكلم بصفات الله بهذه الطريقة الواضحة التي لا لَبْس فيها ولا غموض مع بعض التعليق والمناقشة؛ هو ردُّ عقائد الجهمية والمعتزلة الذين لا يُثبتون الصفات، وإنما يرون أنَّ الصفات هي عين الذات، ومن تعابيرهم أن علمه هو هو وسمعه هو هو وكذلك باقي الصفات. ولئن حاولوا أن يجتذبوه إلى أن يخوض في مسائل هي في صميم علم الكلام؛ لقد عجزوا عن أن يُدخلوا على خطته في البحث والعقيدة أدنى فكرة قد يَرْفُضها كتابُ الله أو سنةُ رسول الله، وهما اللذان لا يَرضى عنهما بديلاً في الدَّلالة على الله وصفاته.

قوله في غضب الله ورضاه:

وذهب الإمام أحمد إلى أن الله تعالى يغضب ويرضى، وأن له غضباً ورضاً، وقرأ قوله عز وجل: ﴿ ولا تطغَوا فيه فيحِلَّ عليكم غضبي، ومن يحلل عليه غضبي فقد هَوى ﴾[3] فأضاف الغضب إلى نفسه، وقرأ أيضاً قوله تعالى: ﴿ فجزاؤه جهنمُ خالداً فيها وغضِبَ الله عليه ولعنه ﴾[4]. أما الرضا ففي قوله تعالى: ﴿ لقد رضِيَ الله عن المؤمنين إذ يُبايعونك تحت الشجرة ﴾[5]. وأنكر أصحابه على من يقول: إن الرضا والغضَب مخلوقان، قالوا: من قال ذلك لزمه أن

(1) النحل (٤٠).
(2) الطبقات ٢/٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(3) طه (٨١).
(4) النساء (٩٣).
(5) الفتح (١٨).

غضب الله عز وجل على الكافرين يفنى، وكذلك رضاه على الأنبياء والمؤمنين[1].

رأيه في القضاء والقدر:

يقول رحمه الله[2]: إن كل ما في الوجود بقضائه وبقدره، وليس القضاء عنده بمعنى جبرهم عليها ولا إلزامهم إياها، كما يقال: قضى القاضي بكذا؛ لأن القضاء بمعنى الأمر في قوله تعالى: ﴿ وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلاّ إياه ﴾[3] وبمعنى الخلق في قوله تعالى: ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾[4] وبمعنى الإعلام في قوله: ﴿ وقَضَينا إليه ذلك الأمر ﴾[5] وبمعنى الإرادة في قوله تعالى: ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[6]. فقضاء المعاصي بمعنى خلق الحركات التي بها المعاصي والإرادات الفاسدة لا بمعنى الأمر بها والجبر عليها. وكان يقول[7]: لو لم يَجُز أن يفعل الله تعالى الشر لما حَسُنت الرغبة إليه في كشفه ـ أي في الدعاء ـ.

رأي الإمام في النظر والاستدلال:

كان يقول ـ رحمه الله ـ: أوجب الله على المكلفين النظر والاستدلال، الموصِلَيْن إلى العلم، ويتلو: ﴿ أوَ لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء ﴾[8] وقوله: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[9] وكان يقول: اختلاف المسلمين يدل على وجوب النظر[10].

---

(1) الطبقات ٢/٢٩٧.
(2) المصدر نفسه ٢/٢٦٩.
(3) الإسراء (٢٣).
(4) فصلت (١٢).
(5) الحجر (٦٦).
(6) البقرة (١١٧).
(7) الطبقات ٢/٣٠٤.
(8) الأعراف (١٨٥).
(9) الذاريات (٢١).
(10) الطبقات ٢/٢٨١.

رأيه في الإيمان:

رأي أحمد في الإيمان مثل رأي الشافعي ومالك وهو أنه يزيد وينقص، وهو رأي الأشاعرة، وعند أبي حنيفة: الإيمان تصديق جازم لا يقبل الزيادة ولا النقص. ويذهب أحمد إلى أن الإيمان: قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالقلب، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم، ويضعف بالجهل.

وأن الإيمان اسم يتناول مسميات كثيرة من أفعال وأقوال، وذكر الحديث عن النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[1].

وكان يقول[2]: إن الإيمان يزيد، ويقرأ: ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾[3]، ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾[4]؛ وما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقصان.

وقال رحمه الله في كتابه السنّة[5]: الإيمان قولٌ وعمل ونية وتمسُّك بالسنّة، ومن ثَم فالإيمان يزيد وينقص.

الإيمان عنده غير الإسلام:

كان رحمه الله يقول[6]: إن الإيمان غيرُ الإسلام، واستدل أحمد بحديث الأعرابي وسؤاله عن الإيمان والإسلام، وجواب رسول الله ﷺ

---

(١) الطبقات ٢/٣٠١.
(٢) نفس المصدر ٢/٣٠٢.
(٣) المدثّر (٣١).
(٤) التوبة (١٢٤).
(٥) كتاب السنّة ص ٣٤.
(٦) الطبقات ٢/٣٠٢.

عنهما بجوابين مختلفين، وبقوله عز وجل: ﴿ قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ﴾[1]. وعند أكثر أهل السنّة وفيهم البخاري أن الإيمان والإسلام واحد.

كان يكفّر القدرية:

وكان يرى تكفير من أفضى به معتقده إلى تكذيب الله سبحانه في خبره، فذلك جهل، وهم القدرية القائلون بخلق القرآن، والمكذّبون برؤية المؤمنين لله في الآخرة، والقائلون بأن المعدوم شيء؛ وقد قال تعالى: ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئاً ﴾[2]، والذاهبون إلى أن أفعال العباد خلق لهم دون ربهم.

وكان يقول: القدرية مجوس هذه الأمة.

وكان يكفِّر تارك الصلاة، ويكفّر من يقول: إن القرآن مقدور على مثله، ولكن الله تعالى منع من قدرتهم، ويقول الإمام: بل هو معجز في نفسهُ، والعجز قد شمل الخلق. والقائل إن القرآن مقدور على مثله هو النظّام القائل بالصرفة، ويريد بها أن القرآن غير معجز في نفسه، بل صُرف الخلقُ عن أن يقولوا مثله، وكان رحمه الله يكفر من يقول بالرجعة[3].

رأيه في مرتكب الكبيرة والتوبة:

كانت الخوارج ترى أن مرتكب الكبيرة كافر، ومن ثَمَّ كفَّروا كثيراً من المسلمين وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لأنه أقر بالتحكيم مع أنهم دفعوه إليه. ويـرى المعتزلـة أن له منـزلةً بين

(١) الحجرات (١٤).
(٢) مريم (٩).
(٣) الطبقات ٢/٢٧٥.

المنزلتين، ولكنه مع ذلك خالد في النار. ويذهب الإمام أحمد ـ مع جميع أهل السنّة ـ أن مرتكب الكبيرة مسلم عاص، وأن الفاسق بركوب الكبيرة مسلم، وأنه لا ينافي ما أتاه من ذنبه ما اعتقده من إيمانه ويقرأ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾[1]؛ وهذه معصية مع تسميتهم مؤمنين[2]. وكان يرى أن الكبائر ذنوب مخصوصة، وليس كل ذنب كبيرة[3].

ويرى أن التوبة من كل ذنب واجبة، وأنها تمحو ما سلف، إذا قارنها الإخلاص، وهو الندم على ما فات وتركِ المطال، والعزم على عدم العودة، وأن الباري لا يجب عليه قبولها، لأنه لا يجب عليه شيء[4]، وإنما يتفضل على عبده بذلك، إحساناً منه؛ ويتلو: ﴿ إلا من تاب وآمَن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات ﴾[5]. وكان يقول: من ترك التوبة، وجبت عليه التوبة لأنه ترك واجباً فهو كراكب الذّنْب[6].

رؤية الله في الآخرة:

وأساس ذلك قوله تعالى: ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضرة، إلى ربها ناظرة ﴾[7] وخالف المعتزلة في ذلك واستدلوا بقوله تعالى:

---

(١) التوبة (٣٨).
(٢) الطبقات ٢/٢٦٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) خلافاً للمعتزلة فإنهم يرون أنه يجب على الله إنجاز الوعد والوعيد.
(٥) الفرقان (٧٠).
(٦) الطبقات ٢/٢٦٦.
(٧) القيامة (٢٢ ـ ٢٣).

﴿لا تُدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصار﴾[1] والمعنى عند أهل السنّة: لا تدركه إدراكَ ماهية وإحاطة، وهو ما يدل عليه معنى «لا تدركُه» وبهذا التأويل أمكَن الجمعُ بين معنى الآيتين. وكان الإمامُ أحمد مع جميع السلف والخَلف من أهل السنّة يذهب إلى أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار، وقرأ: ﴿ وجوه يومئذٍ.. الخ ﴾ الآية المتقدمة، وكان يقول: ولو لم يُرد النظر بالعين ما قرنه بالوجه. وأنكر نظر التعطُّف والرحمة، لأن الخلق لا يتعطفون على الله تعالى ولا يرحمونه، وأنكر الانتظار[2] من أجل ذكر الوجه، ولأنه أدخل فيه «إلى» - أي إلى ربها - وإذا دخلت إلى فسَدَ الانتظار. قال الله تعالى: ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة ﴾[3] فلما أراد الانتظار لم يُدخل «إلى».

وروى الحديث: «ترون ربكم.. الخ»[4].

رأيه في التولد، وتوقيت الأجل:

التولد مسألة كلامية، وذلك أنهم اختلفوا فيمن رمى سَهْماً فجرح به إنساناً، أو غيره، وفي حرق النار وتبريد الثلج، وسائر الآثار الظاهرة من الجمادات، فقالت طائفة: ما تولد من ذلك عن فعل إنسان أو حَيٍّ فهو فعلُ الإنسان أو الحي. واختلفوا فيما تولد من غير حَيّ، فقالت طائفة: هو فعل الله وقالت طائفة: ما تولد من غير حي فهو فعلُ الطبيعة. وقال آخرون - وهم أهل السنّة - كل ذلك فعل الله عز وجل[5].

---

(1) الأنعام (١٠٣).
(2) أي أنكر أن يكون معنى ناظرة: منتظرة لأن الانتظار لا يكون بالوجه وحده.
(3) يس (٤٩).
(4) الطبقات ٢٩٨/٢.
(5) انظر الفِصَل لابن حزم ج ٥ ص ٥٩ - ٦٠.

وأدلى الإمام أحمد برأيه في هذه المسألة، فهو يبطل القول بالتولد، ولا يذهب إليه، وأن السهم الذي يرمي به الرامي، فالقتل الواقع به من فعل الله سبحانه، لجواز أن يموت الرامي قبلَ وصول ِ الرمية، فيموت المَرْمي بفعلٍ فاعل معدوم، وهذا يؤدي إلى جواز وجود الأفعال من الموتى، ولأنّ هذا من خلق الأفعال، وهي عنده خلق لله سبحانه ويقرأ: ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[1].

ويناسب مسألة التولُّد الموتُ بالأجل، فقد كان يقول[2] ـ رحمه الله ـ: إن الميت بالقتل مات بأجله وإن قتلَه لم يقطع عليه شيئاً من أجله، وإنه لو لم يقتل لمات إن قُضي ذلك؛ ويقرأ: ﴿ فإذا جاء أجلُهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقـدمـون ﴾[3].

وقد سمى الله تعالى مُدَّعي ذلك كافراً، وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزّىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلوا ﴾[4].

يُجوّز الكرامة:

كان[5] يذهب إلى جواز الكرامات للأولياء، ويفرّق بينها وبين المعجزة، فإن جرت على يدي ولي كتمها وأسَرَّها، ويُنكر على من ردَّ الكرامات.

---

(١) الصافات «٩٦».
(٢) الطبقات ٢/٢٦٨.
(٣) الأعراف «٣٤».
(٤) آل عمران «١٥٦».
(٥) الطبقات ٢/٣٠٦.

الاسم والمسمَّى:

اختلف العلماء في: هل الاسم نفس المسمّى أو غير المسمَّى؟ فعند الأشعرية والكرامية: الاسم نفس المسمَّى وغير التسمية. وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمَّى ونفس التسمية. ويقول الفخر الرازي: والمختار عندنا أن الاسم غير المسمَّى وغير التسمية. وليس مجالنا هنا أن نبحث في تفصيل ذلك، ومن أراده فليرجع إلى تفسير الرازي[1] فثَمَّ ما يشفي الغليل. والذي دعانا لهذا هو أن الإمام أحمد - رحمه الله - كان يَشقُّ عليه الكلام في الاسم والمسمَّى، ويقول[2]: هذا كلام محدث ولا يقول: إن الاسم غير المسمّى، ولا هو هو؛ ولكن يقول: إن الاسم للمسمى اتباعاً لقوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[3].

الخلافة والأفضل من الصحابة والإمساك عما شجر بينهم:

يقول الإمام أحمد - في مسنده - حدثنا أبو بكر بن عياش، ثنا عاصم بن زر عن عبد الله قال: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً، فهو عند الله سيء» وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر رضي الله عنه[4].

وكان يقول بالحديث المشهور: «الأئمة من قريش» يقول في كتاب السنّة[5] له: والخلافة في قريش ما بقي في الناس اثنان ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها، ولا نقر لغيرهم إلى قيام الساعة.

---

(١) التفسير ج ١٠٨/١ وما بعدها.
(٢) الطبقات ٢٧٠/٢.
(٣) الأعراف ١٨٠.
(٤) البداية والنهاية ٣٢٨/١٠.
(٥) كتاب السنّة للإمام ٣٥.

وكان يعتمد في الخلافة على السنّة التي سنّها أبو بكر وعمر؛ على أن عهداً ما من هذا القبيل لا يكون ناجزاً إلا إذا أعقبته مبايعة يقسم فيها الإمام والمبايعون، والناس يدينون بالطاعة للإمام، فلا يجوز لهم المعارضة في حكمته.

ويرى أن الإمامة لا تجوز إلا بشروطها: النسب، والإسلام، والحماية، والبيت، والمَحتِد، وحفظ الشريعة، وعلم الأحكام، وصحة التنفيذ، والتقوى، وإتيان الطاعة، وضبط أموال المسلمين، فإن شهد له بذلك أهل الحل والعقد من علماء المسلمين وثقاتهم جاز له ذلك. وكان يقول: لا طاعة لهم في معصية الله تعالى وإنه لا يجوز الخروج على الإمام، ومن خرج على إمام قتل الثاني.

والجهاد ماضٍ، قائم مع الإمام برّاً أو فاجراً، ولا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل.

والجمعة والحج والعيدان مع الأئمة، وإن لم يكونوا بَرَرَةً عدولاً أتقياء، فإذا سعى الأمير إلى معصية الله وجَبَ أن يواجه في هذا الشأن بعدم طاعة، بلا دعوة إلى إثارة فتنة مسلحة لا يمكن تبريرها ما دام الإمام يقيم الصلاة في أوقاتها.

وكان يقول في التفضيل: إن خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ، وإن علياً رابعهم في الخلافة والتفضيل، ويتبرأ ممن ضلّلهم وكفّرهم. وقال مرة: من قدَّم علياً على عثمان فقد أزرى بأصحاب الشورى لأنهم قدموا عثمان.

وروي عنه أيضاً أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر الصدّيق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان. فقدم هؤلاء الثلاثة كما قدم أصحاب رسول الله لم يختلفوا في ذلك، ثم بعد

هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى[1].

وروي عنه أنه قال[2]: خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، نقدم هؤلاء الثلاثة، كما قدَّم أصحاب رسول الله لم يختلفوا في ذلك، ثم بعد هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى الخمسة: علي، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد، وكلهم يصلح للخلافة.

وكان يقول: أفضل القرون القرن الذين شاهدوا رسول الله ﷺ واتبعوه، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. وأفضل الصحابة: أهل بيعة الرضوان، وهم ألف وأربعمائة. وخيرهم وأفضلهم: أهل بدر، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وأعيانهم الأربعون أهل الدار، وخيرهم: عشرة شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، ومات وهو عنهم راض. وأعيانهم أهل الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسلمين، وأفضلهم الخلفاء الأربعة الراشدون، وخيرهم أبو بكر، وعمر، لقوله ﷺ هما من الدين بمنزلة السمع والبصر[3].

وكان - رضي الله عنه[4] - ينهى عن الخوض فيما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، وألا يقال فيهم إلا الحسنُ والثناءُ الجميل ويتلو: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾[5]، ويروي الحديث المأثور: «إياكم وما شجر بين أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

---

(١) البداية ١٠/٣٢٨.
(٢) المناقب ١٦٠ - ١٦١.
(٣ - ٤) الطبقات ٢/٢٧٢.
(٥) الفتح «١٨».

وكان لا يَمسُّ معاوية بن أبي سفيان بسوء[1]، ويرى له فضلاً ويقرأ: ﴿عسى الله أن يجعل بينَكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾[2].

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال[3]: سألت أبي عن رجل يشتم رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال: ما أُراه على الإسلام.

وكان يمسك عن الخوض فيما جرى بصفِّين والجمل، ويقول: تلك دماء صان الله يدي عن ملابستها فأصون لساني عن الخوض فيها، ويقول: إن الله أثنى عليهم، فيجب أن نحسنَ الظن بهم.

الحق لا يتعدد:

يقول الإمام: إن الحقَّ في إحدى جنبتي المجتهدين، ولا أعرفه عَيْناً، ويقول: إن الحقّ واحدٌ عند الله فليس كل مجتهد مصيباً، ولكن المصيب له أجران، والمخطىء له أجرٌ واحد لتحريه الصواب وطلبه إياه.

وسأل[4] رجلٌ أحمد عما جرى بين عليٍ ومعاوية فأعرض عنه، فقيل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه فقال: اقرأ: ﴿تلك أمَّةٌ قد خَلَت لها ما كَسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾[5].

وقد كان رحمه الله يمجد أمة العرب، ويقول[6]: «ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم بمحبة رسول الله ﷺ». وكان يقول: سبُّ العرب نفاق، وبُغضهم نفاق.

---

(1) الطبقات ٢/٢٧٢.
(2) الممتحنة «٧».
(3) المناقب ١٦٥.
(4) المناقب ١٦٤.
(5) الآية «١٣٤» من سورة البقرة.
(6) كتاب السنّة له «٣٨».

آراء مختلفة:

منها قوله: إن لله تعالى ميزاناً يزن فيه الحسنات والسيئات.

ومنها قولـه: إن بعض النبيين أفضل من بعض، ومحمـد ﷺ أفضلهم، والملائكة أيضاً بعضهم أفضل من بعض، وإن الصالح من بني آدم أفضل من الملائكة، ويخطىء من يفضل الملائكة على بني آدم.

ومنها قوله: إن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان. وقوله: لله سبحانه صراط ممدود على متن جهنم أحدُّ من السيف وأدق من الشعر[1].

ومنها قوله: إن النبي ﷺ غير موروث لحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث. ما تركناه صدقة».

ومنها: أنه كان لا يجيز لعن أحد من المسلمين، لم ترد الشريعة بلعنه، ويَروِي الحديث المأثور «لعن المؤمن كقتله» و«المؤمن لا يكون لعَّاناً».

ومنها أنه كان لا يفسِّق الفقهاء، في مسائل الخلاف.

ومنها: أنه يرى الصلاة خلف كل بَر وفاجر، وقد صلَّى ابن عمر خلفَ الحجاج ـ يعني الجمعة والعيدين ـ، وأن الفيء يقسمه الإمام.

ومنها: أنه كان يأمر بالتداوي من الأمراض، ويكره الشكوى.

ومنها: أنه كان رحمه الله يفضل الفقر على الغنى ويأمر بالزهد ويقول: في الصبر على المكاره خير كثير.

---

(1) روى هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده عن عائشة، ورواه البيهقي في الشعب عن أنس مرفوعاً. وروي عن زياد النميري عن أنس مرفوعاً، وقال: وهي رواية صحيحة بلفظ «الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة».

ومنها: أنه كان يتحرج أن يدخل إلى دار فيها صُوَر، أو دعوة فيها لَهوٌ أو غناء، فإذا حضر لم يرجع عنها ويقول ـ كما قال الحسن البصري لابن سيرين ـ: لا ندعُ حقاً لباطل.

وكان يعتقد أن كلَّ مسكر حرام، وكل مسكر خمر، ويذكر الحديث المروي: «إن الخمر من هاتين الشجرتين: الكرمة والنخلة». وفي الحديث المروي في صحيح مسلم: «من الحِنطة خمر، ومن العسل خمر، ومن الذرة خمر»[1].

كتاب للإمام أحمد:

أجْمَلَ الإمام أحمد رحمه الله كثيراً من عقائده في الكتاب الذي كتبه إلى مُسدَّد بن مُسرْهَد؛ حين سأله هذا عما كان يشغَل بال الناس من المسائل التي اختلفوا فيها، وما رأيُ أهل السنّة في ذلك؟ وتدل لهجة الإمام على أنه كان شديد الغضب على أولئك الذين ابتدعوا في دين الله ما لم يتكلم به النبي ﷺ ولا صحابته ولا التابعون لهم. فتصدى الإمام لهؤلاء المبتدعة بهذا الكتاب وغيره بقوة وبما كان يراه من تكفيرهم على قدْر ما لو تُركوا وشأنهم لأفسَدوا عقائد الناس، وحَوَّلوها من إيمان في القلب إلى أفكار عقلية قد تخطىء وقد تصيب.

وإليك نص الكتاب:

قال أحمد بن محمد التميمي الزرندي: لما أشكل على مُسدَّد ابن مُسرهَدْ بن مُسربَل أمرُ الفتنة، وما وقع الناس فيه من الاختلاف في

---

(1) هذا مجمل مختصر من آراء الإمام أحمد في كثير من شؤون العقيدة، ولقد توسع بذكرها إمام وقته الزاهد الكبير، الحنبلي الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه الغنية ٤٨/١.

القدر، والرفض، والاعتزال، وخلق القرآن، والإرجاء؛ كتب إلى أحمد بن حنبل:

اكتب إليَّ بسنّة رسول الله ﷺ.

فلما ورد كتابه على أحمد بن حنبل، بكى وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، يزعم هذا البصري أنه قد أنفق على العلم مالاً عظيماً، وهو لا يهتدي إلى سنّة رسول الله ﷺ ثم كتب إليه[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من آل العلم يَدْعون من ضلّ إلى الهُدى، وينهونه عن الـرَّدى، يُحيون بكتـاب الله تعالى الموتى، وبسنّة رسول الله ﷺ أهل الجهالة والرَّدى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيَوه، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هدَوه، فما أحسنَ آثارهم على الناس، ينفون من دين الله عز وجل تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الضَّالين، الذين عقدوا ألوية البدَع، وأطلقوا عِنان الفتنة، يقولون على الله وفي الله ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ وفي كتابه بغير علم، فنعوذ بالله من كل فتنة مُضِلَّة، وصلى الله على محمد.

أمَّا بعد، وفَّقنا الله وإياكم لما فيه طاعتُه، وجنَّبنا وإياكم ما فيه سخطه، واستعملنا وإياكم عمل العارفين به، الخـائفين منه، إنـه المسؤول عن ذلك:

أوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم، ولزوم السنّة، فقد علمتم ما

---

(1) هذه الرسالة بتمامها من طبقات الحنابلة لأبي الحسين محمد بن أبي يعلى الفراء ج ٣٤١/١.

حلّ بمن خالفها، وما جاء فيمن اتبعها. بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل ليُدخل العبد الجنة بالسنّة يتمسك بها» فآمركم ألا تؤثروا على القرآن شيئاً، فإنه كلام الله عز وجل، وما تكلم الله به فليس بمخلوق، وما أخبر به عن القرون الماضية، فغير مخلوق، وما في اللوح المحفوظ، وما في المصاحف، وتلاوة الناس وكيفما قرىء، وكيفما يُوصف، فهو كلام الله غير مخلوق، فمن قال: مخلوق، فهو كافر بالله العظيم، ومن لم يُكَفِّرْه فهو كافر.

ثم من بعد كتاب الله: سنّة النبي ﷺ والحديث عنه، وعن المهديين أصحاب النبي ﷺ، والتصديق بما جاءت به الرسُل، واتباع سنّة النجاة. وهي التي نقلها أهل العلم كابراً عن كابر.

واحذروا رأي جهم، فإنه صاحبُ رأيٍ وكلامٍ وخصومات، فقد أجمعَ مَن أدركنا من أهل العلم: أن الجهميةَ افترقت ثلاثَ فرق: فقالت طائفةٌ منهم: القرآن كلامُ الله مخلوق، وقالت طائفة: القرآن كلام الله وسكتت، وهي الواقفة الملعونة، وقال بعضهم: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة. فكل هؤلاء جهميةٌ كفّار، يُستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا. وأجمع من أدركنا من أهل العلم أنَّ مَنْ هذه مقالتُه إن لم يتب لم يُناكَح، ولا يجوز قضاؤه، ولا تؤكل ذبيحته[1].

والإيمان قول وعمل يزيد وينقص: زيادته إذا أحسنْتَ، ونقصانه إذا أسأتَ، ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام شيءٌ إلا الشرك بالله العظيم، أو بردِّ فريضة من فرائض الله عز

---

(١) وأظن أن في قوله هذا بعضَ المبالغة، فليست الواقفة ولا من يقول: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة جهميةً كفاراً، فكثير من كبار العلماء يرون هذا الرأي، ولا يستحسن القفز إلى التكفير بمثل هذا الخلاف.

وجل جاحداً بها، فإن تركها كسلاً أو تهاوناً كان في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

وأمّا المعتزلة: فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم أنهم يُكفِّرون[1] بالذنب، ومن كان منهم كذلك فقد زعم أن آدم كان كافراً، وأنَّ إخوة يوسف حين كذبوا أباهم يعقوب كانوا كفاراً. وأجمعت المعتزلة أن من سرق حبة فهو كافرٌ تبين منه امرأته، ويستأنف الحج إن كان حجَّ.

فهؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة كفار، ولا يُناكَحون، ولا تُقبل شهادتُهم[2].

وأما الرافضة فقد أجمع من أدْركنا من أهل العلم: أنهم قالوا: إن عليَّ بن أبي طالب أفضل من أبي بكر الصديق وإن إسلام علي كان أقدم من إسلام أبي بكر[3]. فمن زعم أن علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر فقد ردَّ الكتاب والسنّة لقول الله عز وجل: ﴿محمد رسول الله والذين معه﴾[4] فقدَّم الله أبا بكر بعد النبي ﷺ وقال النبي ﷺ: «لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتَّخذت أبا بكرٍ خليلاً، ولكنَّ الله قد اتخذ صاحبكم خليلاً ولا نبيَّ بعدي»؛ فمن زعم أن إسلام عليّ أقدم من إسلام أبي بكر فقد كذب[5]، لأن أول من أسلم: عبدُ الله بن عثمان

---

(١) المعروف عن المعتزلة أنهم لا يكفرون بالذنب، وإنما يقولون: مرتكب الكبيرة له منزلةٌ بين المنزلتين ولكنه مخلَّد بالنار، ولعل الإمام أحمد إنما اعتبر النتيجة، والذين يقولون بالتكفير صراحة لمرتكب الكبيرة، هم الخوارج.

(٢) أقول: وتكفير المعتزلة بما ذهبوا إليه لا يقره أكثر العلماء.

(٣) ليت الأمر وقف عند هذا الحد.

(٤) يريد الإمام: أي في الغار.

(٥) لا، لم يكذب فعند الكثير أن علياً أسلم قبل الناس جميعاً، لأنه في بيت =

عتيق أبو بكر ابن أبي قحافة، وهو يومئذٍ ابن خمس وثلاثين سنة وعلي ابن سبع سنين، لم تجرِ عليه الأحكام والفرائض والحدود.

ونؤمن بالقضاء والقدر خيرِه وشرّه وحلوه ومرّه، وأن الله خلق الجنة قبل الخلق، وخلق لها أهلاً، ونعيمها دائم، ومن زعم أنه يبيد من الجنة شيء فهو كافر. وخلق النار قبل خلق الخلق وخلق لها أهلاً، وعذابها دائمٌ. وأن أهل الجنة يرون ربَّهم لا محالة، وأنَّ الله يُخرج أقواماً من النار بشفاعة محمد ﷺ، وأن الله كلَّم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، والصراط حق، والميزان حق، والأنبياء حق، وعيسى ابن مريم رسول الله وكلمته، والإيمان بالحوض والشفاعة، والإيمان بمنكر ونكير وعذاب القبر، والإيمان بملك الموت يقبض الأرواح، ثم تُردُّ في الأجساد في القبور، فيُسألون عن الإيمان والتوحيد، والإيمان بالنفخ في الصور - والصور: قرْن ينفخ فيه إسرافيل - وأن القبر الذي في المدينة: قبر محمد ﷺ معه أبو بكر وعمر، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن.

والدَّجال خارجٌ في هذه الأمة لا محالة، وينزل عيسى ابن مريم، فيقتله بباب لدٍّ.

وما أنكرت العلماء من التشبيه فهو منكر، واحذروا البدع كلَّها.

ولا عينٌ نظرت بعد النبي ﷺ خيراً من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولا بعد أبي بكر عينٌ نظرت خيراً من عمر، ولا بعد عمر عينٌ نظرت خيراً من عثمان، ولا بعد عثمان بن عفان عينٌ نظرت خيراً من علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

= النبوة، ولكنه كان صغيراً وأبو بكر رضي الله عنه كان كهلاً وله مكانة وجاه وحكمة وتجربة وعقل.

قال أحمد: هم - والله - الخلفاء الراشدون المهديّون.

وأن نشهد للعشرة بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وأبو عبيدة عامر بن الجراح. ومن شهد النبي ﷺ له بالجنة شهدنا له بالجنة، ورفع اليدين في الصلاة زيادة في الحسنات، والجهر بـ «آمين» عند قول الإمام (ولا الضالين).

والصلاة على من مات من أهل هذه القبلة، وحسابهم على الله عز وجل، والخروج مع كل إمام في غزوه وحجه والصلاة خلفهم صلاة الجماعة والجمعة والعيدين.

والكف عن مساوىء أصحاب رسول الله ﷺ؛ تحدثوا بفضائلهم، وأمسكوا عما شجر بينهم، ولا تشاور أحداً من أهل البدع في دينك، ولا ترافقه في سفرك، ولا نكاح إلاَّ بوليٍّ وخاطب، وشاهدَيْ عدل. والمتعة حرام إلى يوم القيامة.

ومن طلَّق ثلاثاً في لفظ واحد فقد جهل، وحرمت عليه زوجته، ولا تحلُّ له أبداً حتى تنكح زوجاً غيره، والتكبير على الجنائز أربع، فإن كبر خمساً فكبر معه؛ قال ابن مسعود: «كبِّر ما كبَّر إمامك»، قال أحمد: خالفني الشافعي، وقال: إن زاد على أربع تكبيرات أعاد الصلاة، واحتج عليٌّ بأن النبي ﷺ صلَّى على النجاشي فكبر عليه أربع تكبيرات.

والمسح على الخفين للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن، وللمقيم يوماً وليلة. وإذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تركع ركعتين تحية المسجد. والوتر ركعة. والإقامة فُرادى.

أحبُّوا أهل السنّة على ما كان منهم. أماتنا الله وإياكم على السنّة

والجماعة، ورزقنا الله وإياكم اتباع العلم، ووفقنا وإياكم لما يُحبُّه ويرضاه».

هذا هو نص كتاب الإمام أحمد إلى مسدَّد بن مُسَرْهد؛ وهو ملخص ما عليه الإمام من عقيدة. وأما ما فيه من التكفير لمن يقول بخلق القرآن، أو تكفير الواقفة في بعض أقواله، أو لعن المخالفين، فهو رأي الإمام الصريح الذي لا يبالي أن يجهر به، والإمام مجتهد يقول ما يقول وهو متحمل لمسؤوليته.

أما أئمة الكلام من بعد القرن الرابع، وأئمة الفقه، فلا يرون تكفير أحد من أهل القبلة، ولا يجرؤون على ذلك، وعندهم أن الفريق الآخر اجتهد، فإن عرف الخطأ وأصر عليه فسَّقوه، إلا أن ينكر أصلاً من الأصول المعلومة من الدين بالضرورة فيكفر، وإن لم يتعمد وانتهى به اجتهاد إلى خطأ لم يُفسَّق إذا لم نعترف له بأجر ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[1].

أما إمام الأشاعرة أبو الحسن الأشعري، فقد وافق الإمام أحمد في أكثر ما أتينا على ذكره من قبل؛ وستجد نموذجاً من ذلك فيما يأتي:

الأشعري يقول بما يقول به الإمام أحمد، ويخالف ما يخالف:

يقول إمام المتكلِّمين الشيخ الكبير أبو الحسن الأشعري[2]: «فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرِّفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

(١) النساء «٤٨».

(٢) الإبانة ٨.

قيل لهم: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسكُ بكتاب ربنا عز وجل، وبسنّة نبينا عليه السلام، وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدَّم، وخليل معظَّم مفخَّم».

عرض الأشعري لأقوال المخالفين وبيان عقيدته:

يقول الأشعري رحمه الله في مجال عرض بعض آراء المخالفين من المعتزلة وغيرهم ما نصه[1]: «ودفعوا أن يكون لله وجه مع قوله عز وجل: ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[2]، وأنكروا أن يكون له يدان مع قوله: ﴿ لِما خلقتُ بيَديَّ ﴾[3]، وأنكروا أن يكون له عينان مع قوله: ﴿ تجري بأعيننا ﴾[4]» إلى أن قال بعد سطر: «ونَفَوا ما روي عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا» وغير ذلك مما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ».

وبيَّن عقيدته بما تقدم إلى أن قال: «وجملة قولنا: إنا نُقِر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاءوا به من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نرد من ذلك شيئاً، وأن الله عز وجل إله واحد، لا إله إلا هو فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده

---

(١) الإبانة ٧.

(٢) الرحمن «٢٧».

(٣) ص «٧٥».

(٤) القمر «١٤».

ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله مستوٍ على عرشه كما قال: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[1]. وأن له وجهاً كما قال: ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾. وأن له يدين بلا كيف، كما قال: ﴿ خلقت بيديَّ ﴾، وكما قال: ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾[2]. وأن له عينين بلا كيف، كما قال: ﴿ تجري بأعيننا ﴾. ونثبت لله السمع والبصر، ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج».

كلام الله غير مخلوق:

إلى أن قال: «ونقول: إن كلام الله غيرُ مخلوق، وأنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له: كُن، كما قال: ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[3]، إلى أن قال: ونقول: إن كلام الله غيرُ مخلوق وإن من قال بخلق القرآن فهو كافر»[4] إهـ. وسيأتي في بحث المحنة إن شاء الله بعض كلامه في القرآن الكريم.

ويقول ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري» بمناسبة موافقة آراء الإمام الأشعري في العقائد لآراء الإمام أحمد ودفاعه عنه. يقول ما يلي:

فتأملوا ـ رحمكم الله ـ هذا الاعتقاد ما أوضحه وأبينه، واعترفوا بفضل هذا الإمام العالم الذي شرحه وبينه، وانظروا سهولة لفظه فما

---

(١) طه «٢٠».

(٢) المائدة «٦٤».

(٣) النحل «٤٠».

(٤) الإبانة ٩.

أفصحه وأحسنه، وكونوا ممن قال الله فيهم ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وتبينوا فضل أبي الحسن واعرفوا إنصافه، واسمعوا وصفه لأحمد - أي ابن حنبل - بالفضل واعترافه، لتعلموا أنهما كانا في الاعتقاد متفقين، وفي أصول الدين ومذهب السنّة غير مفترقين، ولم تزل الحنابلة ببغداد في قديم الدهر على ممر الأوقات تعتضد بالأشعرية على أصحاب البدع، لأنهم المتكلمون من أهل الإثبات. فمن تكلم منهم في الرد على مبتدع فبلسان الأشعرية يتكلم، ومن حقق منهم في الأصول في مسألة فمنهم يتعلم، فلم يزالوا كذلك حتى حدث الاختلاف في زمن أبي نصر القشيري[1].. إلخ.

(١) «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر ١٦٣.

قصة محنة خلق القرآن

مقدمة:

نزل كتاب الله تعالى على رسوله صلوات الله وسلامه عليه فصدع بما يؤمر وبشر به وأنذر؛ فحفظه الصحابة بقلوبهم وعقولهم، ووَعوه وعيَ من سُحر ببيانه، وقوة برهانه، وعجيب نسقه، وسموٍّ روحه وروعة توحيده، ودقة أحكامه، وعظيم أخلاقه، وبديع قصصه وفهموه كما يجب أن يفهمه العربي لكلام عربي: ﴿ أحكمت آياتُه ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير ﴾[1].

وشُغِلوا بحفظه، ثم بفهمه والعمل بدقيقه وجليله، على قدر ما يستطيعون، ولم يستوقفهم تعبير أو كلمة أو فكرة، بل مضوا فيه يقررونه ويفهمونه على مقتضى ما عَرفوا من دَلالات الكلمات والتعابير على وجهها الحقيقي، فإن استحال بطبعهم العربي أن يفهموا النص على حقيقة مَدلول كلٍّ كلمة وتعبير؛ عرفوا أنه يسلك للحقيقة طريق الإثارة والتشويق والافتنان قبل أن يعرف الناس المجاز والاستعارة والكناية بزمن بعيد.

وإذا توقفوا في فهم شيء مما هو من المتشابه، ولم تستطع أفهامُهم

(١) هود «١».

أن تدرك المراد منه تركوه على ظاهره، وفوضوا حقيقة معناه ومراده إلى الله سبحانه؛ مؤمنين مستسلمين لقوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُن أمُّ الكتاب، وأخر متشابهات؛ فأما الذين في قلوبهم زَيْغ فيتبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به، كل من عند ربنا. وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾[1].

هكذا كان شأن السلف من الصحابة والتابعين شغلوا من كتاب الله بالعمل عن الجدل. وامتد الإسلام، وكثرت الفتوحات في الشرق والغرب، ودخلت أفكار وفلسفات وعقائد كانت من أسباب تفرق المسلمين مذاهب ونحلاً، شغلت كثيراً من الناس بالجدل عن العمل فأُهملت القلوب، واستكبرت العقول، فتطاولت على كل شيء، فبالغت في التفكير بذات الله وتقليب الرأي بصفاته، وهو خالقها سبحانه!! واستعانت على ذلك بآراء الفلاسفة؛ ومن هذه المذاهب الاعتزال.

وإذا كان المعتزلة قد وقفوا بصلابة ضد أعداء الإسلام، وتحدوا في العالم كلَّ من أراد أن ينال من الإسلام، بكتابه، أو برسوله؛ ولهم بذلك جولات تذهل اللب وترضي الرب.

وإذا كانوا أيضاً قد ضربوا في الأرض حتى السوس الأقصى، ينشرون الإسلام، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإذا كانوا في الذروة من الفصاحة وحسن البيان، وقوة العارضة، وفلج الخصوم، والبراعة في استخدام العقل. إذا كانوا كذلك، فقد كانوا ـ مع هذه الصفات المحمودة ـ سبباً في إضعاف اليقين بالإيمان بالغيب، وفي

(١) آل عمران «٧».

العبث بسلامة الفطرة، وفي إخضاع الروح العالي في الدين إلى المناقشة. ولقد جعلوا مبادئهم الدينية العقلية أساساً لكل بحث أو مناظرة، فإذا جاء النص من كتاب الله أو سنّة رسول الله أرهقوه تأويلاً حتى ينسجم مع ما عقلوه وأصلوه.

ولما أتيح للمعتزلة أن تدنو من الخلفاء العباسيين في أوائل حكمهم، وصاروا منهم في موضع من التقدير، والإعجاب بفصاحتهم وعقولهم وحسن تأتّيهم؛ نشطوا في بث دعوتهم في حدود أمَنَةٍ لا تثير الخلفاء ولا تسخطهم، لما كانوا عليه من التمسك بالسنّة، منتظرين فرصة ما تعرض لهم. حتى جاء الخليفة المأمون ـ وهو الفرصة الثمينة ـ فأحاطوا به، وما أسرع ما استهووه إلى نحلتهم، فقد كان قبل ينظر في كتب الأوائل، ولبثوا يوقدون في نفسه الحماس لها وحمل الناس عليها؛ حتى كانت المحنة وسيأتيك تفصيل ذلك.

أول من قال بخلق القرآن:

أول من أظهر هذه النحلة الجعدُ بن درهم، وجعد هذا كما قال الذهبي في ميزان الاعتدال: مبتدعٍ ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى[1].

وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة، منها أنه[2] جعل في قارورة تراباً وماءً، فاستحال دوداً وهَوَامَّ، فقال: أنا خلقت هذا، لأني كنت سببَ كونه، فبلغ ذلك جعفر بن محمد فقال: ليقل: كم هي؟ وكم الذكران منها والإناث؟ إن كان خلقه. وقد أظهر الجعد[3] مقالته بخلق القرآن

(١) الميزان ٣٩٩/١.
(٢) لسان الميزان ١٠٥/٢.
(٣) الكامل لابن الأثير ٢٦٣/٥.

أيامَ هشام بن عبد الملك، فأخذه هشام وأرسله إلى خالد القسري، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد ولم يقتله، فبلغ الخبر هشاماً، فكتب إلى خالد يلومُه ويعزمُ عليه أن يقتله، فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه، فلما صلى العيد يوم الأضحى قال في آخر خطبته: انصرفوا وضحُّوا يقبلِ الله منكم، فإني أريد أن أضحِّي اليوم بالجعد بن درهم، ونزل وذبحه.

وكان مروان[1] يلقب بالحمار وبالجَعْدي لأنه تعلم من الجعد ابن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقَدَر وغير ذلك، وكان الناس يذمُّون مروان بنسبته إليه؛ بقولهم الجعدي. وأخذ جَهْم بن صفوان هذا القول عن الجعد بن درهم، وكان يجد له صدى في نفسه. ويقال: إن جهماً أخذ عن الجعد، والجعد عن أبان بن سمعان، عن طالوت، عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، والله أعلم بهذا السند فليس فيهم واحد يمكن أن يوثق به. ووافق[2] المعتزلةَ في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء منها قوله: لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصفَ بها خلقُه، لأن ذلك يَقتضي تشبيهاً، فنفى كونه حياً عالماً، وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً، وجهم هذا من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ وفي نفي الصفات يتشابه المعتزلة والجهمية.

وفي كتاب الأوائل[3]: أول ما اختلف الناس في خلق القرآن أيام أبي حنيفة، فسئل عن ذلك أبو يوسف، فأبى أن يقول: إنه مخلوق،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥/٤٢٩.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني هامش الفصل ١/١٠٩.

(٣) لأبي هلال العسكري ٢/١٢٦.

وسئل عنه أبو حنيفة فقال: إنه مخلوق، لأن من قال: «والقرآنِ لا أفعل كذا» فقد حلف بغير الله، وكل ما هو غير الله فهو مخلوق، فأخرجها من طريقته في الفقه، وأجاب عليها على مذهبه. ولكن المنقول عنه أنه قال: «ما بالله غير مخلوق، وما بالخلق مخلوق» يريد أن كلام الله باعتبار قيامه بالله صفة له، كباقي الصفات في القدم، وأما (ما) في أَلْسِنة التالين وأذهان الحفاظ والمصاحف من الأصوات والصور الذهنية فهو مخلوق.

وفي شرح العقيدة الطحاوية للغنيمي[1] عن أبي يوسف أنه قال: كنت عند أبي حنيفة إذ دخل عليه جماعة في أيديهم رجلان فقالوا: إن أحد هذين يقول: إن القرآن مخلوق والآخر ينازعه ويقول: القرآن غير مخلوق، فقال: لا تصلوا خلفهما؛ فقلت: أما الذي يقول القرآن مخلوق فنعم، لأنه لا يقول بقدم القرآن، وأما الآخر فما باله لا يُصلى خلفه؟ قال: إنهما تنازعا في الدين، والمنازعة في الدين بدعة.

ومن الذين سبقوا إلى القول بخلق القرآن: بشر بن غياث المرِّيسي[2] الفقيه الحنفي المتكلم، أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف الحنفي إلا أنه اشتغل بالكلام وجرَّد القول بخلق القرآن. وحُكي عنه في ذلك أقوالٌ شنيعة، وكان مُرْجئاً، وإليه تنسب الطائفة المَرِّيسِيَّة، وكان يقول: السجود للشمس والقمر ليس بكفر، ولكنه علامة الكفر. ويقال: إن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة.

ولخوفه من بطش هارون الرشيد أخفى نحلته حياةَ الرشيد، فلما أتى عهد المأمون بعد الأمين أظهر القول بخلق القرآن بعناد وجرأة على

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١١٤.

(٢) وفيات الأعيان ١/١١٣ الأميرية.

الله، وكان من الذين لهم أثر على عقيدة المأمون، مع أنه كان يلحَن لحناً فاحشاً، لأنه كان لا يعرف النحو.

أصل قول المعتزلة بخلق القرآن:

للمعتزلة أصول خمسة أجمعوا عليها[1]، وهي:

١ ـ التوحيد.

٢ ـ العدل.

٣ ـ الوعد والوعيد.

٤ ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين.

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والذي يعنينا هنا الأصل الأول وهو «التوحيد» وللمعتزلة قول في التوحيد مجمع عليه منهم، نقله أبو الحسن الأشعري شيخُ الأشاعرة وإليك نصه:

«أجمعت المعتزلة على أن الله واحد، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وليس بجسم، ولا شَبَح، ولا جُثة، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم، ولا رائحة، ولا مَجَسَّةٍ، ولا بذي حَرارة، ولا رطوبة، ولا يُبوسة، ولا طول ٍ ولا عرض ولا عمق» ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن، ولا يتبعض، وليس بذي أبعاض وأجزاء، وجوارح وأعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين وشمال، وأمام وخلف، وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان، ولا يجري عليه زمان، ولا تجوز عليه المماسَّة ولا العُزلة ولا الحلول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، ولا يوصف بأنه مُتناه، ولا

---

(١) مقالات الإسلاميين ١/٢٣٥.

يوصف بمساحة، ولا ذهاب في الجهات، وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الحواس، ولا يقاس بالناس، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه، ولا تجري عليه الآفات، ولا تحل به العاهات، وكل ما خطر بالبال وتصوُّرٌ بالوهم فغير مُشبِه له، لم يزل أزلاً أولاً سابقاً للمُحدَثات، مَوْجوداً قبل المخلوقات، ولم يزل عالماً قادراً حياً، ولا يزال كذلك، لا تراه العيون، ولا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأوهام، ولا يسمع بالأسماع، شيءٌ لا كالأشياء، عالم قادر حي لا كالعلماء القادرين الأحياء، وأنه القديم وحده، ولا قديم غيره، ولا إله سواه، ولا شريك له في ملكه، ولا وزير له في سلطانه، ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق، لم يخلق الخلق على مِثال سبق، وليس خلقُ شيء بأهونَ عليه من خلق شيء آخر، ولا بأصعب عليه منه، ولا يجوز عليه اجترار المنافع، ولا تلحقه المضار، ولا يناله السرور واللذات، ولا يصل إليه الأذى والآلام، ليس بذي غاية فيتناهى، ولا يجوز عليه الفناء، ولا يلحقه العجز والنقص، تقدس عن ملامسة النساء، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء».

هذا كلام جميل متناسق في حق الله سبحانه، ولو أن هذه المبالغة في التنزيه تكاد تشعر المدقق، أنهم بهذا النفي المستأصل جعلوا من الإله شيئاً كأنه لا شيء، أو جعلوا منه فكرة مثالية؛ فهم إن آمنوا بوجوده، فقد نفوا صفاته، وإن قالوا: عالم قادر، فإنهم يريدون عالم بذاته لا بصفة له قديمة، فهو سبحانه القديم وحده ولا قديم غيره، ولا إله سواه ـ كما تقدم ـ يريدون بذلك أنه ليس له صفات قديمة، وإنما هو وحده القديم.

يقول البغدادي[1]:

يجمعها كلها - أي فِرَق المعتزلة - أمور منها: نفيها كلِّها عن الله عز وجل صفاته الأزلية، وقولها بأنه ليس لله عز وجلّ علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر[2]، ولا صفة أزلية. وزادوا على هذا قولهم: إن الله تعالى لم يكن له في الأزل اسمٌ ولا صِفة. ومنها اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجل، وحدوثِ أمره ونَهيه وخَبره، وأكثرهم يُسمون كلام الله مخلوقاً، وهذا كله تابعٌ لما يسمونه التوحيد، الذي من لوازمه نفي الصفات، ومن نفي الصفات، نفوا أنه متكلم، على ما ذهبوا إليه، ومن هنا قال المعتزلة: القرآن مخلوق.

وتصدى لذلك أهل الحديث والسنّة وعلماء الكلام، وكانت الفتنة والمحنة، وانقسم العلماء في هذا المسألة إلى ثلاثة فرق: المعتزلة وعلماء الكلام والمحدِّثون؛ وإليك التفصيل مع أدلة كل منهم:

موجز أدلة المعتزلة:

للمعتزلة أدلة عقلية ونقلية، فمن أدلتهم العقلية قولهم: إذا قلنا إن القرآن كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، والله وصفاته وحدة لا تنفصل، إذا قلنا ذلك فقد وقعنا في المحال، ذلك لأن القرآن إذا كان أزلياً، وهو صفة من صفات الله، فكيف نقول بما فيه من الأوامر والنواهي، والأوامر والنواهي لا قيمة لها ما لم تصادف مأمورين ومنهيين، ولم يكن في الأزل مأمورون ومنهيون[3].

---

(١) الفرق بين الفرق ٩٣.

(٢) أي ينفون هذه الصفات على أنها غيره وقديمة مثله، وإنما يقولون عن صفاته إنها هو، وهو هي.

(٣) الشافعي للمؤلف ٢٢٩.

ولقد أجمع المسلمون على أن القرآن كلام الله، وعلى أنه سورٌ وآيات وحروف منتظمة، وكلمات مجموعة، وهي مقروءة مسموعة، ولها مُفتَتح ومُختتم، وهو بَيّن أيدينا نقرأه بألسنتنا، ونحِسه بأيدينا ونبصره بأعيننا ونسمعه بآذاننا، ومحالٌ أن يكون هذا كلُّه وصفاً لصفة الله، فالكلام الأزلي لا يوصَف بمثلِ هذه الأوصاف.

أما أدلتهم النقلية: فمنها أن الله تعالى يقول: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾[1] وإذ ظرف لما مضى من الزمان، فيكون قوله الواقعُ في هذا الظرف مختصاً بزمان مُعيَّن، والمختص بزمان مُحدَث. ومنها قوله تعالى: ﴿ حتى يَسمَع كلام الله ﴾[2] والمسموع حادث لأنه لا يكون إلا حَرْفاً. ومنها قوله تعالى: ﴿ ما نَنسخْ من آيةٍ أو ننسها نأتِ بخير منها ﴾[3] ولا يُتصور النسخُ إلا في الحادث.

وقالوا: إذا استحال أن يكون القرآن وكلُّ الكتب المنزلة قديمةً وجب أن نقول: إنها مخلوقةٌ لله، فكلام الله عبارةٌ عن أصوات وحروف يَخْلقها الله في غيره فتصل إلى النبي ﷺ عن طريق مَلَك ونحوه كما قال تعالى: ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسلَ رسولاً، فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾[4] فهذه ثلاث طرق في الكلام، أولاها: طريقة الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، كما أوحى إلى أمِّ موسى. وثانيتها: أن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يُبصر السامعُ من يكلِّمه؛ كما كلَّم موسى،

---

(١) البقرة «٣٠».

(٢) التوبة «٦».

(٣) البقرة «١٠٦».

(٤) الشورى «٥١».

وكما كلَّم الملائكة، وثالثتها أن يرسل الأنبياء والرسل يكلِّمون أمَمهم عن الله[1].

قالوا: والقرآن نوع من الكلام الذي يخلقه الله، وأما قوله تعالى: ﴿ وكلَّم الله موسى تكليماً ﴾[2] أي خلقه وأحدثه في الشجرة[3]، وإنما سمِّي كلام الله لأنه خلقُ الله من غير واسطة، وهذا هو الفرق بينه وبين كلامنا، فكلامُنا وألفاظُنا تنسب إلينا، وأما القرآن فخلق الله مُباشرة. والحروف التي نكتبها في الصحف أو ننطق بها من صنعنا، وإنما وجب لها التعظيم لأنها دالة على المخلوق لله.

وإذن معنى كَونه متكلماً أنه خالقُ الكلام وفاعله، فإن الكلام ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فِعلاً يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه، فالله بهذا المعنى متكلم، أي فاعل ما يدل به المخاطب على ما يريد، والمفعول والمجعول مخلوق؛ وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾[4].

هذه مجملُ أدلَّتهم العقلية والنقلية.

وقال بذلك كثير من الفرق غير المعتزلة: منهم الجهمية أتباع جهم ابن صفوان من صغار التابعين[5]، والخوارج جميعاً يقولون بخلق

---

(١) من تفسير الزمخشري.

(٢) النساء «٦٣».

(٣) وهذا التأويل تحكم ولا دليل عليه. بل الظاهر أنه كلَّمه حقيقة فالتأكيد بقوله «تكليماً» يدفع المجاز، ومن التمحل أن يقال: في «كلَّم» خلق الكلام.

(٤) الزخرف «٣».

(٥) وقال عنه الذهبي: أبو محرز السمرقندي الضال المبتدع رأس الجهمية، وقتل في خروجه على أمراء خراسان سنة ١٢٢.

القرآن[1]، وبعض المرجئة[2].

رد الأشاعرة من المتكلمين:

يقولون ما معناه: إن كلام الله صفة له، وكل ما هو صفة له فهو قديم؛ فكلام الله قديم ولكن أي كلامٍ قديم يُنسبِ إلى الله؟ أهو الذي بالصوت والحروف والكتابة وغير ذلك، أم غيره؟ يبين ذلك أبو الحسن الأشعري شيخ علماء الكلام[3] من الأشاعرة فيقول: كلام الله يطلق إطلاقين كما هو الشأن في الإنسان، فالإنسان يُسمَّى متكلماً باعتبارين: أحدهما بالصوت، والآخر بكلام النفس الذي ليس بصوتٍ ولا حرف، وهو المعنى القائم بالنفس، هو الذي يعبر عنه بالألفاظ. فإذا انتقلنا من الإنسان إلى الله رأينا أن كلامه تعالى يطلق بهذين الإطلاقين: المعنى النفسي: وهو القائم بذاته تعالى، وهو الأزلي القديم، وهو الذي لا يتغير بتغير العبارات، ولا يختلف باختلاف الدلالات، وهذا هو الذي نريده إذا وصفنا كلام الله بالقدم، وهو الذي يطلق عليه كلام الله حقيقة. أما القرآن ـ بمعنى المقروء المكتوب ـ فهو بلا شك كما يقول المعتزلة حادث مخلوق، فإن كل كلمة تقرأ تنقضي بالنطق بما بعدها، فكل كلمة حادثة، فكذا المجموع المركب منها، ويطلق على هذا المقروء المكتوب «كلام الله» مجازاً[4].

واستشهدوا على الكلام النفسي في قوله تعالى: ﴿ فأسرَّها يوسفُ في نفسه ولم يُبدها لهم ﴾[5]، وفي الحديث أنها سمعت رسول الله

---

(١) مقالات الإسلاميين ٢٠٣.

(٢) نفس المصدر ٢٣٣.

(٣) توفي سنة ٣٣٠ هـ.

(٤) ضحى الإسلام ٣/٤٠ ـ ٤١.

(٥) يوسف «٧٧».

وقد سأله رجل فقال: إني لأحدِّث نفسي بالشيء لو تكلمت به لأحبطت أجري، فقال ﷺ: لا يلقى ذلك الكلام إلا مؤمن.. إلخ.

وبهذا التقوا مع المعتزلة بنصف الطريق، ومع ذلك لم يقرُّ لهم المعتزلة بهذا الكلام النفسي؛ قال صاحب المواقف[1] ـ وهو يتكلم بلسان الأشاعرة ـ بعد كلام: «إذا عرفت هذا فاعلم أن ما يقوله المعتزلة في كلام الله تعالى، وهو خلق الأصوات والحروف الدالة على المعاني المقصودة، وكونها حادثة قائمة بغير ذاته تعالى نحن نقول به، ولا نزاع بيننا وبينهم فيه، وما نقوله نحن: كلام النفس المغاير لسائر الصفات فهم ينكرون ثبوته، ولو سلَّموه لم ينفوا قدمه، فصار كلُّ النزاع نفيَ المعنى النفسي أو إثباته».

أما شيخ المتكليمن أبو الحسن الأشعري فقد ردّ على زعم المعتزلة والجهمية بمسألة خلق القرآن ردوداً من كتاب الله فيها من بارع الحجة وقوة المنطق ما لا يسع مريد الحق أن يكابر فيها، وهي مناقشات طويلة نجتزىء منها بعض ما جاء في الإبانة[2]:

يقول ـ رحمه الله ـ (دليل آخر): وقال الله عز وجل: ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لَنَفِد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾[3]؛ فلو كانت البحار مداداً كتبت لنفدت البحار، وتكسرت الأقلام ولم يلحق الفناء كلمات ربي، كما لا يلحق الفناء علمَ الله عز وجل، ومن فني كلامه لحقته الآفات وجرى عليه السكوت، فلما لم يجز ذلك على ربنا عز وجل صح أنه لم يزل متكلماً لأنه لو لم يكن متكلماً وجب

---

(١) المواقف ٣/٧٩.
(٢) الإبانة ٢٣ ـ ٤٢.
(٣) الكهف «١٠٩».

السكوت والآفات، وتعالى ربنا عن قول الجهمية علواً كبيراً.

و (دليل آخر): ومما يدل من كتاب الله على أن كلامه غير مخلوق قوله عز وجل: ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[1]؛ ولو كان الله عز وجل قائلا للقول: كن، كان للقول قولٌ، وهذا يوجب أحد أمرين: إما أن يؤول الأمر إلى أن قول الله غير مخلوق، أو يكون كل قول واقع بقول، لا إلى غاية، وذلك محال، وإذا استحال ذلك صح وثبت أن لله عز وجل قولاً غير مخلوق.

وقال رحمه الله: واعلموا رحمكم الله أن قول الجهمية أن كلام الله مخلوق يلزمهم به أن يكون الله عز وجل لم يزل كالأصنام التي لا تنطق ولا تتكلم، لو كان لم يزل غير متكلم، لأن الله عز وجل يخبر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: - لما قالوا ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾[2]؟ - قال: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾[3]؛ فاحتج عليهم بأن الأصنام إذا لم تكن ناطقة متكلمة لم تكن آلهة، وأن الإله لا يكون غير ناطق ولا متكلم.. إلخ.

مَوْقف السَّلف:

موقف السلف جميعاً من محدثين وفقهاء من زمن الصحابة هو أن المصدر الحقيقي لمعرفة الله وصفاته هو كتاب الله وسنّة رسول الله، فإذا ورد فيهما أمرٌ من ذلك ومن كل غيب اعتقدوا ظاهر ما ورد فيهما، وما يمكن أن يؤديه التعبير العربي. فالقوة واليقين والحجة القارعة هو الالتزام بما ورد، من غير تكلف لتأويل، بإخراج اللفظ عما وضع له، إلا إذا وضحت القرينة في المجاز، من غير سباحة في اليابسة،

---

(١) النحل «٤٠».
(٢ و ٣) الأنبياء «٦٢ و ٦٣».

بتسليط العقل فيما لا مراد له فيه: فإذا قال الله تعالى: ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ فقد كلَّمه حقيقة، بدليل قوله تعالى: تكليماً؛ فهو مصدر يراد به التوكيد، والتوكيد يرفع المجاز ويثبت الحقيقة. وبهذا يكون قد أثبت الله لنفسه كلاماً، ولو أراد الله من ذلك خلق الكلام في شجرة أو غيرها ـ كما تزعم المعتزلة والجهمية ـ لما أعجزه أن يؤدي ذلك بعبارة واضحة، بل أين الدليل اللفظي والمعنوي على خلق الكلام في الشجرة أو في غيرها؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾[1] فقد سماه الله تعالى: كلام الله، ولو شاء لقال: ما خلق الله من الكلام. وكلام الله من علمه سبحانه، وعلمه قديم فكلام الله قديم.

وأمر آخر هو أن أوعى الناس لكتاب الله وسنّة رسوله الصدر الأول من الصحابة ثم التابعين، ولم يُثر أحدٌ مسألة مما أثير بعدهم، ولم يؤثر عن النبي ﷺ معنىً من المعاني التي اخترعت من بعد. ومن المستحيل أن يكتم رسول الله ﷺ ما كان ينبغي أن يبلِّغه، وإنما كانوا يقرأونه بروائه ورونقه ونفوذه وقوة روحه، مؤمنين أصدق الإيمان بكل ما فيه من غير تأويل يخرجه عن ظاهره دون دليل، ولقد كان الإمام أحمد الناطق بلسان السلف والمجاهِر به في عصره وبعد عصره.

أما من قال من كبار العلماء والأئمة قبله: إن القرآن غير مخلوق، وإن من قال بخلقه كافر؛ فلا يحصون كثرة: منهم الحمّادان، والثوري، وعبد العزيز بن أبي سلمة، ومالك بن أنس والشافعي وأصحابه، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وهشام، وعيسى ابن يونس، وحفص بن غياث، وسعد بن عامر، وعبد الرحمن بن مهدي،

---

(١) التوبة (٦).

وأبو بكر بن عياش، ووكيع وأبو عاصم النبيل، ويعلى بن عبيد، ومحمد بن يوسف، وبشر بن المفضل، وعبد الله بن داود وأبو عبيد القاسم بن سلام، ويزيد بن هارون، وغيرهم. يقول الإمام الأشعري: ولو تتبعنا ذكر من يقول بذلك لطال الكلام بذكرهم. ثم قال: ولم نجد أحداً ممن تحمل عنه الآثار، وتنقل عنه الأخبار، ويأتم به المؤتمون من أهل العلم يقول بخلق القرآن؛ وإنما قال ذلك رَعاع الناس وجهَّال من جُهَّالهم لا موقع لقولهم[1].

بدء المحنة:

بقي الجدال حول هذه المواضيع قرناً كاملاً أو أكثر لم يتعدَّ أحد فيه البحثُ والمناظرة والردّ، ولم يتدخل أحد من الخلفاء في هذه الشؤون إلا من جاهر بالزندقة؛ فكان الخليفة يأتي به ويعرض عليه التوبة، فإن تاب سلم، وإلا قتل. ولم يكن في الخلفاء من بني أمية وبني العباس خليفةٌ إلا على مذهب السلف ومنهاجهم[2]، حتى إن هارون الرشيد كان يقول: بلغني أن بشراً المريسي زعم أن القرآن مخلوق، عليَّ إن أظفرني الله به لأقتلنَّه قِتلة ما قتلتها أحداً قطّ. وقال أيضاً: «بلغني أن بشرَ بن غياث ـ وهو المريسي ـ يقول: القرآن مخلوق، ولله عليَّ إن أظفرني الله به لأقتلنَّه قِتلة ما قتلتها أحداً». قال أحمد: فكان بشر متوارياً أيامَ هارون نحواً من عشرين سنة، حتى مات هارون، فظهر ودعا إلى الضلالة[3].

حتى جاء الخليفة المأمون الذي استحوذ عليه جماعة من المعتزلة،

---

(١) الإبانة ٣٩.

(٢) البداية والنهاية ١٠/٣٣٢.

(٣) المناقب ٣٠٨.

فأزاغوه عن طريق الحق، وجعلهم خاصته، وأخذ منهم علمهم وفلسفتهم وعقائدهم، وكان منها فكرةُ التوحيد التي أولدوها فكرة خلق القرآن، وما زالوا به يزينون له إعلان ذلك على الملأ، حتى أعلن سنة اثنتي عشرة القول بخلق القرآن؛ مضافاً إلى تفضيل عليّ على أبي بكر وعمر، فاشمأزت النفوس منه، وكاد البلد يفتتن[1] ولكنه في إعلانه هذا لم يُلزِم أحداً فيما أعلنه، وترك الناس أحراراً فيما يعتقدون إلى أن كانت سنة ثماني عشرة ومائتين.

المحنة:

وأعلن المأمون سنة ثماني عشرة حمل علماء الأمة على القول بخلق القرآن، وليس في علماء الأمة، وكبار محدثيها أحد يقول هذه المقالة.

يقول أحمد بن عمر بن عيسى[2] سمعت أبي يقول: ما رأيت مجلساً يجتمع فيه المشايخ أنبلَ من مشايخ اجتمعوا في مسجد الكوفة في وقت الامتحان، فقال أبو نعيم: أدركت ثمانمائة شيخ، ونيفاً وسبعين شيخاً، منهم الأعمش فمن دونه، ما رأيت خلقاً يقول بهذه المقالة ـ يعني مقالة خلق القرآن ـ ولا تكلّم أحد بهذه المقالة إلا رُمي بالزندقة، فقام أحمد بن يونس فقبّل رأس أبي نعيم وقال: جزاك الله عن الإسلام خيراً.

وقال محمد بن يونس: لما أدخل أبو نعيم على الوالي ليمتحنه قال: أدركت الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ ـ الأعمش فمن دونه ـ يقولون: القرآن كلام الله، وعنقي عندي أهونُ من زري هذا، فقام إليه

(١) تاريخ السيوطي ٢٠٥ والطبري ٦١٩/٨.
(٢) المناقب ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

أحمد بن يونس فقبل رأسه، وكان بينهما شحناء.

وهكذا دُعي هؤلاء الشيوخ وأمثالهم إلى الاستجابة لما يريده منهم المأمون، ومَن وراء المأمون، مِن القول بخلق القرآن، ومن أبى دُعي إلى مناظرة مُظلَّلَة بالسيف، مفروشة بالنطع والحديد، وحرية البحث مضمونة بالجلد، أو السجن، أو الموت الزؤام.

وكان ابتداء ذلك أن كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم - رئيس شرطة بغداد - بامتحان القضاة والمحدثين، وأمره بإشخاص جماعة منهم. وإليك أول كتاب كتبه:

«أما بعد: فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثْر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته[1]، والإقساطِ فيما ولّاه الله من رعيَّته برحمته ومنته.

وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسوادَ الأكبر من حَشْو الرعية، وسَفِلة العامة ممن لا نظر له ولا رويَّة ولا استدلال له بدلالَة الله وهدايته، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله، وعمىً عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه، وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حقَّ قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكُّر؛ وذلك أنهم ساوَوْا بينْ الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من

(١) الصريمة: العزيمة وقطع الأمر.

القرآن، فأطبقوا مجتمعين، واتفقوا غيرَ متعاجمين، على أنه قديم أوَّل لم يخلقه الله ويُحْدِثه ويخترعُه، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة وهدىً: ﴿ إنا جَعلناه قرآناً عربياً ﴾[1] فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال: ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور ﴾[2] وقال عز وجل: ﴿ كذلك نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق ﴾[3] فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها، وتلا به متقدمها وقال: ﴿ ألر، كتاب أحكمت آياته ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير ﴾[4] وكل محكم مفصَّل فله محكِم ومفصِّل، والله مُحكِم كتابه ومفصِّله؛ فهو خالقه ومبتدعه.

ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغَروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم سيء آرائهم، تزيناً بذلك عندهم، وتصنُّعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقُبلت بتزكيتهم لهم شهادتَهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم، ونَغَل أديمهم، وفساد نياتهم ويقينهم، وكان ذلك غايتهم التي إليها أجـرَوْا، وإياها طلبوا في

(١) الزخرف «٣».
(٢) الأنعام «١».
(٣) طه «٩٩».
(٤) هود «١».

متابعتهم، والكذب على مولاهم، وقد أُخذ عليهم ميثاق الكتاب ألَّا يقولوا على الله إلَّا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم، ﴿ أفلا يتدبَّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالُها ﴾[1].

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعيةُ الجهالة وأعلامُ الكذب، ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه من أهل دين الله، وأحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، لا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد، ومن عُمِي عن رشده وحَظِّه من الإيمان بالله وبتوحيده؛ كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلاً. ولَعَمرُ أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته، من كذب على الله ووحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه وبهت حق الله بباطله.

فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآن وإحداثه؛ وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلَّده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص[2] من يحضرهم

---

(١) سورة محمد «٢٤».
(٢) نصَّه: استقصى مسألته عن الشيء.

من الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يُقر أنه مخلوق مُحدَث ولم يَره، والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله».

وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين[1].

وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في إشخاص سبعة نفر، منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد ابن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل ابن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن إبراهيم الدَّورقي، فأشخصوا إليه، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً: إن القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق ابن إبراهيم دارَه، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون، فخلَّى سبيلهم، وكان ما فعل من ذلك إسحاق بن إبراهيم بأمر المأمون[2].

هذه هي الوجبة الأولى ممن نبه ذكرهم في العلم، وظاهر أنهم استجابوا لدعوة المأمون وأقروا بما جاء في كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم من القول بخلق القرآن. والأمر الذي لا مرية فيه أن أكثرهم - إن لم نقل جميعهم - إنما استجابوا خوفاً من سيف المأمون، أو السجن حتى الموت.

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٦٣١ - ٦٣٤.

(٢) تاريخ الطبري.

وإذْ قد رأى المأمون أن وعيده أثر وأفاد، فاستجاب النفر الذين طلبهم؛ فلا بد أن يكتب مرة أخرى، لاستدعاء من هم أنبه ذكراً من المحدثين والفقهاء.

وإليك الكتاب الثاني:

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم:

أما بعد: فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه وحَمَّلهم رعاية خلقه، وإمضاء حكمه وسنّته، والائتمام بعدله في بريته، أن يجهدوا لله أنفسَهم وينصحوا له فيما استحفظهم وقلَّدهم، ويَدلوا عليه ـ تبارك اسمه وتعالى ـ بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويَهدوا إليه من زاغ عنه، ويرُدوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم، ويقفوهم على حدود إيمانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم مُغطَّيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم، بما يدفعون الريب عنهم، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعاً لفنون مصانعهم، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا ما الله مُرصِد من مساءلتهم عما حُمِّلوه، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به.

ومما بينه أمير المؤمنين برويَّته، وطالعه بفكره، فتبيَّن عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وكْفِه وضرره، ما ينال المسلمين بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم، وأثراً من رسول الله ﷺ، وصفيه محمد ﷺ باقياً لهم، واشتباهه على كثير منهم، حتى حسن عندهم، وتزين في عقولهم، ألا يكون مخلوقاً. فتعرضوا بذلك

لدافع خلق الله الذي بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته التي لا يُبلغ أولاها، ولا يُدرك مداها، وإن كان كل شيء دونه خلقاً من خلقه، وحدثاً هو المحدِث له، وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه، وقاطعاً للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى في دعائهم في عيسى ابن مريم: إنه ليس بمخلوق إذ كان كلمة الله؛ والله عز وجل يقول: ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾[1] وتأويل ذلك: أنا خلقناه، كما قال جل جلاله: ﴿ وجعل منها زوجها ليسكُن إليها ﴾[2] وقال: ﴿ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾[3] ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[4]. فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة، وأخبر أنه جاعلُه وحدَه فقال: ﴿ بل هو قرآنٌ مجيدٌ. في لوح محفوظ ﴾[5] فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يُحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيه ﷺ: ﴿ لا تحرِّك به لسانَك لتَعجل به ﴾[6]، وقال: ﴿ ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم مُحدَث ﴾[7]، وقال: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾[8]، وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾[9]، ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟ ﴾[10]. فسمَّى الله تعالى القرآن قرآناً وذكراً، وإيماناً ونوراً، وهدى، ومباركاً، وعربياً، وقصصاً، فقال: ﴿ نحن نقص

---

(١) الزخرف «٣».
(٢) الأعراف «١٨٩».
(٣) سورة النبأ «١١».
(٤) الأنبياء «٣٠».
(٥) البروج «٢١ ـ ٢٢».
(٦) القيامة «١٦».
(٧) الأنبياء «٢».
(٨) الأنعام «٢١».
(٩ ـ ١٠) الأنعام «٩١».

عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾[1] وقال: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾[2]، وقال: ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾[3] وقال: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾[4] فجعل له أولاً وآخراً، ودل عليه أنه محدود مخلوق.

وقد عظَّم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثَّلم في دينهم، والحرج في أمانتهم، وسهلوا السبيل لعدوّ الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به، والاشتباه أولى بخلقه، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حَظّاً في الدين، ولا نصيباً من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحل أحداً منهم محل الثقة في أمانة، ولا عدالة ولا شهادة، ولا صدق في قول ولا حكاية، ولا تولية لشيء من أمر الرعية، وإن ظهر قصد بعضهم، وعرف بالسداد مسدِّدٌ فيهم فإن الفروع مردودة إلى أصولها، ومحمولة في الحمد والذم عليها، ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جهلاً، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلاً.

فاقرأ على جعفر بن عيسى، وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك وانصصها عن علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور

---

(١) يوسف «٣».
(٢) الإسراء «٨٨».
(٣) هود «١٣».
(٤) فصلت «٤٢».

المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق، فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك، فتقدم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق، ونصهم عن قولهم في القرآن، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهاداته، ولم يقطعا حكماً بقوله، وإن ثبت عفافه بالقصد والسَّداد في أمره، وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله.

قال: فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين، وأحضر أبا حسان الزيادي وبشر بن الوليد الكندي، وعلي ابن أبي مقاتل، والفضل بن غانم، والذَّيَّال بن الهيثم، وسجادة، والقواريري، وأحمد بن حنبل، وقتيبة، وسعدويه الواسطي، وعلي ابن الجعد، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وابن الهرْش، وابن علية الأكبر، ويحيى بن عبد الرحمن العمري، وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب - كان قاضي الرقة - وأبا نصر التمار، وأبا معمر القطيعي، ومحمد ابن حاتم بن ميمون، ومحمد بن نوح المضروب، وابن الفَرُّخان، وجماعة منهم النضر بن شميل وابن علي بن عاصم، وأبو العوام البزاز، وابن شجاع، وعبد الرحمن بن إسحاق، فأدخلوا جميعاً على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟.

فقال: قد عرَّفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرّة.

قال: فقد تجدَّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى.

فقال: أقول: القرآن كلام الله.

قال: لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟.
قال: الله خالق كل شيء.
قال: ما القرآن شيء؟.
قال: هو شيء. قال: فمخلوق؟.
قال: ليس بخالق.
قال: ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟.
قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك.

فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه، فقرأها عليه، ووقَّفه عليها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً، لم يكن قبله شيء، ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنىً من المعاني، ولا وجه من الوجوه.

قال: نعم، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا، فقال للكاتب: اكتب ما قال.

ثم قال لعلي بن أبي مقاتل: ما تقول يا علي؟.

قال: قد سمَّعت كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة، وما عندي غير ما سمع، فامتحنه بالرقعة فأقر بما فيها.

ثم قال: القرآن مخلوق؟
قال: القرآن كلام الله.
قال: لم أسألك عن هذا.
قال: هو كلام الله، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا.
فقال للكاتب: اكتب مقالته.

ثم قال للذيَّال نحواً من مقالته لعلي بن أبي مُقاتل، فقال له مثلَ ذلك.

ثم قال لأبي حسان الزيادي: ما عندك؟.

قال: سل عما شئت، فقرأ عليه الرُّقعة، ووقفه عليها، فأقر بما فيها.

ثم قال: من لم يقُل هذا القول فهو كافر.

فقال: القرآن مخلوق هو؟.

قال: القرآن كلام الله، والله خالق كل شيء، وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا، وبسببه سمعنا عامة أهل العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلَّده الله أمرنا، فصار يُقيم حجَّنا وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهدُ معه، ونرى إمامته إمامة، إن أمَرَنا ائتمرنا، وإن نهانا انتهينا، وإنْ دعانا أجبنا.

قال: القرآن مخلوق هو؟.

فأعاد عليه أبو حسان مقالته. قال: إنَّ هذه مقالة أمير المؤمنين. قال: قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس، ولا يدعوهم إليها، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلتُ ما أمرتني به، فإنكَ الثقة المأمون فيما أبلغتني عنه من شيء، فإن أبلغتني عنه بشيء صرتُ إليه، قال: ما أمرني أن أبلِّغك شيئاً.

قال علي بن أبي مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها.

قال أبو حسان: ما عندي إلا السمعُ والطاعة، فمرني آتمر.

قال: ما أمرني أن آمرك، وإنما أمرني أن أمتحنك.

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل فقال له: ما تقول في القرآن؟

قال: هو كلام الله.

قال: أمخلوق هو؟.

قال: هو كلام الله لا أزيد عليها، فامتحنه بما في الرقعة، فلما أتى على ﴿ليس كمثله شيء﴾ قال: ﴿ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾ وأمسك عن: «لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه»، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر، فقال: أصلحك الله إنه يقول: سميع من أذن، بصير من عين، فقال إسحاق لأحمد: ما معنى قوله: ﴿سميع بصير﴾؟ قال: هو كما وصف نفسه، قال: فما معناه؟ قال: لا أدري، هو كما وصف نفسه.

ثم دعا بهم رجلاً رجلاً، كلهم يقول: القرآن كلام الله، إلا هؤلاء النفر: قتيبة، وعبيد الله بن محمد بن الحسن، وابن عُليَّة الأكبر، وابن البكاء، وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن منبه، والمظفر ابن مُرجأ، ورجلاً ضريراً ليس من أهل الفقه، ولا يُعرف بشيء منه، إلا أنه دُسَّ في ذلك الموضع، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة، وابن الأحمر. فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ والقرآن مُحدَث، لقوله: ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث ﴾ قال له إسحاق:

فالمجعول مخلوق؟ قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق. قال: لا أقول مخلوق، ولكنه مجعول فكتب مقالته.

فلما فرغ من امتحان القوم، وكتب مقالاتهم، اعترض ابن البكاء الأصغر، فقال: أصلحك الله، إن هذين القاضيين أئمة، فلو أمرتهما، فأعادا الكلام، قال له إسحاق: هما ممن يقوم بحجة أمير المؤمنين، قال: فلو أمرتهما لو يُسمعانا مقالتهما، لنحكي ذلك عنهما! قال له

إسحاق: إن شهدت عندهما بشهادة فستعلم مقالتهما إن شاء الله.

فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً، ووُجهت إلى المأمون، فمكث القوم تسعة أيام، ثم دعا بهم، وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق ابن إبراهيم في أمرهم، ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك جواب كتابه كان إليك، فيما ذهب إليه مُتصَنِّعة أهل القبلة، ومُلْتمسو الرئاسة، فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول في القرآن، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم، وتكثيف أحوالهم وإحلالهم محلَّهم. تذكر إحضارك جعفر بن عيسى، وعبد الرحمن بن إسحاق، عند ورود كتاب أمير المؤمنين، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن، والدلالة لهم على خطئهم، وإطباقهم على نفي التشبيه، واختلافهم في القرآن، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى في السِّر والعلانية، وتقدمك إلى السندي، وعباس مَولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى القاضيين بمثل ما مَثّل لك أمير المؤمنين من امتحان مَنْ يحضر مجالسهما من الشهود، وبث الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك، لتحملهم وتمتحنهم على ما حدَّه أمير المؤمنين، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتِهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت.

وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد ﷺ، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته، وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجع إليك فيه كل امرىء منهم، وما شرحت من مقالتهم.

فأما ما قال المغرورُ بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وادّعى من تركه الكلام في ذلك، واستعهاده أمير المؤمنين، فقد كذب بِشر في ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظر، أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص، والقول بأن القرآن مخلوق، فادع به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين؛ من ذلك، وأنصِصْه عن قوله في القرآن، واستتبه منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصُراح، والشركَ المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشْهر أمره، وأمْسِك عنه؛ وإن أصَرَّ على شركه، ودفَعَ أن يكون القرآنَ مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرِبْ عُنُقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بِشْراً، فإنه كان يقول بقوله، وقد بَلغت أمير المؤمنين عنه بوالغُ، فإن قال: إن القرآن مخلوق فأشْهِر أمره واكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وأما عليٌّ بن أبي مقاتل، فقل له: ألستَ القائل لأمير المؤمنين إنك تحلِّل وتحرِّم، والمكلِّم له بمثل ما كلمته به مما لم يذهب عنه ذكره.

وأما الذيّال بن الهيثم: فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقُه في الأنبار، وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغلُه، وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه، وسالكاً مناهجهم ومُحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بابن العوام، وقوله: إنه لا يحسن

الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبيّ في عقله لا في سنّه، جاهل، وأنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيُحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إنْ لم يفعلْ كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عَرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدل على جهلِه وآفته بها.

وأما الفضل بن غانم: فأعلمه أنه لم يخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقلَّ من سنة، وما شَجَر بينه وبين المطَّلب بن عبد الله في ذلك، فإنه من كان شأنه شأنه، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبتَه، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما، وإيثاراً لعاجل نفعهما، وأنه مع ذلك القائلُ لعلي ابن هشام ما قال، والمخالِف له فيما خالفه فيه، فما الذي حال به عن ذلك، ونقله إلى غيره.

وأما الزيادي: فأعلمه أنه كان منتحلاً، ولا كأول دعيٍّ كان في الإسلام خولِف فيه حكمُ رسول الله ﷺ وكان جديـراً أن يسلك مسلَكه، فأنكر أبو حسَّان أن يكون مولىً لزياد أو يكون مولىً لأحد من الناس، وذكر أنَّه إنما نُسِب إلى زيادٍ لأمر من الأمور.

وأما المعروف بأبي نصر التمار، فإن أمير المؤمنين شبَّه خساسة عقلِه بخساسة متجره.

وأما الفضل بن الفَرخان: فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخْذَ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربصاً بمن استودَعه، وطمعاً في الاستكثار لما صار في يده، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به، فقل لعبد الرحمن بـن إسحاق:

لا جَزاكَ اللهُ خيراً عن تفويتك مثل هذا وائتمانك إياه، وهو معتقدٌ للشرك مُنْسلخٌ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم، وابن نوح والمعروف بأبي المعمر، فأعلمهم أنهم مشاغيلُ بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد، وأنَّ أمير المؤمنين لو لم يستحل مُحاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم؛ لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شِركاً، وصاروا للنصارى مثلاً.

وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبُه بالأمس، والمستخرجُ منه ما استخرجته من المال الذي كان استحلّه من مال علي بن هشام، وأنه ممن للدينار والدرهم دينُه.

وأما سعدويه الواسطي، فقل له: قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث، والتزيُّن به والحرصُ على طلب الرئاسة فيه، أن يتمنى وقتَ المحنة، فيقول بالتقريب بها متى يمتحن، فيجلس للحديث.

وأما المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القولَ بأن القرآن مخلوق؛ فأعلمه أنه في شُغله بإعداد النوى وحكّه لإصلاح سجادته، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه. ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن يقولانه، إنه كان شاهَدَهما وجالسهما.

وأما القواريري ففيما تكشَّف من أحواله وقبوله الرُّشا والمصانعات، ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته، وسخافة عقله ودينه؛ وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنَّه يتولى لجعفر بن عيسى الحسني مسائله، فتقدمْ إلى جعفر بن عيسى في رفضه وترك الثقة به والاستنامة إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري: فإن كان من ولد عمر ابن الخطاب فجوابه معروف.

وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم: فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه، لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه، وأنه بعد صبي يحتاج إلى تعلم.

وقد كان أمير المؤمنين وجّه إليك المعروف بأبي مسهر بعد أن نَصَّه أمير المؤمنين على محنته في القرآن فجمجم عنها ولَجلَج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ ذميماً، فأنصِصه عن إقراره، فإن كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره؛ إن شاء الله.

ومن لم يرجع عن شِركه ممن سميتَ لأمير المؤمنين في كتابك، وذكَرَه أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا؛ ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين، مُوثقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم؛ حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلِّمهم إلى من يؤمَن بتسليمهم إليه، لينصَّهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حمَلهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله.

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابَه هذا في خريطة بُندارية، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية، معجلاً به، تقرباً إلى الله عز وجل، بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد، وإدراك ما أمّل من جزيل ثواب الله عليه، فأنفذ لما أتاك من أمر المؤمنين، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُندارية مفردةٍ عن سائر الخرائط، لتعرِّف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله.

وكتب سنة ثمانٍ عشرة ومائتين[1].

فأجاب القوم كلُّهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق، إلا أربعة نفر؛ منهم أحمد بن حنبل، وسجّادة، والقواريري، ومحمد ابن نوح المضروب. فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم، فشُدُّوا في الحديد، فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجّادة إلى أن القرآن مخلوق فأمَر بإطلاق قيده، وخلى سبيله، وأصر الآخرون على قولهم. فلما كان بعد الغد عاودهم أيضاً فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريري إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلى سبيله، وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهم، ولم يرجعا، فشُدا جميعاً في الحديد، ووجِّها إلى طرسوس، وكتب معهما كتاباً بإشخاصهما، وكتب كتاباً مفرداً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه. فمكثوا أياماً ثم دعا بهم فإذا كتابٌ قد ورد من المأمون على إسحاق بن إبراهيم، أنْ قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه، وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أن بشر بن الوليد تأوَّل الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ وقد أخطأ التأويل؛ إنما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقدَ الإيمان مظهر الشرك، فأمَّا من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان فليس هذه له.

فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم.

---

(١) كل ما ورد من كتب للمأمون وما بعد ذلك من تاريخ الطبري ج ٦٣١/٨ - ٦٤٤.

من لم يجب في المحنة:

يقول أبو العباس سعيد المروزي[1]: لم يصبر في المحنة إلا أربعةٌ كلهم من مرو: أحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر، ومحمد بن نوح، ونعيم بن حماد.

وقال أبو الحسين بن المنادي[2]: وممن لم يجب: الفضل ابن دكين، وعفان، والبويطي، وإسماعيل بن أبي أويس، وأبو مصعب المدنيان، ويحيى الحماني.

ويقول الذهبي[3]: في سنة ثماني عشرة ومائتين توفي شيخ دمشق وعالمها أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني ببغداد في حبس المأمون لكونه لم يجب إلى القول بخلق القرآن.

من أجاب في المحنة:

ليس كلُّ الكبار من العلماء والمحدثين سواءً في التحمل والصبر والثبات على العقيدة في محنة خلق القرآن؛ خصوصاً وقد رأوا الجدَّ كلَّ الجدِّ من المأمون في أن يعامِل المستنكف عن الإجابة إلى ما يريدون بأفدح القسوة إن لم يكن القتل بالسيف.

فمنهم من نظروا بعيداً فرأوا أنهم لو استجابوا إلى ما يريدون لكان هذا إيذاناً بتعرض القرآن والإسلام إلى محنة لا يعلم إلا الله مداها، وإيذاناً بأن يأتي جاهل أو ذو هوىً فيؤثر على خليفة، فتصبح عقائد الناس تابعةً لهوى الخلفاء ومن وراءهم من الفجار والمنافقين والعابثين برسالة الإسلام، فكان من هؤلاء أن ضحُّوا بنفوسهم في سبيل سلامة

---

(١) المناقب ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٢) المناقب ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٣) دول الإسلام ١/١٠٣.

عقائد الناس، وهؤلاء خمسة فقط، أحمد بن حنبل ومعه أربعة وقد تقدم ذكرهم.

ومنهم من لم يكن عنده هذا التحمل والصبر وتأول قول الله تعالى: ﴿ إلا مَنْ أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهؤلاء أجابوا في المحنة ظاهراً لا عقيدة، لأن أكثرهم أعلنوا ـ بعد انقضاء المحنة ـ أنهم على السنة، وأنهم لا يبتدعون. ومن هؤلاء، علي بن الجعد، وإسماعيل ابن إبراهيم بن علية، وسعيد بن سليمان الواسطي ـ المعروف بسعدويه ـ وإسحاق بن أبي إسرائيل، وأبو حسان الزيادي، وبشر بن الوليد، وعبيد الله بن عمر القواريري، وعلي بن أبي مقاتل، والفضل ابن غانم، والحسن بن حماد ـ سجّادة ـ، وإسماعيل بن أبي مسعود، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي، وأحمد بن إبراهيم الدورقي، وإسماعيل بن داود الحوري، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وأبو خيثمة ـ زهير بن حرب ـ، وأبو نصر التمار، وأبو كريب في آخرين[1].

وما شقَّت إجابة أحد من هؤلاء على أحمد بن حنبل، مثل ما شقَّت إجابةُ أبي نصر التمار ويحيى بن معين وأبي خيثمة، لأنهم كانوا عنده في أعلى مرتبة، وما ظنَّ بهم الإسراع في الإجابة.

ويقول أبو حفص ابن أخت بشر بن الحارث[2]: قال لي بشر في اليوم الذي أحضِر فيه أبو نصر التمار إلى دار إسحاق بن إبراهيم: تعرَّف لي خبر أبي نصر؟ قال فقلت له: إنه قد أجاب، فاسترجع مراراً

---

(١) المناقب: ٣٨٥.

(٢) المناقب ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

ثم قال: ما كان أحسنَ تلك اللحية لو خُضبت - يعني بالدم - ولم يجب حتى يُقتل.

يقول عبيد الله بن شريك[1]: كان أبو معمر القطيعي من شدة إدلاله بالسنّة يقول: لو تكلّمتْ بغلتي لقالت إنها سنّية. قال: فأخذ في المحنة، فأجاب، فلما خرج قال: كفرنا وخرجنا.

ويقول ابن عسكر: لما دُعي سعدويه للمحنة رأيته لما خرج من دار المعتصم، قال: يا غلام قدم الحمارَ فإنَّ مولاك قد كفر[2].

معاملة الإمام أحمد لمن أجاب:

كان يرى الإمام أحمد فيمن أجاب لدعوة خلق القرآن أنه ليس أهلاً أن يؤخذ منه الحديث ولا أن يُكترث به، فمنهم أبو نصر التمار فكان أحمد لا يرى الكتابة عنه، ولما مات لم يصلِّ عليه[3].

ولا يرى الكتابة أيضاً عن يحيى بن معين، ولا أحدٍ ممن امتحن فأجاب[4].

وكان يقول: لو حدثت عن أحد ممن أجاب لحدثت عن اثنين: أبي مَعْمر وأبي كريب[5].

قال صالح بن أحمد: جاء الحزامي إلى أبي - وقد كان ذهب إلى ابن أبي دؤاد - فلما خرج إليه ورآه أغلق الباب في وجهه ودخل[6].

وعاده يحيى بن معين في مرضه فولاه ظهره، وأمسك عن كلامه حتى قام عنه وهو يتأفف ويقول: بعد الصحبة الطويلة لا أُكَلَّم[7]!.

---

(1) المناقب ٣٨٦ - ٣٨٧.

(2) المناقب ٣٨٧، وابن عسكر هو: سهل بن محمد.

(٣ و ٤ و ٥) المناقب ٣٨٨.

(٦ و ٧) المناقب ٣٨٩.

محنة الإمام زمن المأمون

قال الربيع: إن الشافعي خرج إلى مصر وأنا معه، فقال لي: يا ربيع، خذ كتابي هذا، فامض به، وسلمه إلى أبي عبد الله أحمد ابن حنبل، وائتني بالجواب. قال الربيع: فدخلت بغداد ومعي الكتاب فلقيت أحمد بن حنبل صلاة الصبح، فصليت معه الفجر، فلما انفتل من المحراب سلمت إليه الكتاب، وقلت له: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال أحمد: نظرتَ فيه؟ قلت: لا، فكسر أبو عبد الله الختم وقرأ الكتاب، فتغرغرت عيناه بالدموع، فقلت: إيش فيه يا أبا عبد الله؟ فقال: يذكر أنه رأى النبي ﷺ في النوم، فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، واقرأ عليه مني السلام، وقل: إنك ستمتحن وتُدعى إلى خلق القرآن، فلا تجبهم فسيرفع الله لك عَلَماً إلى يوم القيامة. قال الربيع: فقلت: البشارة، فخلع أحد قميصيه الذي يلي جلده، ودفعه إليّ، فأخذته، وخرجت إلى مصر، وأخذت جواب الكتاب فسلمته إلى الشافعي، فقال لي الشافعي: يا ربيع إيش الذي دفع إليك؟ قلت: القميصَ الذي يلي جلده، قال الشافعي: ليس نُفجعك به، ولكن بُلَّه وادفع إليَّ الماء حتى أشركك فيه[1].

---

(١) ابن عساكر ٧٥ ـ أ.

ثم إن الإمام أحمد سِيرَ به إلى الخليفة المأمون عن أمره بذلك، هو ومحمد بن نوح مقيدان متعادِلان فوق مَحمَل على بعير واحد.

فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من ربيعة، يقال له جابر بن عامر، فسلم على الإمام أحمد وقال له:

يا هذا، إنك وافد الناس فلا تكُن شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس اليوم، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميداً.

قال أحمد: وكان كلامه مما قوَّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه، فلما اقتربا من جيش الخليفة، ونزلوا دونه بمرحلة، جاء خادم ـ وهو يمسح دموعه ـ بطرف ثوبه ويقول: يعزّ عليّ يا أبا عبد الله، إن المأمون قد سلَّ سيفاً لم يسلَّه قبل ذلك، وإنه يُقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنَّك بذلك السيف، قال: فجثا الإمام أحمد على ركبتيه، ورمق بطرفه إلى السماء، وقال: سيدي، غرَّ حلمُك هذا الفاجر حتى تجرَّأ على أولئك بالضرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامُك غيرَ مخلوق، فاكفنا مؤونته.

قال: فجاءهم الصريخ بموت المأمون، في الثلث الأخير من الليل، قال أحمد: ففرحنا[1].

ومع ذلك لبث مدة في سجن الرقة إلى أن يُنظر في أمره، وبينا هو

---

(1) البداية والنهاية ١٠/٣٣٢.

في السجن جاءه عمه إسحاق، فأخذ يحاجُّه في التقية، وينصحه بقبولها قائلاً: إن أصحابك قد أجابوا، وقد أعذرت بينك وبين الله، فقال أحمد: وكيف تصنعون بحديث خبّاب: إن من كان قبلكم كان يُنشَر أحدهم بالمنشار ثم لا يصدُّه ذلك عن دينه؟! فيئسوا منه، فقال أحمد: لست أبالي بالحبس، ما هو ومنزلي إلا واحدٌ ولا قتلاً بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، وأخاف ألا أصبر، فسمعه بعضُ أهل الحبس وهو يقول ذلك، فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي، فكأنه سُرِّي عنه[1].

مات المأمون والسيف بيده يجاهد فيه أعداء الإسلام، والروم عند الثغور، ومات غريباً عن عاصمة مُلكه، وقد كان هذا حسبَه لينال المغفرة من الله، لولا أنه أبى أن ينقطع عمله السيء في المحنة بل وصله إلى ما بعد موته، فقد مات وهو مصرٌّ على المحنة موصٍ في الاستمرار بها، فقد أوصى خَلَفه المعتصم بوصية منها أنه شدد عليه بأمرين:

الاستمرار في المحنة.

والاهتمام بأقوى أداة للمحنة: قاضي القضاة عند المأمون، أحمد ابن أبي دؤاد، وإشراكه معه في الأمور كلها، لا يُحل أمراً بدونه.

وهذان الأمران، جعلا للمحنة شأناً آخر، اشتدت بدلَ أن تخمُد، وردّ أحمد ومحمد بن نوح من الرقة إلى بغداد في كامل أقيادهما، ولكن محمد بن نوح مات في الطريق، وصلى عليه الإمام أحمد ثم صار إلى بغداد وهو مقيد فمكث بالياسرية ـ بلدة ببغداد ـ أياماً، ثم صار إلى الحبس.

---

(١) المناقب ٣١٦.

محنة الإمام أيام المعتصم

كان المعتصم عَرِيّاً عن العلم كما وصفه السيوطي، ولكنه من أعظم الخلفاء وأهيبهم، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن كما قال الذهبي، وما أخطر أن يجتمع في إنسان، الجهل والشدة. ولقد استغل ابن أبي دؤاد في المعتصم جهله وعنفوانه العسكري، وبث فيه ما يريد من استمرار المحنة، مع وصية أخيه الذي يعتقد فيه العلم والحكمة، فتمت له القناعة في أخذ العلماء بالشدة حتى يقروا بخلق القرآن.

وصدر الأمر بسجن الإمام أحمد، وقال قولة يوسف: ﴿ ربِّ السجنُ أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه ﴾[1]، وكان يقول: «السجنُ كُره، والقيد كُره، والضرب كره، والوعيد كُره». ومع ذلك فقد كان هذا الكره هيناً إذا كان في سبيل الله، وعقيدته التي ورثها عن السلف.

وسُجن الإمام، وكان سجنُه ـ كما قال ابن عمه حنبل ـ في دار اكتُريت له بجوار دار عمارة ببغداد، وكان مُقيداً، فحُبس في ذلك الحبس قليلاً، ثم تحوَّل إلى سجن العامة فمكث في السجن نيفاً وثلاثين شهراً.

---

(١) يوسف «٣٣».

قال حنبل: وكنت أنا وأبي وأصحاب أبي عبد الله ندخل عليه، فسأله أبي أن يحدثني ويقرأ عليّ فقرأ عليّ في السجن كتاب «الإرجاء» وغيره، ورأيت أبا عبد الله يصلّي بأهل الحبس، قال: ألا تراني وما أصنع؟ قلت: بلى ثم ذكر أبو عبد الله «حُجْراً» وأصحابه، فقال: أليس كانوا مقيدين؟ أليس كانوا يصلون جماعة على الضرورة؟ لا بأس بذلك، قلت: فالذي في رجله القيد لا يمكنه أن يقعد في الصلاة على ما فعل النبي ﷺ في الركعة الأخيرة، يمنعه القيد من ذلك، قال: كيفما تيسر وأطاق! فالحمد لله على معونته وإحسانه وسبحان الله لهذا الأمر الذي أبلى الله به العباد.

ولقد روى أحد الذين كانوا معه في السجن أنه عَطِش مرة، فطلب من صاحب الشراب ماءً فجيء بماء وثلج، وأمسك الإمام بالماء المثلج، ونظر إليه ثم تركه بدون شُرب. فقال له السَّجان: لماذا لا تشرب؟ فقال له: أعندك شرابٌ يكفيني ومن معي في السجن؟ قال: لا، فقال الإمام: فكيف أشرب، ومن معي في السجن لا يشربون؟.

أي عظيم هذا الإمام، لقد سما به إيمانه إلى إنسانية محت منه حب الذات حتى إنها لا تشعر بالريّ إذا شربت، ما دام غيرها ظمآن، فيفضل أن يساوي غيره بالظمأ على أن يخُصَّ نفسه بالريّ، وهذا شأن من دخل الإيمان كل ذرة من وجوده، فلم يتحرك ولم يتصرف إلا بوحي منه.

وعن صالح ابن الإمام أحمد قال: قال أبي[1]: وكان ـ أي إسحاق ابن إبرهيم ـ رئيس شرطة بغداد يوجه إليَّ ـ أي في السجن ـ كل يوم برجلين: أحدهما يقال له أحمد بن رباح، والآخر أبو شعيب الحجام،

(١) طبقات الشافعية ٢/٤٤ ـ ٤٥.

فلا يزالان يناظراني، حتى إذا أرادا الانصراف دُعي بقيد فزيد في قُيودي، قال: فصار في رجله أربعة أقياد قال أبي: فلما كان في اليوم الثالث دخل عليَّ أحد الرجلين، فناظرني، فقلت له: ما تقول في علم الله؟

قال: علم الله مخلوق.

فقلت له: كفرت.

فقال الرسول الذي كان يحضر من قِبل إسحاق بن إبراهيم: إن هذا رسول أمير المؤمنين. فقلت له: إن هذا قد كفر.

فلما كان في الليلة الرابعة وجَّه - أي المعتصم - «بُغا» الذي كان يقال له الكبير إلى إسحاق فأمره بحملي إليه، فأدخلت على إسحاق، فقال: يا أحمد، إنها والله نفسُك، إنه لا يقتلك بالسيف، إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد ضرب، وأن يلقيك في موضع لا تُرى فيه شمسٌ ولا قمر، أليس قد قال الله عز وجل: ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ أفيكون مجعولاً إلا مخلوقاً؟.

قلت: فقد قال تعالى: ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أفخلقهم؟

قال: فسكت.

فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان، أُخرجت وجيء بدابة فحملت عليها، وعليَّ الأقياد، ما معي أحدٌ يُمسكني، فكدتُ غير مرة أن أخِرَّ على وجهي لثقل القيود، فجيء بي إلى دار المعتصم، فأدخِلت حُجرة، وأدخلت إلى بيت، وأقفل الباب عليّ، وذلك في جوف الليل، وليس في البيت سراج، فأردتُ أن أتمسح للصلاة، فمددت يدي، فإذا أنا بإناء فيه ماءٌ وطَسْت موضوع فتوضأت وصليت.

فلما كان من الغد أخرجت تكتي من سراويلي، وشدَّدت بها الأقياد أحملها، وعطفت سراويلي، فجاء رسول المعتصم فقال: أجب، فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، والتكة في يدي أحمل بها الأقياد وإذا هو جالس، وابن أبي دؤاد حاضر، وقد جمع خلقاً كثيراً من أصحابه، فقال له ـ يعني المعتصم ـ: أُدنُه أُدنُه، فلم يَزل يُدنيني حتى قربت منه، ثم قال لي: اجلس، فجلست وقد أثقلتني الأقياد، فمكثت قليلاً، ثم قلت: أتأذن لي في الكلام؟ فقال: تكلم.

فقلت: إلامَ دعا الله ورسوله؟.

فسكت هنيهة، ثم قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

فقلت: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله.

ثم قلت: إن جدَّك ابن عباس يقول: لما قَدِم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ سألوه عن الإيمان، فقال: أتدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم».

قال المعتصم: لولا أني وجدتُك في يد من كان قبلي ما عَرضت لك، ثم قال: يا عبد الرحمن بن إسحاق: ألم آمرْك برفع المحنة؟ فقلت: الله أكبر، إن في هذا لفَرجاً للمسلمين.

ثم قال لهم: ناظروه، كلموه، يا عبد الرحمن كلِّمْه.

فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟.

قلت له: ما تقول في علم الله؟ فسكت.

فقال لي بعضهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾[1] والقرآن أليس هو شيئاً؟.

---

(١) الرعد «١٦».

فقلت: قال الله: ﴿ تدمِّر كلَّ شيءٍ بأمر ربها ﴾[1] فدمَّرت إلا ما أراد الله؟!.

فقال بعضهم: قال الله عز وجل: ﴿ ما يأتيهم من ذكرٍ من ربِّهم مُحدَث ﴾[2] أفيكون مُحدَثاً إلا مخلوقاً؟!

فقلت: قال الله: ﴿ ص، والقرآن ذي الذكر ﴾[3] فالذكر هو القرآن، وتلك ليس فيها ألف ولا لام[4].

وذكر بعضهم حديث عمران بن الحصين: أن الله عز وجل خلق الذِّكر.

فقلت: هذا خطأ، حدثنا غير واحد أن الله كتب الذكر.

واحتجوا بحديث ابن مسعود: «ما خلق الله من جنة ولا نار، ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي».

فقلت: إنما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض، ولم يقع على القرآن.

فقال بعضهم: حدثنا حديث خباب: «يا هَنْتاه[5] تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحبَّ إليه من كلامه».

فقلت: هكذا هو.

---

(١) الأحقاف «٢٥».

(٢) الأنبياء «٢».

(٣) سورة ص «١».

(٤) يريد أن قوله تعالى: والقرآن ذي الذكر عرَّف الذكر هنا، وظاهر هنا أن الذكر هو القرآن. أما قوله تعالى: ﴿ من ذكر من ربهم محدث ﴾ فهذا نكرة خصوصاً أنها في سياق النفي فتفيد العموم.

(٥) أي يا هذه، ولا تأتي إلا بمنادى.

قال صالح بن أحمد: فجعل أحمد بن أبي دؤاد ينظر إلى أبي كالمغضَب.

وقال الإمام أحمد: وكان يتكلم هذا فـأردُّ عليه، ويتكلم هذا فأرد عليه، فإذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبي دؤاد، فيقول: يا أمير المؤمنين، هو والله ضالٌّ مضِلّ مبتدِع، فيقول ـ أي المعتصم ـ: كلِّموه، ناظروه، فيكلمني هذا فأرد عليه، ويكلمني هذا فأرد عليه، فإذا انقطعوا يقول لي المعتصِم: ويحك يا أحمد! ما تقول؟ فأقول: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنّة رسول الله ﷺ حتى أقول به، فيقول ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا ما في كتاب الله أو سنّة رسول الله، فقلت له: تأولتَ تأويلاً فأنت أعلم، وما تأولتُ ما يُحبس عليه وما يُقيد عليه.

ثم إن المعتصم دعا أحمد مرتين في مجلسين، وهو يدعوه إلى البدعة والإمام أحمد يأبى عليه أشدَّ الإباء.

قال أحمد رحمه الله: ولما كانت الليلة الثالثة قلت: خليق أن يَحدُث غداً في أمري شيء، فقلت لبعض من كان معي الموكَّل بي: ارْتَدْ لي خيطاً، فجاءني بخيط، فشددتُ به الأقياد، ورددت التكة إلى سراويلي، مخافة أن يحدث من أمري شيء فأتعرى.

فلما كان من الغد في اليوم الثالث وجه إليَّ، فأدخِلتُ فإذا الدارُ غاصَّة، فجعلت أدخل من موضع إلى موضع، وقومٌ معهم السيوف، وقوم معهم السياط، وغير ذلك، ولم يكن في اليومين الماضيين كثير أحد من هؤلاء، فلما انتهيت إليه قال: اقعد، ثم قال: ناظروه، كلموه، فجعلوا يناظرونني، ويتكلم هذا فأرد عليه، وجعل صوتي يَعلو أصواتهم، فجعل بعضُ من على رأسه قائم يومي إليَّ بيده، فلما طال

المجلس نحّاني، ثم خلا بهم، ثم نحاهم، وردني إليه[1]. وقال: ويحك يا أحمد، أجبني حتى أطلِق عنك بيدي، فرددت عليه نحواً مما كنت أردّ، فقال لي: عليك، وذكر اللعن، وقال: خذوه، واسحبوه، واخلعوه، قال: فسحبت ثم خلعت.

قال: وقد كان صار إليّ شَعَر من شعر النبي ﷺ في كم قميصي، فوجّه إليّ إسحاق بن إبراهيم: ما هذا المصرور في كمك؟ فقلت: شعر من شعر رسول الله ﷺ.

قال: وسعى بعض القوم إلى القميص ليخرقه عليّ، فقال لهم - يعني المعتصم -: لا تخرقوه فنزع القميص عني، قال: فظننت أنه إنما دُرِىء عن قميصي الخرق بسبب الشعر الذي كان فيه. قال: وجلس على كرسي - يعني المعتصم -، ثم قال: العقابَيْن[2]، والسياط، فجيء بالعقابين فمُدت يداي، فقال بعض من حضر خلفي: خذ بأي الخشبتين بيديك، وشد عليهما، فلم أفهم ما قال: فتخلعت يداي.

وقال محمد بن إبراهيم البوشنجي: ذكروا أن المعتصم لان في أمر أحمد لما عُلِّق في العقابين، ورأى ثبوته وتصميمه، وصلابته في أمره، حتى أغراه ابن أبي دؤاد وقال له: إن تركتَه قيل إنك تركت مذهب المأمون، وسخطت قوله، فهاجه ذلك على ضربه.

قال الإمام أحمد: لما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم وقال: إيتوني بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدَّموا، فجعل يتقدَّم إليّ الرجل منهم فيضربني سَوْطين، فيقول له: شُدَّ قطع الله يدك، ثم يتنحي، ويتقدم الآخر فيضربني سَوطين، وهو يقول في كل ذلك: شدَّ، قطع

---

(١) في الأصل وردني إلى عنده.

(٢) العقابان: خشبتان يشبح الرجل بينهما للجلد.

الله يدك، فلما ضربت تسعة عشر سوطاً قام إليّ - يعني المعتصم - فقال: يا أحمد، علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق، قال: فجعل عُجيف ينخسني بقائمة سيفه، ويقول: أتريدُ أن تغلب هؤلاء كلهم، وجعل بعضهم يقول: ويلك! الخليفةُ على رأسك قائم. وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، دمه في عنقي اقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم، وأنت في الشمس قائم، فقال لي: ويحك يا أحمد! ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله، أو سنّة رسول الله ﷺ أقول به، فرجع وجلس، وقال للجلاد: تقدَّم وأوجع، قطع الله يَدك، ثم قام الثانية، فجعل يقول: ويحك يا أحمد: أجبني. فجعلوا يقبلون عليّ ويقولون: يا أحمد، إمامُك على رأسك قائم، وجعل عبد الرحمن يقول: من صَنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ وجعل المعتصم يقول: أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج، حتى أطلق عنك بيدي، فقلت: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله، فرجع وقال للجلادين: تقدَّموا فجعل الجلاد يتقدَّم، ويضربني سَوْطين، ويتنحى، في خلال ذلك يقول: شُدَّ قطع الله يدك.

قال أحمد: فذهب عقلي، فأفقت بعد ذلك، فإذا الأقياد قد أطلقت عني. وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين، فقال لي رجل ممن حضر: إنا كببناك على وجهك، وطرحناك على ظهرك، ودسناك، قال أحمد: فما شعرت بذلك. وأتوني بسويق، فقالوا لي: اشرب وتقيأ، فقلت: لا أفطر.

ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم ابن سماعة فصلى، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليتَ والدمُ يسيل في ثوبك، فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعَبُ دماً.

قال صالح بن أحمد: ثم خُلِّي عنه، فصار إلى منزله، وكان مكثُه في السجن مذ أخذ وحُمِلَ إلى أن ضرب وخلّي عنه ثمانية وعشرين شهراً. وقال ميمون بن الأصبغ: أخرج أحمد بن حنبل بعد أن اجتمع الناس على الباب وضَجُّوا حتى خاف السلطان فخرج[1].

وكانت تكة أحمد حاشية ثوب، فانقطعت فنزل السراويل إلى عانته فرمى بطرفه إلى السماء وحرَّك شفتيه، فما كان بأسرع من ثبوت السراويل على حاله، لم تتزحزح.

قال ميمون بن الأصبغ: فدخلت على أحمد بعد سبعة أيام، فقلت: يا أبا عبد الله، رأيتك وقد انحلَّ سراويلك، فرفعت طرفك نحو السماء فثبت، ما الذي قلت؟ قال: قلت: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش، إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي ستراً[2].

قال أبو شعيب الحراني: كنا مع أبي عبيد القاسم بن سلام بباب المعتصم، وأحمد بن حنبل يضرب، قال فجعل أبو عبيد يقول: أيضربُ سيدُنا لا صبر؟! أيضرب سيدنا لا صبر؟! قال أبو شعيب: فقلت[3]:

ضربوا ابنَ حنبل بالسياط بظلمهم
بغياً فثُبِّت بالثبات الأنور
قال الموفق حين مُدِّدَ بينَهم
مدَّ الأديم مع الصعيد القرقر

---

(1) المناقب ٣٤٠.

(2) المناقب ٣٣١ وما أوردناه من محنة أحمد مع المعتصم من طبقات الشافعية ٢/٤٥ ـ ٥١ مع النظر في المناقب ٣١٩ ـ ٣٣٦ والكامل لابن الأثير ٥/٢٣٣.

(3) المناقب ٣٣٦.

إنــي أمــوت ولا أبــوء بــفــجــرة
تُصلى بــوائـقـهــا مــحــلّ الـمـفـتــري

ثم أخرج من السجن مريضاً في جسمه، ولما رجع إلى منزله جاءه الجرائحي فقطّع لحماً ميتاً في جسده وجعل يداويه[1]، وجعل النائب يسأل عنه ويستعلم خبره.

هذه هي القوة لا تَثلمها قوة، وهذا هو الصبر العجيب، وإقدام من لا يخشى إلا الله، وهذا ما رفع تلك النفوس إلى منزلة الصدِّيقين بإرخاصها روحها في سبيل دحض بدعة ونصر سنّة!!.

وما كان الإمام أحمد إلا سجين الجسم مُؤذى فيه، ولكنه طليق الروح، صحيح النفس ما دام لا يعدل بأنسه بالله شيئاً، فهو بهذا جدُّ طليق، والمسجونون حقاً هم أولئك الذين سعوا إلى سجنه وإيذائه، مسجونون بوحشة من الله، ومقيدون بأفكار وعقائد لم يأتِ بها الله، بل مكبلون بدخائل مريضة تريد أن تنتقم من حبر الأمة، ورأس السنة، من رضي عن الله ورضي الله عنه.

وخشي المعتصم غضبة الناس، فدعا بعم أحمد بن حنبل، ثم قال للناس: أتعرفونه؟ قالوا: نعم. ولولا أنه فعل ذلك لكنت أخاف أن يقع شر لا يقام له، فلما قال ـ أي المعتصم ـ: قد سلمته إليكم صحيح البدن، هدأ الناس وسكنوا.

عفوه عمَّن آذاه:

وكان من طيب نفسه وسمو روحه وشرف طبعه، وعميق تدينه أن جعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله

(1) البداية والنهاية ١٠/٣٣٥.

تعالى: ﴿ وليَعفوا وليَصفحوا ﴾[1] الآية. ويقول: ماذا ينفعك أن يعذَّب أخوك المسلم بسببك؟ وقد قال تعالى: ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾[2] وينادي المنادي يوم القيامة: ليقم من أجره على الله؛ فلا يقوم إلا من عفا[3]. وقيل له: ادع على ظالمك. فقال: ليس بصابرٍ من دعا على ظالمه[4].

وقال أحمد بن سنان: بلغني أن أحمد بن حنبل جعل المعتصم في حلٍ يوم فتح بابل، أو في يوم فتح عمورية، فقال: هو في حلٍّ من ضربي.

خروجه من السجن وحديث كبار العلماء عنه:

وبعد خروجه من السجن أقبل عليه العلماء والعلية من الناس وعامتهم للسلام عليه، وهم يرون فيه الرجل الصدِّيق الذي آثر السجن والعذاب والضرب، وأشنع التنكيل، وترقب الموت، في سبيل الله وأن يحفظ للناس عقائدهم وأن يحفظ مكانة كتاب الله، فَخلُد اسمه على وجه الدهر، وقرن بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ومع كل ما لاقاه من الضرب والتعذيب والسجن كان لا يرى صبره يُقاس بصبر أحمد بن نصر الخزاعي؛ فقد قيل له يوماً[5]: صبرت يا أبا عبد الله في المحنة، فقال: ما صبرت؛ الذي صبر أخي أحمد ابن نصر الخزاعي، وذلك أنهم أغلظوا له القول فأغلظ لهم فضربوا عنقه وما خافهم.

---

(١) النور «٢٢».

(٢) الشورى «٤٠».

(٣) البداية والنهاية ١٠/٣٣٥.

(٤) الطبقات الكبرى ٢/٢٨٩.

(٥) طبقات الحنابلة ٢/٢٨٨.

من أثر ضربه:

قال صالح بن أحمد بن حنبل: نظر إلى أبي رجل ممن يبصر الضرب والعلاج، فقال: لقد رأيت من ضُرِب ألفَ سوط ما رأيت ضرباً مثل هذا، لقد جرَّ عليه من خلفِه ومن قُدامِه، ثم أخذ ميلاً فأدخله في بعض تلك الجراحات فنظر إليه فقال: لم ينقب، وجعل يأتيه ويعالجه، وقد أصاب وجهه أكثر من ضَربة، ومكث متكئاً على وجهه ما شاء الله، ثم قال: إن ههنا شيئاً أريد أن أقطعه، فجاء بحديدة فجعل يعلق اللحم بها، ويقطعه بسكين معه، وهو صابر لذلك، يحمد الله عز وجل في ذلك، فبرأ منه، ولم يزل يتوجع من مواضع منه، وكان أثر الضرب بيناً في ظهره إلى أن توفي ـ أي نحواً من اثنتين وعشرين سنة ـ.

تحديثه بعد موت المعتصم:

لم يحدث الإمام أحمد زمن المعتصم، فلما مات المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين حدَّث الإمام ببغداد جهرة، يقول محمد بن إبراهيم البوشنجي: بلغنا انبساطه في الحديث، ونحن بالكوفة، فرجعت إليه فأدركته في رجب من هذه السنة وهو يحدِّث، ثم قطع الحديث لثلاث بقين من شعبان من غير منع من السلطان، ولكن كتب الحسن بن علي بن الجعد ـ وهو يومئذٍ قاضٍ ببغداد ـ إلى ابن أبي دؤاد: أن أحمد قد انبسط في الحديث، فبلغ ذلك أحمد، فأمسك عن الحديث من غير أن يُمنع[1].

---

(١) المناقب ٣٤٨.

أحمد بايع الله:

محمد بن سليمان الباغندي يقول: حججت إلى بيت الله الحرام، فلما قضيت حجتي دخلت المسجد الحرام، فَنَعَسْت فنمت في المسجد فرأيت في المنام عَلماً أخضر، قد نَزَل من السماء إلى الأرض فيه مكتوب بالبياض: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أحمد ابن حنبل بايع الله تحت العرش» وكان ذلك في أيام المحنة[1].

---

(1) ابن عساكر ٨١ ـ أ.

محنة الإمام أيام الواثق

ولي الواثق بن المعتصم في ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين، وجاء ابن أبي دؤاد وحضّ الواثق كما حض المعتصم بحمل العلماء على القول بخلق القرآن، فاستجاب لذلك، ولِمَ لا، فأبوه وعمه من قبله قد أبليا أسوأ البلاء في سبيل هذه المقولة المضلِّلة بالقتل والضرب والتنكيل؟! ولكن الواثق خشي أن يتعرض لأحمد، فالأمور بلغت ذروتها، واستعدَّ الناس ليثوروا، ويحرقوا الأخضر واليابس.

ومع ذلك أرسل إلى الإمام أحمد: لا تساكِنِّي بأرض، فاختفى أحمد بقية حياة الواثق، ينتقل من مكان إلى مكان إلى أن أوى إلى منزله، فاختفى فيه إلى أن مات الواثق.

ويرحم الله الإمام أحمد فقد كان يروي سنة ثمان وعشرين عن النبي ﷺ أنه قال: «لم يبق من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنة، فأعِدُّوا للبلاء صبراً» فجعل يقول: «اللهم رَضِينا اللهم رَضِينا».

ووُصف الواثق بأنه المأمون الثاني في أدبه وعلمه وثقافته، ولكنه يمتاز عنه بحدة الطبع ولَدَد الخصومة، فقد أبى أن يدع صفحته في تاريخ المحنة نقيةً ناصعةً فأتى بشنيعة سيحملها على عنقه يوم الحساب؛ فقد أُتي بالعالم الجليل أحمد بن نصر الخزاعي فسأله عن رأيه في خلق القرآن ـ بعد أن أخبره والي بغداد بأنه ينكر القول بخلق

القرآن ـ فاستمر أحمد بن نصر في إنكاره، فسأله عن رؤية الله فأقرها ـ والمعتزلة ينكرونها ـ فغضب الواثق، ودعا بالسيف، وقال: إني أحتسب خُطايَ إلى هذا الكافر الذي يعبد ربّاً لا نَعْبده، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها، ثم مشى إليه فضرب عنقه، وأمر به فحُمِل رأسُه إلى بغداد!! فنصبه بالجانب الشرقي شُهوراً، وبالجانب الغربي شُهوراً، ولما صُلِب كتب الواثق ورقة وعُلِّقت في أذنه، وفيها: «هذا رأس أحمد بن نصر ابن مالك دعاه عبد الله الإمام هارون ـ وهو الواثق ـ إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلا المعاندة، فعجَّله الله إلى ناره، ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفُه عن القبلة».

ياالله لأحمد بن نصر، أهكذا تبلغ القِحَةُ مع الله، أيحتسب الواثق خطاه؟ يحتسبها ولكن لغضب الله.

لقد بلغت المحنة زمن الواثق ذروتها، وإن لم يصب الإمام منها بأذى في جسمه، وكلما اشتدت الأزمات يقرب الفرج؛ ففي أواخر حكم الواثق الذي دام خمس سنوات، أقدم الواثق شيخاً[1] من أَذَنة فأدخل مقيداً، وهو جميل حسن الشيبة. قال المهتدي ـ ابن الواثق ـ: فرأيت الواثق استحيى منه، ورقَّ له؛ فما زال يُدنيه حتى قرُب منه وجلس، فقال له: ناظر ابنَ أبي دؤاد.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إنه يضعف عن المناظرة.

فغضب الواثق وقال: أبو عبد الله يضعف عن مناظرتك أنت؟!

قال الشيخ: هوِّن عليك، وائذنْ لي في مناظرته.

---

(١) اسم هذا الشيخ أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمي شيخ أبي داود والنسائي كما يقول السيوطي في تاريخ الخلفاء.

فقال: ما دعوناك إلا لذلك.

فقال الشيخ: احفظ عليَّ وعليه.

ثم قال الشيخ: يا ابن أبي دؤاد: أخبرني عن مقالتك هذه؟ أهي مقالة واجبة داخلة في عَقد الدِين فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت؟.

قال ابن أبي دؤاد: نعم.

فقال الشيخ: أخبرني عن رسول الله، حين بعثه الله هل ستر شيئاً مما أمر به؟.

قال أحمد: لا.

فقال الشيخ: فدعا إلى مقالتك هذه؟ فسكت أحمد بن أبي دؤاد.

قال الشيخ: يا أمير المؤمنين. واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: أخبرني عن الله تعالى حين قال: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾، أكان الله هو الصادق في إكمال دينه، أم أنت الصادق في نقصانه حتى تُقال مقالتُك؟.

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: ثنتان، فقال الواثق: نعم.

فقال الشيخ: أخبرني عن مقالتك هذه، أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها؟.

فقال ابن أبي دؤاد: علمها.

فقال الشيخ: فدعا الناس إليها؟.

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاث، قال الواثق: نعم.

قال الشيخ: فاتَّسع لرسول الله ﷺ إن علِمها أن يمسِك عنها، ولم يطالب أمته بها؟.

فقال ابن أبي دؤاد: نعم.

فقال الشيخ: واتَّسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ذلك؟.

قال ابن أبي دؤاد: نعم.

فأعرض الشيخ عنه، وأقبل على الواثق وقال: يا أمير المؤمنين، قد قدمت القول إن أحمد يصبو ويضعف عن المناظرة.

يا أمير المؤمنين إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة كما زعم هذا أنه اتسع للنبي ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فلا وسَّع الله عليك، قال الواثق: نعم كذا هو، قطِّعوا قيد الشيخ، فلما قطَّعوه ضرب الشيخ بيده إلى القيد فأخذه؛ فقال الواثق: لم أخذته؟ فقال: إني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه إذا أنا مِت أن يجعلَه بيني وبين كفني حتى أخاصِم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، فأقول: يا رب لم قيدني ورَوَّع أهلي؟! ثم بكى، فبكى الواثق وبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل، وأمر له بصلة؛ فقال: لا حاجة لي بها!!.

قال المهتدي بن الواثق ـ وهو أحد شهود هذه المناظرة ـ: فرجعت عن هذه المقالة وأظن أن الواثق رجع عنها من يومئذٍ.

ولقد كان هذا الشيخ أروعَ من ناظر، لم يُحاول أن يدخل في صميم المسألة فهي قابلة للأخذ والرَّد، ولكنه سلك طريقاً أغلق فيه على ابن أبي دؤاد كل باب، وبذلك هزمه في المناظرة هزيمة مُنكرة، وأطفأ بذلك فتنةً طال أمدها وذهب ضحيتها رجال من كبار المحدثين وأجلَّة الصالحين المصلحين.

ولهذه القصة روايات مختلفة ولكن مؤداها واحد واخترنا منها هذه الرواية من النجوم الزاهرة[1].

ومن الطريف ـ بهذه المناسبة ـ أن عبَادة المخنث دخل على الواثق وقال: يا أمير المؤمنين أعظم الله أجركَ في القرآن. قال: ويلك! القرآن يموت؟ قال: يا أمير المؤمنين، كلُّ مخلوق يموت، بالله يا أمير المؤمنين، من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن؟ فضحك الخليفة وقال: قاتلك الله أمسك[2].

كشف المحنة ونصر السنّة أيام المتوكل:

ولي المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، فاستبشر الناس بولايته، فقد كان محباً للسنّة وأهلها ولم يلبث أن سعى في كشف الغمة، ورفع المحنة، وكتب إلى الآفاق: لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن، فارتفع قدره وألحق بأكابر المصلحين حتى قيل: «أبو بكر في الردة، وعمر بن عبد العزيز في ردِّه المظالم، والمتوكل في إحياء السنّة وإماتة التجهم»[3]. وقال السيوطي عنه: «بويع له في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين بعد المائتين فأظهر الميل إلى السنة، ونصر أهلها، وذلك في سنة أربع وثلاثين، واستقدم المحدِّثين إلى سامُرا وأجزل عطاياهم، وأكرَمَهم، وأمَرهم بأن يحدِّثوا بأحاديث الصفات والرؤية[4]، وقال في ذلك أبو بكر بن الخبازة[5]:

وبعدُ فإن السنّة اليومَ أصبحَت
معزَّزَةً حتى كأن لم تُذلَّلِ

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(٢) طبقات الشافعية ٢/٦٠.
(٣) البداية والنهاية ١٠/٣٣٧.
(٤ و ٥) تاريخ الخلفاء ٢٣٠.

تصولُ وتَسطو إذْ أقيم منارُها
وحط منار الإفك والزور من عل
وولّى أخو الإبداع في الدِّين هارباً
إلى النار يهوي مُدبراً غيرَ مقبل
شفى الله منهم بالخليفة جعفر
خليفته ذي السُّنّةِ المُتوكِّل
خليفة ربي وابنِ عم نبيِّه
وخيرِ بني العباس من منهم ولي
وجامعُ شملِ الدِّين بعدَ تشتُّت
وفاري رؤوس المارقين بمُنصُل

واشتد على الجهمية، فقد بعث في سنة سبع وثلاثين إلى نائب مصر أن يحلقَ لحية قاضي القضاة بمصر محمد بن أبي الليث، وأن يضربه، ويطوف به على حمار ففعل، يقول السيوطي: ونعم ما فعل؛ فإنه كان ظالماً من رؤوس الجهمية[1].

طلب المتوكل الإمام ثم رده:

أما شأنه مع الإمام أحمد، فقد كتب المتوكل إلى نائبه ببغداد ـ وهو إسحاق بن إبراهيم ـ أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه، فاستدعى إسحاق بالإمام أحمد إليه فأكرمه وعظمه، لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه. وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن فقال له أحمد: سؤالك هذا سؤال تعنت أو استرشاد؟ فقال: بل سؤال استرشاد، فقال: هو كلام الله منزَّل غير مخلوق، فسكن إلى قوله في ذلك، ثم جهَّزه إلى الخليفة إلى سُرَّ من رأى، ثم سبقه إليه.

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٣١.

وبلغ إسحاق أن أحمد بن حنبل اجتاز بابنه محمد بن إسحاق فلم يأتِه ولم يسلمْ عليه، فغضب إسحاق من ذلك، وشكاه إلى الخليفة، فقال المتوكل: يُرَدّ، وإن كان قد وطىء بساطي، فرجع الإمام أحمد من الطريق إلى بغداد.

محنة وقى الله شرها:

وما كاد ينتهي الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من الفتن والمِحن، حتى فاجأته محنةٌ كادت تودي به، ولكن الله تولاه بالحفظ والرعاية، وذلك أن المبتدعة من الجهمية حين أديلَ منهم فأحرقتهم نار أوقدوها حاولوا أن يلتمسوا سبيلاً أخرى هي سبيل الكيد والكذب والمراوغة، يريدون بذلك إيقاع الإمام أحمد بنقمة الخليفة فتعادُ له السيرة الأولى، بل ما كان أمامه إلا القتل الوَحِيّ لو تمت المؤامرة؛ فقد وشى رجل من المبتدعة، يقال له ابن البلخي، وشى إلى الخليفة شيئاً، فقال: إنَّ رجلاً من أهل بيت النبي ﷺ قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل، وهو يبايع له الناس في الباطن ـ وكان المتوكل أشدَّ الناس على العلوية بعكس أخيه الواثق ـ فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل، فلم يشعروا إلاَّ والمشاعل قد أحاطت بالدار، من كلِّ جانب، حتى فوقَ الأسطحة، فوجدوا أحمد جالساً في داره مع عياله، فسألوه عما ذكر عنه، فقال: ليس عندي من هذا عِلم، وليس من هذا شيء، ولا هذا في نيتي، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية، وفي عُسري ويُسري، ومنشطي ومكرهي، وأثَرة عليّ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق، في الليل والنهار، ففتشوا منزله حتى مكان الكتب، وبيوت النساء، والأسطحة وغيرها، فلم يروا شيئاً. وتحقق المتوكل ـ بعد أن أدخل الرعب على أهل بيته ومحبيه ـ من براءته، وأنَّ أهل البدع من الجهمية هم الذين رتَّبوا المؤامرة، ليتمَّ لهم ما

أرادوه من إعادة الإمام إلى سجنه، أو القضاء عليه، فهو الذي كان شجاً في حلوقهم.

فلما صحت عنده براءتُه أرسل إليه كتاب البراءة مع قوصَرة، وهذا نص الكتاب:

«إنَّ أمير المؤمنين قد صح عنده براءتُك مما قُرِفت به، وقد كان أهل البدع ـ أي المعتزلة ـ قد مدّوا أعناقهم، فالحمد لله الذي لم يشمِّتهم بك».

ثم إن المتوكل أخذ ابن البلخي الذي سعى بأبي عبد الله وأرسله إلى أبي عبد الله ليقول فيه مقالته إلى السلطان، فعفا عنه، وقال: لعله يكون له صبيان يحزنهم قتلُه. رحمه الله ما أعظم عفوه.

وبعد حين كتب المتوكل إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة، لا سؤال تعنت ولا امتحان ولا عناد؛ فكتب إليه أحمد رحمه الله رسالة حسنة فيها آثارٌ عن الصحابة وغيرهم وأحاديث مرفوعة، وقد أوردها ابنه صالح في المحنة التي ساقها، وهي مروية عنه، وقد نقلها غير واحد من الحفاظ.

محنة المال:

فلما بلغ المتوكل ذلك، وعلم براءته مما نسب إليه؛ علم أنهم يكذبون عليه كثيراً، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة ـ وهو أحد الحجبَة ـ بعشرة آلاف درهم من الخليفة، وقال: هو يقرأ عليك السلام، ويقول: استنفق هذه، فامتنع من قبولها، فقال: يا أبا عبد الله، إني أخشى من ردِّك إياها أن يقع وحشةٌ بينك وبينه، والمصلحةُ لك في قبولها، فوضعها عنده ثم ذهب.

فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبني عمه وعياله،

وقال: لم أنم هذه الليلة من هذا المال، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم ـ من أهل بغداد والبصرة ـ ثم أصبح ففرقها في الناس، ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين، فلم يُبق منها درهماً، وأعطى منها لأبي أيوب، وأبي سعيد الأشج، وتصدق بالكيس الذي كانت فيه، ولم يعط منها لأهله شيئاً، وهم في غاية الفقر والجهد!! وجاء ابن ابنه فقال: أعطني درهماً، فنظر أحمد إلى ابنه صالح، فتناول صالح قطعة فأعطاها الصبي، فسكت أحمد.

وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلِّها حتى كيسها، فقال علي ابن الجهم: يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك، وماذا يصنع أحمد بالمال؟ إنما يكفيه رغيف، فقال: صدقت!..

سبحان الله! ما أعظم هذه الرجولة! وما أجل هذه القدرة! وما أثبت هذه الإرادة! رجولة وقدرة وإرادة خذل بها الشيطان وأعوانه، ونصر الله دينَه ورسوله، ووقى نفسه شرَّ غدها وعسير حسابها، وثبت ثبات الطود لم تزعزعه عواصف الرياح.

طلب المتوكل الإمام ثانية:

لما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب، وتولى نيابة بغداد عبد الله بن إسحاق؛ كتب[1] المتوكل إليه أن يحمل إليه الإمام أحمد، فقال لأحمد في ذلك، فقال: إني شيخ كبيرٍ ضعيف. فرد الجواب على الخليفة بذلك فأرسَل يعزِم عليه لتأتيَني، وكتب إلى أحمد: إني أحب أن آنس بقربك، وبالنظر إليك، ويحصل لي بركة دعائك، فسار إليه الإمام أحمد ـ وهو عليل ـ في بنيه وبعض أهله، فلما قارب العسكر تلقاهُ وصيف وقال: قد أمكنك الله

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٣٨ ـ ٣٤٠.

من عدوِّك ابن أبي دؤاد، فلم يردَّ عليه جواباً، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف، فلما وصلوا إلى العسكر سرَّ من رأى ـ بسرَّ من رأى ـ أنزل أحمد في دار إيتاخ، فلما عَلِمَ بذلك ارتحل منها، وأمر أن يُستكرى له دارٌ غيرها. وكان رؤوس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده، ويبلّغونه عن الخليفة السلام، ولا يَدخلون عليه حتى يَقلعُوا ما عليهم من الزينة والسلاح، وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الآلات التي تليق بتلك الدار العظيمة.

وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدِّث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام المحنة وما بعدها من السنين المتطاولة، فاعتذر إليه بأنه عليل، وأسنانه تَتحرَّك وهو ضعيف. وكان الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدةً فيها ألوان الأطعمة، والفاكهة والثلج، مما يقاوم مائة وعشرين درهماً في كل يوم، والخليفة يحسَب أنه يأكل من ذلك، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلية، بل كان صائماً يطوي، فمكث ثمانية أيام لم يَستطعم بطعام، ومع ذلك هو مريض، ثم أقسم عليه ولده حتى شرب قليلاً من السَّويق بعد ثمانية أيام.

وجاء عبيدالله بن يحيى بن خاقان بمال جزيل من الخليفة جائزة له فامتنع من قبوله، وألح عليه الأمير فلم يقبل، فأخذها الأمير ففرَّقها على بنيه وأهله، وقال: إنه لا يمكن ردها على الخليفة. وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كل شهرٍ بأربعة آلاف درهم، فمانع أبو عبد الله الخليفة فقال الخليفة: لا بد من ذلك، وما هذا إلا لولدك، فأمسك أبو عبد الله عن ممانعته، ثم أخذ يلوم أهلَه وعمَّه، وقال لهم: إنما بَقِي لنا أيام قلائل، وكأننا نزل بنا الموت، فإمَّا إلى جنة، وإما إلى نار فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء، في كلام طويل يَعظُهم به؛ فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح: «ما

جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه» وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان، فقال: وما هذا وذاك سواءً، ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبالِ. وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين.

هذا أعظم امتحان لإيمان المؤمن، تُعرض الدنيا كلُّها بعزِّها وفخرها ومالها وجميع مغرياتها فيأباها ويرفضها لأنَّ عزه بالله يُحقَر إزاءَه كل عز، وفخره بدينه وطاعة رسوله يصغر معه كل فخر، وغناه بربِّه وفقره إليه يجعلُ مال الدنيا كله في نظره حفنةَ تراب أو جناح بعوضة. هذا عز المؤمن لا يُذلُّه تعذيب ذي سلطان ولا إغراؤه لأنَّه متعلقٌ بقلبه ولسانه بمن يُعزُّ من يشاء ويذل من يشاء.

عناية المتوكل بصحة الإمام:

ولما استمر ضعف الإمام جعل المتوكل يبعث إليه بابن ماسويه المتطبب لينظر في مرضه، فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين، إن أحمد ليس به علة في بدنه، وإنما علته في قلة الطعام، وكثرة الصيام والعبادة فسكت المتوكل.

ثم سألت أم الخليفة منه أن ترى الإمام أحمد، فبعث إليه المتوكل يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعو له، وليكن في حجره، فتمنع الإمام من ذلك، ثم أجاب إليه رجاء أن يعجل برجوعه إلى أهله ببغداد. وبعث الخليفة إليه بخلعة سنيَّة، ومركوب من مراكبه، فامتنع من ركوبه لأنه عليه مثيرة نمور، فجيء ببغل لبعض التجار فركبه، وجاء إلى مجلس المعتز، وقد جلس الخليفة وأمه في ناحية في ذلك المجلس، من وراء ستر رقيق، فلما جاء أحمد قال: سلام عليكم، وجلس ولم يسلم عليه بالإمرة فقالت أم الخليفة: الله الله يا بني في هذا الرجل

ترده إلى أهله، فإنه ليس ممن يريد ما أنتم فيه.

لقد فهمته أم المتوكل، فهو ليس من هذه الدنيا وزخارفها ونعيمها في شيء، إنما همه الآخرة يلقى الله وهو عنه راضٍ.

وحين رأى المتوكل أحمد قال لأمه: قد تأنست الدار. وجاء الخادم ومعه خِلعة سَنِّية مبَطَّنة وثوبٌ وقلنسوة وطيلسان، فألبسها أحمد بيده، وأحمد لا يتحرك بالكلية، قال الإمام أحمد: ولما جلست إلى المعتز قال مؤدِّبه: أصلح الله الأمير، هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدِّبَك فقال: إن علَّمني شيئاً تعلمته، قال أحمد: فتعجبت من ذكائه في صغره لأنه كان صغيراً جداً، فخرج أحمد عنهم، وهو يستغفر الله، ويستعيذ بالله من مقته وغضبه.

ثم بعد أيام أذن له الخليفة بالانصراف، وهيأ له حُرَّاقة فلم يقبل أن ينحدر فيها، بل ركب في زورق فدخل بغداد مختفياً، وأمر أن تباع تلك الخِلعة وأن يُتصدق بثمنها على الفقراء والمساكين، وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول: **سلمت منهم طول عُمري ثم ابتليت بهم في آخره.**

وكان قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً حتى كاد يقتله الجوع، وقد قال بعض الأمراء للمتوكل: إن أحمد لا يأكل لك طعاماً، ولا يشرب لك شراباً، ولا يجلس على فُرُشك، ويحرِّم ما تشربُه. فقال: والله لو نشر المعتصم، وكلمني في أحمد ما قبلت منه. وجعلت رسلُ الخليفة تفد إليه في كلِّ يوم تستعلم أخباره وكيف حاله. وجعل يستفتيه في أموال ابن أبي دؤاد، فلا يجيب بشيء[1].

---

(1) البداية والنهاية ١٠/٣٣٧ ـ ٣٤٠.

عاقبة من اشترك في المحنة ظالماً:

إن الله عزيز ذو انتقام، لا يدع الظلمة المبتدعة ينجون من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة. نأتي هنا على بعض المحن الدنيوية التي أصابت أقواماً كانت لهم يد في إثارتها أو تعذيب من لا يستحق إلا أرفعَ التكريم والإجلال.

أما ابن أبي دؤاد فقد كان قاضي القضاة زمن المعتصم والواثق، فلما جاء المتوكل أقاله من منصبه وأخرجه من «سر من رأى» إلى بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه، وأخذ أمواله كلها[1]. ثم أصيب بالفالج حتى صار ميتاً بين أحياء، يقول عبد العزيز بن يحيى المكي[2]: دخلت على أحمد بن أبي دؤاد، وهو مفلوج فقلت: إني لم آتك عائداً، ولكن جئت لأحمد الله على أن سجنك في جلدك.

وهذا أبوذر كان ممن ضرب أحمد بن حنبل بين يدي المعتصم رآه أبو بكر الشهرزوري بشهرزور كان منقطعاً بالبرص[3].

قال عمران بن موسى: دخلت على أبي العروق الجلاد الذي ضرب أحمد لأنظر إليه، فمكث خمسة وأربعين يوماً ينبح كما ينبح الكلب!!.

وكثير ممن له ضلع بالمحنة نال من الله جزاءه في الدنيا قبلَ الآخرة، حتى أولئك الذين كانوا يتناولونه بلسانهم؛ يقول محمد ابن فضيل: تناولت مرة أحمد بن حنبل فوجدت في لساني ألماً، فلم أجد القرار، فنمتُ ليلة، فأتاني آتٍ، فقال: هذا بتناولك الرجلَ الصالح،

---

(١) البداية ١٠/٣٤٠.

(٢) المناقب ٤٩١.

(٣) ابن عساكر ٧٥ ـ ب.

هذا بتناولك الرجل الصالح؛ فانتبهت فلم أزل أتوبُ إلى الله تعالى حتى سكن[1].

وقال أبو بكر محمد بن علي بن شعيب الطوسي: كتب خالد ابن خداش إلى أبي في اليوم الذي ضُرب فيه أحمد بن حنبل: وأخبرك أن رجلاً بلغه ما صنع بأحمد، فدخل المسجد ليصلي شاكراً فخسف به إلى صدره، فاستغاث الناس فأغاثوه[2].

إنَّ وتراً يكونُ طالبُه اللـ ـه لوترٌ نجاحُه بالحَرِيِّ

رأي أحمد في الواقفية:

من آراء الإمام أحمد التي صدَع بها في كتاب الله قولُه: القرآن كلام الله قديم غير مخلوق، ومنع بقوة أن يقال: القرآن كلام الله، ثم الوقوف عند ذلك، وسمّى هؤلاء بالواقفية. وقد أدان الإمام أحمد كثيراً من كبار العلماء الذي وقفوا عند قولهم هذا، لم يتجاوزوه إمَّا خوفاً من السلطان أو في نفوسهم شيءٌ لم يريدوا أن يظهروه، وإنما نقم عليهم ذلك لأن المعتزلة والجهمية يقولون ذلك أيضاً، ويزيدون على ذلك بأنه مخلوق، يقول سلمةُ بن شبيب: دخلت على أحمد بن حنبل فقلت: ما تقول فيمن يقول: القرآن كلام الله؟ فقال أحمد: من لم يقل: القرآن كلام الله غير مخلوق فهو كافر، ثم قال: لا تشكن في كفرهم؛ فإن من لم يقل: القرآن كلام الله غير مخلوق، فهو يقول: مخلوق، ومن قال: هو مخلوق فهو كافر بالله عز وجل[3].

ومما يرى ـ رحمه الله ـ: إن لفظنا في القرآن غير مخلوق؛ قيل

---

(1) المناقب ٤٨٤.

(2) المصدر نفسه ٤٩٢.

(3) المناقب ١٥٧ ـ ١٥٨.

لأحمد بن حنبل: إن الكرابيسي يقول: لفظي بالقرآن مخلوق. قال: كذَب الخبيثُ هتكه الله. قد خلَف هذا بشراً المرِّيسي[1].

وكان الإمام أحمد يقول: الواقفية والجهمية واللفظية عندنا سواء، وقال: اللفظية شرٌّ من الجهمية[2].

وكان يقول محمد بن عبد الله الصيرَفيّ الشافعي لتلاميذه: اعتبروا بهذين: حسين الكرابيسي، وأبي ثور، فالحسين في علمه وحفظه، وأبو ثور لا يعشره[3] في علمه؛ فتكلم فيه أحمد بن حنبل في باب اللفظ فَسقط، وأثنى على أبي ثور فارتفع[4]. وقد روي عنه في «اللفظ» غير ذلك، فقد روى ابن كثير في البداية عن أحمد[5] ابن حنبل أنه قال: اللفظ مُحدَث، واستدل بقوله: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد﴾ قال: واللفظ للآدميين وروى أيضاً: أن أحمد ابن حنبل أنكر على من يقول: إن لفظه بالقرآن مخلوق، وروي عنه أنه قال: القرآن كيفما تصرف فيه غير مخلوق، وأما أفعالنا فهي مخلوقة[6].

وقيل للكرابيسي[7]: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله غير مخلوق.

فقال له السائل: فما تقول في لفظي بالقرآن؟ فقال: لفظك به

(١ و ٢) المناقب ١٥٧ ـ ١٥٨.
(٣) لا يعشره: أي لا يبلغ معشاره.
(٤) طبقات الشافعية ٢/١٢٠.
(٥) البداية والنهاية ١٠/٣٢٧.
(٦) البداية والنهاية ١٠/١٢٧.
(٧) طبقات الشافعية ٢/١١٨.

مخلوق، فمضى السائل إلى أحمد بن حنبل، فشرح له ما جرى. يقول التاج السبكي: والذي عندنا أن أحمد رضي الله عنه أشار بقوله: «هذه بدعة» إلى الجواب عن مسألة اللفظ، إذ ليست مما يعني المرء، وخوض المرء فيما لا يعنيه من علم الكلام بدعة.

ولعل أدقَّ ما يذهب إليه الإمام أحمد والحنابلة قول ابن تيمية في الرسالة الواسطية ما نصه[1]:

ومن الإيمان به وبكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدا، وإليه يعود وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلامُ غيره ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكايةٌ عن كلام الله أو عبارة، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة، فإن الكلام إنما يضافُ حقيقة إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مبلِّغاً مؤدِّياً.

ويقول صالح بن أحمد: تناهى إليَّ أن أبا طالب ـ فوران ـ يحكي عن أبي أنه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فأخبرت أبي بذلك، فقال: من أخبرك؟ فقلت: فلان، فقال: ابعث إلى أبي طالب، فوجهت إليه فجاء، وجاء فوران، فقال له أبي: أنا قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وغضب، وجعل يُرْعد. فقال: قرأت عليك: قل هو الله أحد، فقلت لي: ليس هذا بمخلوق، فقال له: لم حكيت عني أني قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك وضعت ذلك في كتاب، وكتبتَ به إلى قوم، فإن كان في كتابك فامحه أشدَّ المحو، واكتب إلى القوم الذين كتبت لهم: أني لم أقل ذلك، فجعل

(1) الرسائل الكبرى ١/٣٩٦.

فوران يعتذر له، وانصرف من عنده، وهو مرعوب، فعاد أبو طالب فذكر أنه قد حكَّ ذلك من كتابه وأنه كتب إلى القوم يخبرهم أنه وَهَم على أبي في الحكاية.

أقول: والإمام أحمد حرصاً منه على سلامة القرآن من أن يمس من قريب أو بعيد؛ حكم بالكفر على الواقفية والذين يقولون لفظي بالقرآن مخلوق، ولقد انفرد الإمام وبعض أصحابه في هذا الحكم، وهناك أمة من العلماء الكبار، لم يروا هذا التكفير، وكثيرون منهم يرون هذا الرأي، ولا يجعلون ما نخط وما نطبع وما نلفظ قديماً بل مخلوقاً. غاية ما في الأمر أن هذا الكلام ينبغي ألا يقال لأن السلف لم يقولوه ولأنه دخول فيما لا يعني، وهو نوع من الابتداع. وهذا أحد قولي الإمام أحمد قد نقل عنه بطرق صحيحة.

من يقول: لا مخلوق ولا غير مخلوق ورد الإمام:

في كتاب الإبانة[1] لأبي الحسن الأشعري: قال أبو بكر: أتيت أنا والعباس بن عبد العظيم العنبري أبا عبد الله فسأل العباس بن عبد العظيم أبا عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ فقال له: قوم ههنا قد حدثوا يقولون: القرآن لا مخلوق ولا غير مخلوق. فقال: هؤلاء أضر من الجهمية على الناس، ويلكم، فإن لم تقولوا: ليس مخلوقاً فقولوا مخلوق.

قال أبو عبد الله: «هؤلاء قوم سوء، فقال العباس ما تقول يا أبا عبد الله؟ فقال: الذي أعتقد، وأذهب إليه، ولا شك فيه، أن القرآن غير مخلوق، ثم قال: سبحان الله! ومن شك في هذا؟ ثم تكلم أبو عبد الله مستعظماً للشك في ذلك فقال: سبحان الله! أفي هذا شك؟ قال

(١) الإبانة ٣٣ ـ ٣٤.

الله تبارك وتعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[1] وقال تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان﴾[2]، ففرق بين الإنسان وبين القرآن. فقال: علَّم، خلق. فجعل يعيدها: علَّم، خلق، أيّ فرق بينهما.

قال أبو عبد الله: القرآن من علم الله، ألا تراه يقول: ﴿علَّم القرآن﴾.. والقرآن فيه أسماء الله عز وجل، أيّ شيء يقولون؟ ألا يقولون إن أسماء الله غير مخلوقة؟ لم يزل الله قديراً، عليماً، عزيزاً، حكيماً، سميعاً، بصيراً. لسنا نشك أن أسماء الله عز وجل غير مخلوقة، لسنا نشك أن علم الله غير مخلوق، فالقرآن من علم الله، وفيه أسماء الله، فلا نشك أنه غير مخلوق، وهو كلام الله عز وجل، ولم يزل الله به متكلماً. ثم قال: وأيُّ كفر أكفرُ من هذا؟ وأي كفر أشر من هذا؟ إذا زعموا أن القرآن مخلوق، فقد زعموا أن أسماء الله مخلوقة، وأن علم الله مخلوق، ولكن الناس يتهاونون بهذا، ويقولون: إنما يقولون القرآن مخلوق، ويتهاونون، ويظنون أنه هيّن، ولا يدرون ما فيه، وهو الكفر، وأنا أكره أن أبوح بهذا لكل أحد، وهم يسألون، وأنا أكره الكلام في هذا، فبلغني أنهم يدعون أني أمسك، فقلت له: فمن قال القرآن مخلوق ولا يقولون إن أسماء الله مخلوقة ولا علمه؟!.

ثم قال أبو عبد الله: نحن نحتاج أن نشك في القرآن؟! عندنا فيه أسماء لله، وهو من علم الله، فمن قال: إنه مخلوق فهو عندنا كافر» اهـ.

أقول: أكثر كبار علماء السلف من أهل السنّة والجماعة على تكفير من يقول: القرآن مخلوق، وهذا ما قاله أبو الحسن الأشعري وقد

---

(1) الأعراف «٥٤».
(2) الرحمن «١ ـ ٣».

تقدم. أما المتأخرون، فلم يكفروا أحداً من هؤلاء، وأكثرهم أقرَّ أن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة.

رأي أحمد في التوراة والإنجيل:

ليس القرآن الكريم وحده غير مخلوق عند الإمام أحمد، بل كان يذهب إلى أن التوراة والإنجيل وكل كتاب أنزله الله عز وجل غير مخلوق، إذا سلم له أنه كلام الله تعالى.

انتهاء المحنة:

وهكذا انقضت هذه المحنة التي أقضَّت مضاجع المسلمين، واحترق بنارها كبار العلماء والفقهاء، ثم احترق بها من أرَّثها، بعد أن استمرت نحواً من ست عشرة سنة.

ولولا استبداد الحاكم، واستعباد الأهواء له، وطاعته لعقيدة أقوامٍ لا يصلهم بروح الدين، وحكمة الله في شرعه إلا حبلُ رِمَّة؛ لولا ذلك لكان ينبغي ألَّا يفصل بالقضايا الدقيقة للدين إلا أولئك الذين حملوا على الانحراف بالتعذيب، فصبروا، فهم الثقات الصادقون عند الله، وعند كل مؤمن.

ثناء العلماء عليه للمحنة:

قال علي بن المديني[1]: إن الله أعزَّ هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر الصديق يومَ الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة، وقال الميموني[2]: قال علي بن المديني بالبصرة: يا ميموني ما قام أحد في الإسلام ما قام به أحمد بن حنبل، فتعجبت من هذا عجباً شديداً ـ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قام في الردة وأمرِ الإسلام ما قام به ـ

(١ و ٢) ابن عساكر ٦٧ ـ أ.

قال الميموني: فأتيت أبا عبيد القاسم بن سلام فتعجبت إليه من قول علي، قال: فقال لي مجيباً: إذن نخصَّك، قلت: بأي شيء أبا عبيد ـ وذكرت له أمر أبي بكر ـ قال: إن أبا بكر رضي الله عنه وجد أنصاراً وأعواناً، وإن أحمد بن حنبل لم يجد ناصراً، وأقبل أبو عبيد يطري أبا عبد الله، ويقول: لستُ أعلم في الإسلام مثله.

وقال المزني[1]: أحمد بن حنبل يوم المحنة، وأبو بكر يوم الردة، وعمر يوم السقيفة، وعثمان يوم الدار، وعلي يوم الجمل وصفين. وقال إسحاق بن راهويه[2]: لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لِما بذلها له، لذهب الإسلام.

وكان سعيد يقول[3]: قلت لبشر بن الحارث: ألا صنعت كما صنع أحمد بن حنبل، فقال: تريد مني مرتبة النبيين؟ لا يقوى بدني على هذا، حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه ومن فوقِهِ ومن أسفل منه، وعن يمينه وشماله. وقال محمد بن مصعب العابد[4]: لسوطٌ ضُرِبَ به أحمد بن حنبل في الله أكبر من أيام بشر بن الحارث.

وسئل بشر بن الحارث[5] عن أحمد بن حنبل بعد المحنة فقال: ابن حنبل أدخل الكير فخرج ذهبه أحمرَ. وقال هلال بن العلاء الرقي[6]: مَنَّ الله على هذه الأمَّة بأربعة في زمانهم: بأحمد بن حنبل ثبت في المحنة ولولا ذلك لكفر الناس، وبالشافعي تفقَّه بحديث

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٣٥.
(٢) ابن عساكر ٦٧ ـ أ.
(٣) ابن عساكر ٦٩ ـ أ.
(٤) الحلية ٩/١٧٣.
(٥) ابن عساكر ٦٩ ـ أ، والحلية ٩/١٧٠.
(٦) ابن عساكر٧٢ ـ ب وتهذيب التهذيب ١/٧٥.

رسول الله ﷺ، وبيحيى بن معين نفى الكذب عن حديث رسول الله ﷺ، وبأبي عبيد القاسم بن سلام فسَّر الغريب من حديث رسول الله ﷺ، ولولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ.

قال أبو حاتم الرازي: قلت لأحمد بن حنبل: كيف تخلَّصت من سيف المعتصم وسوط الواثق؟ فقال لي: يا أبا زُرعة لو جُعل الصدقُ على جُرح لبرأ.

وقال هلال بن العلاء أيضاً[1]: ثنتان لو لم يكونا في الناس لاحتاج الناس إليهما: محنةُ أحمد بن حنبل لولاه لصار الناس جَهمية، ومحمد بن إدريس الشافعي، فإنه فتح للناس الأقفال.

وقال أبو بكر النجاحي[2]: لما كان في تلك الغداة التي ضُرب فيها أحمد بن حنبل زلزلنا ونحن بعبادان.

وقال قتيبة بن سعيد[3]: لولا أحمد بن حنبل، لأحدِث في الدين، فقلت: تقيسُ أحمد بالثوري، فقال: أقيس أحمد بعلية التابعين، إن أحمد قام في الأمة مَقام النبوة. قال البيهقي: يعني في صبرِه على ما أصابه من الأذى في ذاتِ الله.

وقال ابن حبان في الثقات[4]: أغاث الله بأحمد أمةَ محمد ﷺ، وذلك أنه ثبت في المحنة، وبذل نفسَه لله، حتى ضُرب بالسياط للقتل، فعصمه الله تعالى عن الكفر، وجعله عَلَماً يُقتدى به، ومَلْجأً يُلجأ إليه.

---

(١) ابن عساكر ٧٥ ـ ب.
(٢) ابن عساكر ٧٦ ـ ب، وأبو بكر هذا هو يوسف بن يعقوب النجاحي.
(٣) ابن عساكر ٦٦ ـ ب.
(٤) تهذيب التهذيب ١/٧٥.

وكان حجاجُ بن الشاعر يقول[1]: ما كنتُ أحبُّ أن أقتل في سبيل الله، ولم أصلِّ على أحمد بن حنبل.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: إذا رأيتم الرجل يحبُّ أحمد بن حنبل فاعلموا أنه صاحبُ سنّة، ويقول أيضاً: سمعت أبا جعفر محمد بن هارون الخرمي القلاس: إذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع[2].

وقال أبو زرعة[3]: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل أشدَّ قلباً منه، أن يكونَ قام ذلك المقام، ويرى ما يمر به من الضرب والقتل، قال: وما قام أحدٌ مثلَ ما قامَ أحمد امتحن كذا كذا سنّة وطُلِب، فما ثبت أحد على ما ثبتَ عليه.

شدته على أهل البدع:

كان يقول ـ رحمه الله ـ: الداعية إلى البدعة لا توبة له، فأمّا من ليس بداعية فتوبتُه مقبُولة. ويقول: من دعا منهم ـ أي من الأئمة ـ إلى بدعة فلا تجيبوه ولا كَرامة، وإن قدرتم على خلعه فافعلوا[4].

يقول أبو القاسم النصر أباذي: بلغني أن الحارثَ المحاسبي تكلّم في شيء من الكلام، فهجرَه أحمد بن حنبل، فاختفى في دار ببغداد ومات فيها، ولم يصلِّ عليه إلا أربعة نفر[5].

وفي طبقات الحنابلة[6]: كان ـ أي الإمام أحمد ـ شديداً على أهل البدع، أو مَن قاربهم إن لم يباينْهم وإن كان صحيح الاعتقاد.

وقد هجر رحمه الله علي بن المديني، ويحيى بن معين، والحسين

---

(١) الحلية ١٧٣/٩.
(٢) ابن عساكر ٧٠ ـ ب.
(٣) الحلية ١٧١/٩.
(٤) طبقات الحنابلة ٣٠٥/٢.
(٥) المناقب ١٨٦.
(٦) طبقات ٢٨٩/٢.

الكرابيسي إلى أن تاب يحيى عنده.

وما كان يقولُ إلا الخير فيمن يعلمُ فيه الخير، وكان يُمسك عمَّن أمسك، ولم يُظهر ما يوجب الامتناعَ منه.

وقال الإمام أحمد[1]: ما أعلم الناسَ في زمان أحوجَ منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان، قيل: ولم؟ قال: ظهرتْ بِدَع فمن لم يكن عنده حديث وقَع فيها.

أقول: هذا في عصره، فما نقول في عصرنا الذي صارت فيه البدعة هي الأصل وهي السنّة، أمّا من قال بالسنّة أو انتصر لها أو حاول أن ينبِّه الناس إليها، فهو - في مفهوم من سُمُّوا علماء - صاحب بدعة، فيحذَّر منه ويشار إليه، ويستغاب في المجالس!!.

لقد انقلبت المفاهيم فأصبح الأبيض أسود والأسود أبيض، والسنّة بدعة والبدعة سنّة، فمتى يستعملُ الناسُ عقولهم ليميزوا الباطل من الحق، ويبينوا الخطأ من الصواب، ويَدَعوا كل ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[2] إلا بدليل من كتاب الله وسنّة رسول الله يُثبت أو يُبطل؟! ويستمسكوا بالطريقة العلمية العقلية التي حددها الله بقوله سبحانه: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾[3] أي لا تتبع غيرك بغير علم وكتاب منير، وبقوله سبحانه: ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾[4].

---

(١) المناقب ١٨٣.

(٢) الزخرف «٢٣». والأمة في الآية: الدين والملة.

(٣) الإسراء «٢٦».

(٤) يوسف «١٠٨» والبصيرة: هي اليقين.

أخلاق الإمام الرّفيعة

كان الإمام أحمد أحد القلة النادرين في جميع العصور، من زمن التابعين إلى يوم الناس هذا؛ ممن جعل حياته كلّها بأحاسيسها ونوازعها وشهواتها وأفكارها، بالخفي منها والظاهر، مع الناس أو مع نفسه؛ رهناً لشريعة الله. كان لا يتكلم ولا يفكر ولا يُحس ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا إذا أذن له الشرع بذلك، أو أن قدوتَه رسول الله ﷺ أقرَّ ذلك أو فعله، وسنتحدث عن هذه الأخلاق باباً باباً.

تمسك أحمد بالسنّة:

يقول عبد الملك الميموني[1]: ما رأت عيني أفضلَ من أحمد ابن حنبل، وما رأيت أحداً من المحدِّثين أشدَّ تعظيماً لحُرمات الله عز وجل، وسنّة نبيه ﷺ إذا صحت عنده، ولا أشدَّ اتباعاً منه.

وقال أيضاً[2]: قال لي أحمد بن حنبل: يا أبا الحسن إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام.

وقال أبو بكر المروزي[3]: قلت لأبي عبد الله: من مات على الإسلام والسنّة مات على خير؟ فقال لي: من مات على الإسلام والسنّة مات على الخير كله.

(١ و ٢) المناقب ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٣) المصدر نفسه ١٨٠.

وكان رحمه الله يقول[1]: من رَدَّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شَفا هلكة.

وكان يقول أيضاً: ما كتبتُ حديثاً عن النبي ﷺ إلا وقد عملتُ به.

وقيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل[2]: أحياك الله يا أبا عبد الله على الإسلام، قال: والسُّنّة.

وقال إبراهيم بن هانىء[3]: اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام، ثم قال: اطلب لي موضعاً حتى أتحول إليه، قلت: لا آمن عليك يا أبا عبد الله، قال: إذا فعلت أفدتك، فطلبت له موضعاً، فلما خرج قال لي: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، ثم تحوَّل، وليس ينبغي أن نتبع رسول الله في الرخاء، ونتركه في الشدة.

ومن عظيم اتِّباعه[4]: أنه كان يفعل ما كان النبي ﷺ يفعله ولا يفعل ما لم يفعله، حتى أنه كان إذا احتجم أعطى الحجّام ديناراً، لأنه روي أن رسول الله ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، وأنه تسرَّى مع عدم رغبة الطبيعة فيه، بل تسرى لأنه علم أن النبي ﷺ تسرَّى، وقد استأذن زوجته في ذلك، فأذنت له لتعينه على الاتباع.

هذا هو الإمام أحمد الذي كان أعلم عصره بسنّةِ رسول الله وأشدَّهم لها اتباعاً وبها تعلقاً، وأعرف عصره بفقه الصحابة والتابعين وما كانوا عليه من تقوى وصلاح واتباع، فإن لم يجد ما يتبعه بالسنّة ووجده عند الصحابة والتابعين عمل به مطمئناً راضياً، وكان ـ رحمه

---

(١) «أحمد بن حنبل» لأبي زهرة ٩٠.
(٢) المناقب ١٧٧.
(٣) الحلية ٩/١٨٠.
(٤) «أحمد بن حنبل» لأبي زهرة ٣٣.

الله ـ أشدَّ ما يكون على المبتدعة، ولو ظنُّوا أن بدعتهم عبادةٌ وطاعة.

ورع الإمام:

أصل الورع: الكف عن المحارم، والتَّحرُّج منها، ثم استُعير للكف عن المشتبه، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه[1]: «كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام». وأساس كل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «الحلال بيِّن والحرام بين، وبينهما أمور مُشتبهات لا يعرفهنَّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن ويقع في الشبهات وقع في الحرام.. الحديث» وقوله ﷺ: «دَعْ ما يَريبك إلى ما لا يَريبك».

والإمام أحمد أخذ بالورع إخذ أصدق الناس زُهداً، فكان ـ رحمه الله ـ يدعُ الشبهة مهما يخفَ أمرُها حتى على ذي الورع، لقد عاش فقيراً، كثير العيال، ولم يكن له من غلة إلا ملكٌ ورثه عن أبيه يؤجره في كل شهر سبعة عشر درهماً ينفقها على عياله، ويقنع بذلك رحمه الله صابراً محتسباً. وربما اضطر فنسخ بالأجرة، ومع كل هذه الحاجة كان لا يستطيب مال السلطان، ولا طعامه، لأنه يظن أن أكثره من التسلط والغصب، والباطل.

وكان يمتنع من الطعام عند من يأخذ جائزة السلطان، بل كان يقاطعه، ولا يصلي وراءه إن صلى إماماً ولو كان أقرب الناس إليه.

أما من حيث ورعه في الفقه، فقد كان في ذلك مضرب المثل، فإنه إذا صحت لديه روايات متعددة عن الصحابة، لم يحاول أن يرجح بينها، بل أثبتها كلها، ورويت عنه جميعها من غير ترجيح؛ وليس ذلك

---

(١) شرح الرسالة القشيرية مع حاشية العروسي ١٥٦/٢.

منه عجزاً عن الترجيح، وإنما كان يتورع أن يلتزم بقول أحد منهم أو عمله، ويكون الحق والصواب مع آخر.

وكذلك كان ورعه في فتاويه، فإن كان هناك من يجيب المستفتي فبها ونعمت، ويكفى الحرج وإلا شدَّد في الاحتياط لدينه؛ ورد الفتوى إلى ما قال الله ورسوله، فإن لم يجد ردَّها إلى الصحابة رضي الله عنهم، أو ردَّها إلى التابعين.

وأما ورعه في أخذ الحديث وإعطائه، فإنه ـ مع حفظه المتين لمئات الألوف من الأحاديث ـ لم يكن يلقي الأحاديث إلا من كتاب.

هذا وسنورد بعض ما ورد من الحكايات في الورع عنه:

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل[1]: مكث أبي بالعسكر عند الخليفة ـ المتوكل ـ ستة عشر يوماً لم يأكل فيها إلا رُبعَ مُدٍّ سويقاً، يُفطر بعد كل ثلاث ليالٍ على سُفة منه، حتى رجع إلى بيته ولم ترجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر، وقد رأيت مُوقَيه دخلا في حَدَقتيه، كأنه لم يُرد أن يتناول من الطعام أكثر مما يُمسك رَمقه، مع أن الخليفة كان يبعث إليه المائدة فيها أشياء كثيرة من أنواع المأكولات، وكان أحمد لا يتناول منها شيئاً كما قال البيهقي[2]، وتقدم هذا.

وروي أنه كان لا يُصلي خلف عمِّه إسحاق، ولا خلف بنيه، ولا يكلِّمهم أيضاً، لأنَّهم أخذوا جائزة السلطان[3].

وقال البيهقي[4]: وبعث المأمون مرةً ذهباً يُقسم على أصحاب الحديث، فما بقي أحدٌ إلا أخذ إلا أحمدُ بن حنبل فإنه أبى.

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٢٨.

(٢ و ٣ و٤) البداية والنهاية ١٠/٣٢٨.

وقال أحمد بن محمد القُشيري[1]: ذكروا أنه أتى عليه ـ يعني أحمد بن حنبل ـ ثلاثة أيام ما كان طعِم فيها، فبعث إلى صديقٍ له، فاستقرض شيئاً من الدقيق، فعرفوا في البيت شدة حاجته إلى الطعام فخبزوا له بالعجلة، فلما وُضع بين يديه، قال: كيف عملتم، خبزتم بسرعة؟ فقيل له: كان التنور في دار صالح ابنه مُسجراً، وخبزوا بالعجلة، فقال: ارفعوا، ولم يأكل، وأمر بسد بابه إلى دار صالح.

يقول جعفر بن محمد بن يعقوب[2]: جاء يوماً رسولٌ إلى دار أحمد ابن حنبل يذكر له أن أبا عبد الرحمن عليل واشتهى الزبد، فناول رجلاً من أصحابه قطعة، وقال: اشترِ له زبداً، فجاء به على ورقِ سلقٍ، فلما أن نظر إليه قال: من أين هذا الورق؟ قال: أخذته من عند البقال، فقال استأذنته في ذلك؟ قال: لا. قال: ردَّه.

وقال صالح بن أحمد[3]: كان رجل يختلف مع خلف المخرمي إلى عفّان، يقال له: أحمد بن الحكيم العطار، فختن بعضَ ولده، فدعا يحيى وأبا خيثمة وجماعة من أصحاب الحديث، وطلب من أبي أن يحضر، فمضوا ومضى أبي بعدهم، وأنا معه، فلما دخل أُجلِسَ في بيت، ومعه جماعة من أصحاب الحديث، ممن كان يختلف معه إلى عفان، فكان فيهم رجلٌ يكنى بأبي بكر، يُعرف بالأحول، فقال له: يا أبا عبد الله، ههنا آنيةُ فِضة؛ فإذا كرسي[4]، فقام وخرج وتبعه

---

(١) ابن عساكر ٧٢ ـ ب.

(٢) نفس المصدر ٧٤ ـ أ.

(٣) الحلية ٩/١٨٢.

(٤) كذا في الحلية ولعل الصواب الكرس: وهو واحد الأكراس: وهي القلائد المضموم بعضها إلى بعض، وكذلك هي من الوشح ونحوها. اهـ. من اللسان والقاموس.

من كان في البيت. وسأل من كان في الدار عن خروجه فأخبروا، فتبعه منهم جماعة، وأخبر الرجل فلحق أبي، وجاء الرجل عفان، فقال له: يا أبا عثمان، اطلب إلى أبي عبد الله يرجع، فكلمه عفان فأبى أن يرجع، ونزل بالرجل أمر عظيم.

ويقول سليمان بن داود: حضرت أحمد بن حنبل باليمن وقد رهن سطلاً عند فامي[1]، فجاء بفكة، وأخرج إليه سطلين، وقال: خذ، أيهما سطلك؟ قال: لا أدري؟ فلم يأخذه، وترك الفكاك عليه. قال سليمان: فقلت للفامي: أخرجت سطلين إلى رجل من أهل الورع، والسطول تتشابه، حتى شك فيه، فقال: والله إنه لسطله بعينه، قال: فسمعت أحمد بن حنبل يقول له: أنت في حل منه ومن الفكاك[2].

وقال قتيبة بن سعيد الأصم[3]: لا تضم إلى أحمد أحداً، ولولا أحمد لمات الورع، ما أعظم مِنَّة أحمد بن حنبل على جميع المسلمين، وما أحقَّ على كل مسلم أن يستغفر له.

زهده رحمه الله:

الزهد: هو الإعراض بالقلب عن الدنيا، وهو رأس كلِّ طاعة، فبه فراغ القلب من مشاغل الدنيا والاستعزاز بالله وحده، والاستغناء عن جميع المخلوقات، والتلذُّذ بالمناجاة، والسلامة من التبعات. والزهد زهدان: زهد في الحرام وهو واجب، وزهد في الحلال وهو فضيلة وأساس ذلك قوله تعالى: ﴿ قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى ﴾. ولا يكون زهد بلا ورع، وقال الإمام أحمد في الزهد[4]: إنه

---

(١) الفامي: بائع الثوم والحنطة والحمص والخبز وغير ذلك.
(٢) ابن عساكر ٧٢ ـ ب والحلية ٩/١٦٩.
(٣) الحلية ٩/١٧٩.
(٤) مدارج السالكين ٢/١١.

عدم فرحه بإقبالها ـ أي الدنيا ـ ولا حزنه على إدبارها، فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألفُ دينار، هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم، على شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

والإمام أحمد سبق بزهده المشروع كثيراً من الزهّاد، وقد صنف الإمام أحمد في الزهد كتاباً حافلاً عظيماً لم يُسبق إلى مثله، ولم يلحقه أحد فيه، والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه رحمه الله كما يقول ابن كثير[1].

قال أبو داود: كانت مجالس أحمد مجالسَ الآخرة، لا يُذكر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط[2].

وقال إسحاق بن هانىء[3]: بكرت يوماً لأعارض أحمد بالزهد، فبسطت له حصيراً ومِخَدة، فنظر إلى الحصيرة والمخدة، فقال: ما هذا؟ قلت لتجلسَ عليه، فقال: ارفعه، الزهد لا يحسن إلا بالزهد فرفعته، وجلس على التراب.

أقول: ما كان الإمام أحمد ليتكلف الزهد، ولكنه هنا شعر أن إسحاق يريد معارضته بالزهد فجاراه في ميدانه، وأربى عليه.

وقال صالح بن أحمد بن حنبل[4]: وقال لي يوماً ـ يعني أباه ـ: أنا إذا لم يكن عندي قطعةٌ ـ أي من النقد ـ أفرح.

وقال علي بن المديني[5]: دخلت منزل أحمد بن حنبل، فما بيته إلا بما وُصِفَ به بيت سويد بن غَفَلة من زهده وتواضعه.

(١ و ٢) البداية والنهاية ١٠/٣٢٩.
(٣) طبقات الحنابلة ١/١٠.
(٤) ابن عساكر ٧٣ ـ ب.
(٥) الحلية ٩/١٧٤.

وقال نصر بن علي[1]: أحمد بن حنبل أمره بالآخرة كان أفضل، لأنه أتته الدنيا فدفعها عنه.

وقال إبراهيم بن متة السمرقندي[2]: سألت أبا محمد عبد الله ابن عبد الرحمن عن أحمد بن حنبل، قلت: هو إمام؟؟ قال: إي والله، قال: أحمد بن حنبل صبر على الفقر سبعين سنة.

وقال أبو بكر المروزي[3]: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما أعْدِل بالفقر شيئاً، أتدري الصبر على الفقر أيُّ شيءٍ هو؟ قد رأيت قوماً صالحين: لقد رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جُبة لبود، وقد أتى عليه السنون والدهور، ولقد رأيت أبا داود الجعفي، وعليه جبة مُخرَّقة، قد خرج القطن منها، يصلّي بين المغرب والعشاء، وهو يترجح من الجوع، ورأيت أيوب بن النجار بمكة قد خرج مما كان فيه، ومعه رشاء يَستقي به بمكة وقد خرج من كل ما يملكه، وكان من العابدين، وكان في دنيا فتركها في يدي يحيى القطان، وقد رأيت ابن بجالة العابد، وكنت أسمع صوت خفِّه في الطواف بالليل، ولقد كان في المسجد رجل يقال له العرفي يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي، قال: فاشتهيت النظر إليه، فإذا هو شاب مصفر، ولقد رأيت حسيناً الجعفي، وكان يشبَّه بالراهب، ما رأيت بالكوفة أفضل من حسين الجعفي، وسعيد بن عامر بالبصرة.

وقال أبو عمرو بن النحاس[4] ـ وذكر أحمد يوماً ـ فقال: رحمه

---

(١) الحلية ٩/١٨٠.
(٢) المناقب ٢٤٤.
(٣) نفس المصدر ٥٦.
(٤) البداية ١٠/٣٣٦.

الله؛ في الدين ما كان أبصرَه، وعن الدنيا ما كان أصْبَره، وفي الزهد ما كان أخْبَره، وبالصالحين ما كان ألحَقَه، وبالماضين ما كان أشبَهَه، عُرضت عليه الدنيا فأباها، والبدعُ فنفاها.

ومن عظيم زهده وورعه إعراضه الشديد عن تولي القضاء ـ مع مسيس حاجته ـ فقد روى البيهقي[1] من طريق المزني عن الشافعي أنه قال للرشيد: إن اليمن يحتاج إلى قاضٍ، فقال له: اختر رجلاً نولِّه إياها، فقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه في جملة من يأخذ عنه: ألا تقبل قضاء اليمن؟ فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً وقال للشافعي: إني إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهِّد في الدنيا، فتأمرني أن ألِي القضاء، ولولا العلم لم أكلِّمك بعدَ اليوم، فاستحى الشافعي منه.

تعفف الإمام:

في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرض عليَّ أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار: فأمّا أول ثلاثة يدخلون الجنة، فالشهيد، وعبد مملوك أدى حق الله ونصح لمواليه، وعفيف متعفف.

وأما أول ثلاثة يدخلون النار فذو ثروة من مال لا يؤدي فيه حق الله عز وجل، وفقير فجور، وإمام جائر. أو قال مسلط»[2].

والذي يدخل في موضوعنا هنا أحد الثلاثة الذين هم أول الناس دخولاً إلى الجنة: وهو العفيف المتعفف، وقلّ في عصر أحمد من له

---

(1) البداية والنهاية ١٠/٣٢٨.

(2) الحديث في ابن عساكر ١٠١ ـ ب وهو أيضاً في مسند أحمد والحاكم والبيهقي ورمز إليه السيوطي بالحسن.

مثل عفته. والعفة: قطع الطَّمع عمّا في أيدي الناس من حُكامٍ ومحكومين، ولو في شدة الفقر وكَلَب الحاجة، ووصف بعضهم قوماً فقال: أعفَّةُ الفقر، وقال عمرو بن الأهتم:

جُـرثـومـةٌ أنُفٌ يَعـتـفُ مـقْتِـرهـا
عن الخبيث، ويُعطي الخير مُثريها[1]

هذه عفة الفقر، فما بالك بمن يطمع في الثراء؟!

والعالم العَف يجد من الخلق إجلالاً ومحبة وتقديراً من الخاصة والعامة، فالعفة والقناعة عز، والطمع والرغبة ذل، واليد العليا خير من اليد السفلى.

ولو أردنا أن نأتي هنا على جميع ما روي عن الإمام أحمد في العفة لضاق هذا المقام عن ذلك.

يقول أحمد بن سنان الواسطي[2]: بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعلَه عند خباز على طعامٍ أخذه منه عند خروجه من اليمن، وأكرى نفسَه من ناس من الجمّالين عند خروجه من اليمن، وعرض عليه عبد الرزاق دراهم صالحة فلم يقبلها.

رهن نعلَه ليأكل، وأكْرى نفسَه، وأبى أن يأخذ حتى من شيخه عبد الرزاق، وقهرت عفتُه كلَّ طمع حتى عند أمسّ الحاجة.

قال محمد بن إسماعيل السلمي[3]: قال لي إسحاق بن راهويه:

---

(١) الجرثومة: الحسب والنسب، والأنف: جمع أنوف: وهو الذي به أنفة ونحوه. والمقتر: الفقير المقل. يقول: إنهم شرفاء يَعفون عند الفقر والحاجة، وإذا اغتنوا يعطون الخير.

(٢) ابن عساكر ٧٣ ـ أ.

(٣) ابن عساكر ٧٣ ـ أ.

أخبرك عن أبي عبد الله بشيء، كنت أنا وهو باليمن عند عبد الرزاق، وكنت أنا فوق في الغرفة، وهو أسفل، وكنت إذا جئت لموضع اشتريت جارية، فنزلت يوماً فقلت: يا أبا عبد الله، نحن فوق، وأنت أسفل، ربما تحرَّكنا، إن رأيت أن تكون فوق ونحن أسفل فقال: لا، ذاك أرفق بي، وأنا يسرني ما أنتم فيه، فاطلعت على أن نفقته فنيت، فعرضت عليه فأبى، قلت يا أبا عبد الله: إن شئت قرضاً، وإن شئت صِلةً، فأبى، فنظرت فإذا هو ينسج التِكَك ويبيع وينفق.

سبحان الله! ينسُج التِكك ويبيع! ولو أنه فتح باب قبول العَطاء قليلاً لكان من أغنياء عصره، ولكن أبت شيمُه المسلمة أن يُزهق عفته، ويُظهر حاجته.

قال علي بن الجهم بن بدر[1]: كان لنا جارٌ فأخرج لنا كتاباً فقال: أتعرفون هذا الخط؟ قلنا نعم، هذا خط أحمد بن حنبل، فقلنا له: كيف كتبَ ذلك؟ قال: كنا بمكة مُقيمين عند سُفيان بن عيينة، ففقَدنا أحمد بن حنبل أياماً لم نره، ثم جئنا إليه نسأل عنه، فقال لنا أهل الدار التي هو فيها: هو في ذلك البيت، فجئنا إليه في ذلك البيت، والباب مردود عليه، وإذا عليه خُلْقان. فقلنا له: يا أبا عبد الله ما خبرك[2]؟ لم نرك منذ أيام، فقال: سُرقت ثيابي، فقلت له: معي دنانير، فإن شئت فخذ قرضاً، وإن شئت صِلةً، فأبى أن يفعل، فقلت: تكتب لي بأجرة؟ قال: نعم، وأخرجت ديناراً فأبى أن يأخذه، وقال لي: اشترِ لي ثوباً، واقطعْه بنصفين، فأومأ أنه يأتزر بنصف

---

(١) ابن عساكر ٧٢ ـ ب.
(٢) في ابن عساكر: ما خباؤك.

ويرتدي بالنصف الآخر، وقال: جئني ببقيته ففعلت، فجئت بورق، فكتب لي، فهذا خطه.

قال صالح بن أحمد بن حنبل[1]: دخلت على أبي في أيام الواثق - والله يعلم في أي حالة نحن - وقد خرج لصلاة العصر، وقد كان له لبد يجلس عليه، قد أتت عليه سنون كثيرة حتى لقد بلي، فإذا تحته كتاب كاغد، وإذا فيه: بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق، وما عليك من الدين، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان، لتقضي بها دينك، وتوسِّع بها على عيالك، وما هي من صدقة ولا زكاة، وإنما هي شيء ورثته من أبي.

فقرأت الكتاب ووضعته، فلما دخل، قلت: يا أبي ما هذا الكتاب؟ فاحمر وجهُه وقال: رفعته منك، ثم قال: تذهب بجوابه فكتب إلى الرجل: وصل كتابك إليَّ ونحن في عافية. فأمّا الدَّين فإنه لرجل لا يُرهقنا، وأمَّا عيالنا فهم في نعمة والحمد لله. فذهبت بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فقال: ويحك! لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في الدجلة كان مأجوراً؛ لأن هذا رجل لا يُعرف له معروف، فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك. فردَّ عليه الجواب بمثل ما رد، فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها فقال: لو كنَّا قبلناها كانت قد ذهبت.

رقَّ للإمام قلب من لا يعرفِ المعروف، ومع ذلك لم يرَ لنفسه مبرِّراً أن يأخذ مالاً لا يدَ له في تحصيله.

وقال أحمد بن محمد التستري[2]: كان غلام من الصيَّارفة يختلف

---

(1) الحلية ٩/١٧٨.

(2) ابن عساكر ٧٣ - ب والحلية ٩/١٧٦.

إلى أحمد بن حنبل، فناوله يوماً درهمين وَقال: اشترِ به كاغَداً فخرج الغلام، واشترى له، وجعل في جوف الكاغد خمسمائة دينار، وشدَّه وأوصله إلى بيت أحمد، فسأل فقال: حمل شيئاً من البياض؟ فقالوا: بلى، فوضع بين يديه، فلما فتحه تناثرت الدنانير، فردها في مكانه، وسأل عن الغلام حتى دُلّ عليه، فوضعه بين يديه، فتبعه الفتى وهو يقول: الكاغَد اشتريته بدراهمك خذه فأبى أن يأخذ الكاغَد أيضاً.

وقال محمد بن موسى بن حماد البربري[1]: حُمل إلى الحسن ابن عبد العزيز الجروي ميراثه من مصر ـ مائة ألف دينار ـ فَحَمل إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس، كل كيس ألف دينار، فقال: يا أبا عبد الله، هذه من ميراث حلال، فخذها، فاستعن بها على عَيْلتك، قال: لا حاجة لي بها، أنا في كفاية فردَّها، ولم يقبل منها شيئاً.

وقال محمد بن سعيد الترمذي[2]: قدم صديقٌ لنا من خراسان فقال: إني اتخذت بضاعة، ونويت أن أجعل ربحها لأحمد بن حنبل، فخرج ربحُها عشرة آلاف درهم، فأردتُ حملها إليه، ثم قلت: حتى أذهب إليه فأنظر كيف الأمرُ عنده، فذهبتُ إليه فسلَّمت عليه فقلت: فلان، فعرفه، فقلت: إنه أبْضعَ بضاعةً وجعل ربحها لك، وهو عشرةُ آلاف درهم، فقال: جزاه الله عن العناية خيراً، نحن في غنىً وسعة، وأبى أن يأخذها. وفي رواية عن المروزي[3]: فراجعه ـ أي التاجر ـ فقال: دعنا نكن أعزاء.

وقال حمدان بن سنان الواسطي[4]: قدم علينا أحمد بن حنبل ومعه

(١) ابن عساكر ٧٣ ـ ب والحلية ١٧٥/٩.
(٢) ابن عساكر ٧٣ ـ ب.
(٣) المناقب ٢٣٣.
(٤) ابن عساكر ٧٢ ـ ب.

جماعة، قال: فنفدت نفقاتهم، قال: فبررتهم فأخذوا، قال: وجاءني أحمد بن حنبل بفروة، فقال لي: قل لمن يبيع هذه فيجيئني بثمنها فأتسع به، قال: فأخذت صرة دراهم، فمضيت بها إليه فردَّها، قال: فقالت امرأتي: هذا رجل صالحٌ لعلَّه لم يرضها، فأضعِفْها، قال: فأضعفتها، فلم يقبل، فأخذ الفروة مني وخرج.

قال صالح بن أحمد بن حنبل[1]: قال فوران أبو محمد لأبي: عندي خُف، أبعث به إليك؟ فسكت، فلما عاد إليه أبو محمد قال: يا أبا محمد لا تبعث بالخف فقد شغل قلبي.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل[2] حدثني إسماعيل بن أبي الحارث قال: كان عندنا شيخٌ مروزي، فجاء إليه أحمد بن حنبل، ثم خرج، فقلت له: في أي شيء جاءك أبو عبد الله؟ فقال: هو لي صديق وبيني وبينه أُنس، وتلكأ أن يخبرنا فألححنا عليه فقال: كان استقرض مني مائتي درهم، فجاءني بها فقلت: يا أبا عبد الله، ما دفعتها وأنا أنوي أن آخذها منك، فقال: وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوي أن أردَّها إليك.

هذا غيض من فيض فيما روي من تعففه عليه رحمة الله، ولقد تنوعت عليه أساليب الإعطاء من الأمراء والسوقة، من العلماء والعامة، من شيوخه وإخوانه، وكلهم كان لهم منه جواب واحد أنه بخير وأنه في كفاية، وأنه في غنىً وسعة. هذه هي الرجولة الكاملة العزيزة التي لا يذلها شيء، وهذه هي الإرادة الصلبة الصادقة التي لم يزحزحها أقوى المغريات جاذبية: المال. المال مع شدة الحاجة إليه، المال الذي أخضع الملايين من الرؤوس الشامخة، المال الذي هُدِرت من أجله

(١) ابن عساكر ٧٤ ـ أ.

(٢) المناقب ٢٣١ والحلية ٩/١٧٥.

الكرامة والمروءة والشرف والدين، لم يثبت أمام خيله ورَجِله إلا القلة من الرجال المتسلحين بعزة الله وحوله وقوته.

جوده وبذله:

قيل فيه ـ رحمه الله ـ: إنه شديد الحياء، كريم الأخلاق، يعجبه السخاء. والمؤمن الكامل الإيمان شجاع مقدام، والشجاع كريم، والإمام أحمد شجاع وكريم.

قال يحيى بن هلال الوراق[1]: جئت إلى محمد بن عبد الله ابن نمير، فشكوت إليه، فأخرج إليّ أربعة دراهم، أو خمسة دراهم، وقال: هذا نصف ما أملك، قال: وجئت إلى أبي عبد الله أحمد ابن حنبل فأخرج إلي أربعة دراهم وقال: هذه جميع ما أملك.

وقال أبو بكر المروزي[2]: كان أبو عبد الله ربما واسى من قُوته، وجاءه أبو سعيد الضرير، فشكا إليه فقال له الإمام: يا أبا سعيد ما عندنا إلا هذا الجذع، فجيء بحمال يحمله، قال أبو سعيد الضرير: فأخذت الجذع فبعته بتسعة دراهم ودانقين.

وقال أبو محمد جعفر بن محمد النسائي[3]: قال لي أبو عبد الله يوم عيد: ادخل، فدخلت فإذا مائدة وقصعة على الخوان، وعليها عُراق[4]، وقِدر إلى جانبه، فقال لي: كلْ، فلما رأى ما بي قال: إن الحسن كان يقول: والله لتأكلنَّ، وكان ابن سيرين يقول: إنما وضع الطعام ليؤكل. وكان إبراهيم بن أدهم يبيع ثيابه،

(١ و ٢) المناقب ٢٤٠.
(٣) المناقب ٢٤١.
(٤) عراق: عظم أُكل لحمه.

وينفقها على أصحابه، وكانت الدنيا أهونَ عليه من ذاك ـ وأومى إلى جذع مطروح ـ فانبسطتُ وأكلت.

ويقول علي بن يحيى[1]: صليت الجمعة إلى جنب أحمد ابن حنبل، فلما سلم الإمام، قام سائل يسأل الناس، فأخرج أحمد قطعة فدفعها إليه، فقال له رجل: ناولني قطعتك، ولك بها درهم فما زال يزيدُه حتى بلغ خمسين درهماً، فقال له السائل: لا أعطيك، إني لأرجو فيها ما ترجو ـ أي من الخير والبركة ـ.

قال أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسي[2]: وقع من يد أبي عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ مقراض في البئر، فجاء ساكن له فأخرجه ـ فلما أن أخرجه ناوله أبو عبد الله مقدار نصف درهم أو أقل أو أكثر ـ فقال: المقراض يسوى قيراطاً، لا آخذ شيئاً، فخرج، فلما كان بعد أيام قال له: كم عليك من كِراء الحانوت؟ فقال: كراء ثلاثة أشهر، وكراؤه في كل شهر ثلاثة دراهم، فضرب على حسابه، وقال: أنت في حل.

كان يقبل الهدية ويجازي عليها:

قال أبو بكر المروزي[3]: رأيت أبا عبد الله وقد أهدى إليه إنسان ماءَ زمزم، فأرسل إليه سويقاً وسكراً، وأمرني أن أشتري لإنسان هدية بقريب من خمسة دراهم وقال: اذهب بها إلى صبيانه فإنه قد وهب لسعيد شيئاً.

وقال إسحاق بن إبراهيم[4]: أهدى جوين ـ جارٌ لأبي عبد الله ـ إلى

---

(١) المناقب ٢٤١.
(٢) الحلية ٩/١٧٩.
(٣ و ٤) المناقب ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

أبي عبد الله شيئاً من جوز وزبيب وتين في قصعة ما يساوي ثلاثة دراهم أو أقل، فأعطاني أبو عبد الله ديناراً وقال: اذهب فاشتر بعشرة دراهم سكَّراً[1] وبسبعة دراهم تمراً، واذهب به إليه في الليل ففعلت.

وقال إبراهيم بن هانيء[2]: قدم رجل من سمرقند، وكتب له عبدالله بن عبد الرحمن إلى أبي عبدالله فجعل له مجلساً، فأهدى يوماً إلى أبي عبد الله ثوباً، فأعطاه أبو عبد الله لي - أي لإبراهيم بن هانيء - فقال: اذهب به إلى السوق فقومه، قال إبراهيم: فذهبت إلى قطيعة الربيع، فقومته نيفاً وعشرين درهماً، فرجعت فقلت له، فحجبه أبو عبد الله حتى اشترى له ثوبين ومقنعتين[3]، وبعث بها إليه، ثم أذِن له فحدَّثه.

حبه للوحدة وخمول الذكر:

ما كان حب الإمام أحمد للوحدة عن عقد نفسية، وإنما كان داعيه أشياء: منها أنه لا يسلم للمرء في الاختلاط لسانه ولا قلبه، وربما اشتغل بالناس عن الله وعن طاعته والإخلاص له. ومن آفات الاختلاط للعالم الكبير العجب حين يرى إقبال الخاصة والعامة عليه والثناء عليه، فالميل إلى الوحدة يخلصه من هذه الآفات وغيرها، ويفرغ القلب ليشتغل بما هو أسمى من القيل والقال، ويُعد عقله لينظر بصفاء إلى ملكوت الأرض والسماء، ويمعن النظر في علمه وتعليمه وتزكية سريرته، إلا إذا كان ينوي بظهوره إلى الناس تعليمهم وإرشادهم، بعلمه وعمله، أو أراد حضور جمعة أو جماعة، أو أمر يندُب إليه الشرع.

---

(١) السُّكَّر: من الحلواء ومن كل شراب «فارسي معرب».
(٢) المناقب: ٢٤٣.
(٣) المقنعتان: مثنى مقنعة، وهي: ما تُقنِّع به المرأة رأسها.

وأما إيثار خمول الذكر، فإن أفدح آفـات ارتفاع الذكر وانتشاره لغير المعصوم، هجومُ الرياء واضطرابُ الصفاء، وضعف الإخلاص؛ ومن فقد الصفاء وأضاع الإخلاص فقد خسر كل شيء، ولو كان أمضى الناس لساناً وأوسعهم علماً، ومن هذا وغيره أحب الإمام أحمد الوحدة وآثر الخمول.

قال عبد الله[1]: وكان أبي أصبرَ الناس على الوحدة، لم يَره أحد إلا في مسجد، أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق.

وكان الإمام أحمد[2] ـ رحمه الله ـ يقول: أشتهي ما لا يكون؛ أشتهي مكاناً لا يكون فيه أحد من الناس، وكان يقول: رأيت الخلوة أروح لقلبي.

وقال أبو بكر المروزي[3]: ذكرت لأبي عبد الله عبد الوهاب على أن يلتقيا فقال: أليس قد كره بعضهم اللقاء؟ وقال: يتزيَّن لي وأتزيَّن له، كفى بالعزلة عِلماً، الفقيه الذي يخاف الله. وكان يرحمه الله[4] يمنع من الدخول على الأمراء ويقول: الخلوة أنفعُ.

وأما إيثاره الخمول فقد حدث عبيد القاري[5] قال: دخل عم أحمد ابن حنبل على أحمد بن حنبل ـ ويده تحت خده ـ فقال له: يا ابن أخي: أيُّ شيء هذا الغم؟ أيّ شيءٍ هذا الحزن؟ فرفع أحمد رأسه فقال: يا عم طوبى لمن أخمل الله عز وجل ذكره.

(١) ابن عساكر ٧١ ـ ب.

(٢ و ٣) المناقب ٢٨٠ و ٢٨١.

(٤) طبقات الحنابلة ٢/٢٧٩.

(٥) المناقب ٢٨١ ـ ٢٨٢.

وقال أبو بكر المروزي: قال لي أبو عبد الله: قل لعبد الوهاب: أخمِلْ ذكرَك، فإني أنا قد بُليت بالشهرة[1].

وسمعته يقول: والله لو وجدتُ السبيل إلى الخروج لم أقُم في هذه المدينة، ولخرجتُ منها حتى لا أذكر عند هؤلاء ولا يذكروني[2].

وقال إسحاق بن إبراهيم بن يونس: رأيت أحمد بن حنبل، وقد صلَّى الغداة، فدخل منزله وقال: لا تتبعوني مرة أخرى[3].

قال عبد الله بن أحمد: كان أبي إذا خرج يوم الجمعة لا يدع أحداً يتبعه، وربما وقف حتى ينصرف الذي يتبعه[4].

خوفه من الله تعالى:

الخوف من الله ومراقبتُه، هما التقوى، والتقوى هي الدين كله. ومن خاف الله لم يعصه، ومن خاف الله لم يخف أحداً، ومن خشي الناس لم يخف الله، وشأن المؤمن أن يعبد الله كأنه يراه. وكان هذا حالَ السلف الصالح يخافون ربهم ويطمعون في رحمته ورضاه: ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾[5]، ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[6]، وروى الشيخان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

وكان الإمام أحمد يقول[7]: الخوف منعني عن أكل الطعام فما أشتهيه، فإذا ذكرت الموت هان عليّ كل شيء.

(١ ـ ٤) المناقب ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٥) السجدة «١٦».

(٦) الرحمن «٤٦».

(٧) ابن عساكر ٧٨ ـ أ.

وقال صالح بن أحمد بن حنبل[١]: كان أبي إذا دعا له رجل يقول: الأعمال بخواتيمها. وكنت أسمعه كثيراً يقول: اللهم سلّم سلّم. يقول أحمد بن يحيى ثعلب[٢]: دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلاً تهمُّه نفسُه، ولا يُحِب أن يكثر عليه، كأن النيران سُعِّرت بين يديه. وقال أبو بكر المروزي[٣]: دخلت على أحمد يوماً فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: كيف أصبح من ربُّه يطالبه بأداء الفرض ونبيُّه يطالبه بأداء السنّة، والملكان يُطالبانه بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يطالبه بالفحشاء، ومَلَكُ الموت يطالبه بقبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة؟!.

قبوله النصيحة وقبول النصيحة منه:

قبول النصيحة معناه: الإذعان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا شأن الكبار، تواضعوا عن رفعة، وسمعوا النصح من كل لسان، واستجابوا لله ورسوله.

وما تُقبَل النصيحةُ من امرىء إلا أن يكون قبلُ عاملاً بما ينصح، مُخلصاً يريد بنصيحته وجه الله. وقد كان يقبل ـ رحمه الله ـ نصيحةً مّا، من ناصح ما؛ من غير أن يجادل ويحاول فيدلي بالأدلة ترفُّعاً عن قبول النصيحة.

يقول رجاء بن السندي[٤]: قلت لأحمد بن حنبل ـ وقد عُقد شراكُ نعلِه شبه الصليب ـ: يا أبا عبد الله إنَّ هذا يكره. قال: فدعا

---

(١) المناقب ٢٨٣.
(٢) ابن عساكر ٧٤ ـ ب.
(٣) المناقب ٢٨٤.
(٤) ابن عساكر ٧٢ ـ ب.

بالسكين، فقطعه، وما قال لي: كيف؟ ولا لم؟.

أما قبول نصيحته، فقد قال الحسين بن القهم[1]: كنا عند يحيى ابن معين، وإذا رسول أحمد بن حنبل قد جاء فقال له: يا أبا زكريا، أبو عبد الله أحمد بن حنبل يقرأ عليكم السلام ويقول: بلغني أنك تقول:

إسماعيل بن عُلية، وكان يكره أن يقال له ابن علية، فقال يحيى: اقرئه مني السلام، وقل له: قد قبلنا منك يا معلم الخير.

يكره أن ينسب إلى أمه عُلية، وهو إسماعيل بن إبراهيم، وهكذا كانوا يتناصحون حتى في الصغير من الأمور؛ وهل عند أمثال هؤلاء الكبار إلا هذه الصغائر وما دونها من الكراهة وخلاف الأولى؟! ومع ذلك لا يَدَعون الإرشاد فيها لأنهم جميعاً يخافون الله ويطمحون إلى الدنو من الكمال.

عظيم حلمه وعفوه:

مر في غضون الكتاب شيء من عفوه وحلمه، ونأتي هنا على ما لم نأتِ به من قبل:

قال ابن هانىء[2]: كنت عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: يا أبا عبد الله قد اغتبتك، فاجعلني في حل، قال: أنت في حلٍّ إن لم تَعُد. فقلت له: تجعله في حل، وقد اغتابك؟ قال: ألم ترني اشترطت عليه؟.

وقال حنبل[3]: صليت بأبي عبد الله العصر، فصلى معنا رجل يقال

---

(١) المصدر نفسه ٦٨ ـ أ.
(٢ و٣) المناقب ٢٢٢.

له: محمد بن سعيد الخُتَّلي؛ فقال لأبي عبد الله: يا أبا عبد الله نهيت عن زيد بن خلف أن يُكلِّم؟ فقال أبو عبد الله: كتب إليّ أهل الثغر يسألونني عن أمره، فأخبرتهم بمذهبه، وبما أحدَث، وأمرتهم ألاَّ يُجالسوه؛ فاندفع الختلي على أبي عبد الله فقال: والله لأردَّنك إلى محبسك، ولأدقَّنّ أضلاعك ضِلعاً ضِلعاً؛ في كلام كثير، فقال لي أبو عبد الله: لا تكلِّمه ولا تجبه بشيء، فما رد عليه أحد منا كلمة، فأخذ أبو عبد الله نعليه، وقام فدخل وقال: مُر السكان ألاَّ يُكلموه ولا يردوا عليه شيئاً، فما زال يصيح ثم خرج فصار على حسبة العسكر، ومات بالعسكر.

تواضعه:

التواضع من شَرَف الكِبار، وقديماً قيل: تواضُعك في شَرفك أعظمُ من شرفك، وقيل: خير الناس من تواضع عن رفعة، وزهِدَ عن قدرة.

يقول عباس بن محمد الدوري[١]: سمعت يحيى بن معين يقول: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير.

وقال صالح[٢]: كان أبي ربما أخذ القَدُّوم، وخرج إلى دار السكان يعمل الشيء بيده، وربما خرج إلى البقال فيشتري الجرزة الحطب والشيء فيحمله بيده.

وقال عارم بن الفضل[٣]: كان أحمد بن حنبل ههنا عندنا بالبصرة فجاءني بِمِعْضَدة له ـ وهي وعاء للدراهم ـ فكان كلّ قليل يجيء فيأخذ منها، فقلت له: يا أبا عبد الله بلغني أنك رجل من العرب ـ وكان

(١ و ٢ و ٣) المناقب ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

للعربي شأن بين الخليط من الأعاجم إلا عند الشعوبيين ـ فمن أي العرب أنت؟ فقال لي: يا أبا النعمان نحن قوم مساكين، فكان كلَّما جاء أعدتُ عليه فيقول هذا الكلام، ولا يخبرني حتى خرج من البصرة. قال أحمد بن الحسين بن حسان: دخلنا على أبي عبد الله فقال له شيخ من أهل خراسان: يا أبا عبد الله، الله الله! فإن الناس يحتاجون إليك، قد ذهب الناس، فإن كان الحديث لا يمكن فمسائل، فإن الناس مضطرون إليك. فقال أبو عبد الله: إليَّ أنا؟ واغتم من قوله، وتنفس الصُّعداء، ورأيت في وجهه أثر الغم.

وقيل لأبي عبد الله[1]: جزاك الله عن الإسلام خيراً، فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيراً. ثم قال: ومن أنا؟ وما أنا؟

حبه للفقراء:

أهل الدنيا لا يعظِّمون إلاَّ من نال منها حظاً كبيراً ولو لم ينتفعوا من دنياه بشيء، ولكن محبتهم لها وشغلَهم الشاغل بها يجعلهم يتمسحون بأهلها؛ ولو كان أولئك الأغنياء أفقرَ الناس من الرحمة والدين والعقل والنبل. وينظرون إلى الفقراء نظر المتكبر المطل من عَلٍ إلى حشرة يخشى عَدْواها ويشمئز من هيئتها.

أما الزاهدون بها، والموقنون بالرحيل عنها، فهم العقلاء الذين يعيشون وفق ما يكون، ويقطعون كل طمع بما لا يكون، فهؤلاء هم الفقراء الراضون وهم الذين يؤثرهم الإمام بمحبته وإعزازه وعنايته.

يقول أبو بكر المروزي[2]: لم أرَ الفقير في مجلس أعَزَّ منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلاً إليهم، مُقصِراً عن أهل الدنيا.

---

(١) المناقب ٢٧٥.
(٢) مقدمة المسند لأحمد شاكر.

وقال أبو بكر المروزي أيضاً[1]: قال لي أبو عبد الله ـ وذكر رجلاً فقيراً مريضاً ـ: اذهب إليه وقل له: أيَّ شيء تشتهي حتى نعملَ لك؟ ودفع إليَّ طيباً وقال لي طيِّبه.

وقال أبو بكر المروزي أيضاً[2]: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: ما أعدِل بالفقر شيئاً، ما أعدِل بالفقر شيئاً، أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء.

وذكرت له[3] رجلاً صبوراً على الفقر في أطمار[4]، وكان يسألني عنه، ويقول: اذهب حتى تأتيني بخبره، سبحان الله الصبر على الفقر، الصبر على الفقر، ما أعدل بالصبر على الفقر شيئاً، تدري الصبر على الفقر أي شيء هو؟ وقال: كم بين من يُعطى من الدنيا ليُفتتن، إلى آخر تُزوى عنه.

وذكرت[5] لأبي عبد الله الفضيلَ وعُريه، وفتحاً الموصلي وعُريه وصبره؛ فتغرغرت عينه وقال: رحمهم الله، كان يقال: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

كان يؤثر الخشونة على اللين:

من علامات زهده رحمه الله أنه كان يكره التنعم واللين لأن هذا مدعاةٌ للراحة والكسل وميل إلى اكتساب المال وحب الدنيا؛ والمؤمن قويّ دائم الاستعداد سواءٌ للعبادة أو لطلب العلم، أو للجهاد في سبيل الله، فإذا استرسل في التنعم كسِل عن كل ما يندب الإسلام إليه مما

(١) المناقب ٢٧٢.
(٢ و ٣) المناقب ٢٧٣.
(٤) أطمار: جمع طِمْر: وهو الثوب الخَلَق.
(٥) المناقب ٢٧٣.

يحتاج إلى جَهد وطاقة وإقدام، بل من أصعب الصعب أن تستفزَّ راقِداً في وثير من التنعم، إلى جليل الأعمال وخطيرها. يقول عبد الله ابن أحمد بن حنبل: كنت جالساً عند أبي رحمه الله يوماً، فنظر إلى رِجليّ، وهما لينتان ليس فيهما شقاق، فقال لي: ما هذه الرجلان؟ لِم لا تمشي حافياً حتى تصيرَ رجلاك خَشِنتين؟

قال عبد الله: وخرج أبي إلى طرسوس ماشياً على قدميه.

ولقد حج ثلاث مرات ماشياً على قدميه، وما كان يمنعه من الرحلة إلى طلب الحديث عدمُ وجود الراحلة، فإذا عزم انطلق سواءٌ أوجد ما يمتطيه أم لم يجد، وربما ركب بعض الطريق ومشى بعضه.

* * *

ثناء الناس عليه

الثناء عليه في علمه وفقهه:

ما من أحد عاصر الإمام أحمد من شيوخه أو أقرانه أو أصحابه وتلاميذه، بل كل من جلس إليه واستمع منه؛ إلا وأثنى عليه أجمل الثناء، بما هو له أهل، بل دون ما هو له أهل. وما نستثني إلا أولئك الذين أعمى الحسد والعصبية قلوبهم، وإلاَّ المبتدعة من الجهمية والمعتزلة وكل من يحكِّم الرأي على الأثر.

وكان شعار أهل السنّة أنَّ حب الإمام أحمد علامة السنّة، وبغضَه علامة البدعة.

قال حوثرة بن محمد[1]: تتبين السنّة في الرجل بشيئين: حبِّ أحمد بن حنبل، وكتْبِ كُتُب الشافعي.

قال قتيبة بن سعيد[2]: أحمد بن حنبل إمامنا، من لم يرض به فهو مبتدع.

وقال أحمد بن إبراهيم الدورقي[3]: من سمعتموه يذكر أحمد ابن حنبل بسوء فاتهموه على الإسلام.

---

(١) المناقب ٢٧١/١.

(٢) طبقات الحنابلة ١٥/١.

(٣) المصدر نفسه ١٨/١.

وقال سفيان بن وكيع[1]: أحمد عندنا مِحنةٌ، من عاب أحمد فهو عندنا فاسق.

وقال أبو الحسن الطرخاناباذي[2]: أحمد بن حنبل محنة به يُعرَف المسلمُ من الزنديق.

وأنشد ابن أعين في أحمد بن حنبل:

أضحى ابنُ حنبل مِحنةً مأمونةً
وبحب أحمد يُعرَف المُتَنسِّكُ
وإذا رأيت لأحمد مُنتقصاً
فاعلم بأنَّ سُتوره ستُهَتَّك[3]

ويقول أحمد بن القاسم بن مساور[4]: كنا عند يحيى بن معين وعنده مصعب الزبيري، فذكر رجل أحمد بن حنبل فأطراه وزاد، فقال له رجل: يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم، فقال يحيى بن معين: كأن مدح أبي عبد الله غلوٌّ في الدين؟ ذِكْرُ أبي عبد الله من محاسن الذكر، وصاح يحيى بالرجل. ويقول الحسين الكرابيسي[5]: مثل الذين يذكرون أحمد بن حنبل ـ أي بالسوء ـ مثل قوم يجيئون إلى أبي قُبيس يريدون أن يهدموه بنعالهم.

هذا وقد قدمنا صوراً صغيرة من علمه بالحديث والفقه والنِحَل والعربية، ونأتي هنا على بعض من أثنى عليه بعلمه وإمامته وعظم قدره.

---

(١) ابن عساكر ٧٧ ـ ب.
(٢) المصدر نفسه ٧٨ ـ أ.
(٣) ابن عساكر ٦٧ ـ ب.
(٤) ابن عساكر ٧٦ ـ ب.
(٥) الحلية ١٧٢/٩.

قال إبراهيم الحربي[1]: رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء.

وقال حمدان بن سهل[2]: ما رأيت أعلم من أحمد بن حنبل.

وقال ابن ماكولا[3]: كان أعلم الناس بمذاهب الصحابة والتابعين.

وقال عبد الوهاب الوراق[4]: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، قالوا له: وإيش الذي بان لك من علمه وفضله على سائر من رأيت؟ فقال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة، فأجاب فيها بأن قال: «أخبرنا» و«حدثنا».

قال الربيع بن سليمان: قال لنا الشافعي[5]: أحمد إمام في ثمانِ خصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنّة.

وعتب بعض الفضوليين على الشافعي في تردده على الإمام أحمد وتردد الإمام أحمد على الشافعي فقال الشافعي:

قالوا يزورك أحمد وتزوره
قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زارني فبفضله أو زرته
فلفضله فالفضل في الحالين له[6]

(١) طبقات الشافعية ٢/٢٨.
(٢) ابن عساكر ٧١ ـ ب.
(٣) تهذيب التهذيب ١/٧٥.
(٤) طبقات الحنابلة ١/٦.
(٥) المصدر نفسه ١/٥.
(٦) شذرات الذهب ٢/٩٨.

وقال يحيى بن معين[1]: كان في أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها في عالم قط: كان محدثاً، وكان حافظاً، وكان عالماً، وكان ورعاً، وكان زاهداً، وكان عاقلاً.

وقال حرملة[2]: سمعت الشافعي يقول: خرجت من العراق، فما خلَّفت بالعراق رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أتقى من أحمد بن حنبل. قال البيهقي: إنما قال هذا إمامنا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي عن تجربة ومعرفة منه بحال أبي عبد الله رحمه الله.

وقال أبو بكر الأثرم[3]: قلت يوماً - ونحن عند أبي عبيد - في مسألة، فقال بعض من حضر: من قال هذا؟ قال: قلت: من ليس في شرق ولا غرب أكبرُ منه: أحمد بن حنبل. قال أبو عبيد: صدق.

وقال أحمد بن سلمة[4]: سمعت أحمد بن سعيد الدارمي يقول: ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله ﷺ ولا أعلم بفقهه ومعانيه من أبي عبد الله أحمد بن حنبل.

ويقول أبو بكر بن أبي داود[5]: سمعت أبي يقول: أحمد بن حنبل مُقدَّم على كل من حمل بيده قلماً ومحبرة - يعني في عصره -.

ويقول أبو زرعة[6]: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل في فنون العلم، وما قام أحد مثل ما قام أحمدُ به.

---

(1) ابن عساكر ٦٦ - أ.
(٢ و٣) المصدر نفسه ٦٩ - أ.
(٤) ابن عساكر ٧٤ - ب.
(٥) ابن عساكر ٧٠ - أ.
(٦) الحلية ١٦٤/٩.

ويقول أيضاً[1]: ما رأت عيني مثل أحمد بن حنبل، فقيل له: في العلم؟ فقال: في العلم، والزهد، والفقه والمعرفة، وكل خير، ما رأت عيني مثله.

عن خطاب بن بشر عن عبد الوهاب - يعني الوراق[2] - قال: لمّا قال النبي ﷺ فردوه إلى عالمِه، رددناه إلى أحمد بن حنبل، وكان أعلمَ أهل زمانه.

وقال أبو نصر بن ماكولا[3]: أحمد بن محمد بن حنبل إمام في النقل، وعَلَم في الزهد والورع.

وقال محمد بن يونس[4]: سمعت أبا عاصم - وذكر الفقه - فقال: ليس ثَمَّ - يعني ببغداد - إلا ذاك الرجل - يعني أحمد بن حنبل - ما جاءنا من ثَم أحدٌ غيره يُحسن الفقه، فذكر له علي بن المديني، فقال بيده ونفضها.

وقال محمد بن سهل بن عسكر[5]: ذكر عبد الرزاق يحيى ابن معين فقال: ما رأيت مثلَه ولا أعلم بالحديث منه من غير سرد، وأمّا علي بن المديني فحافظ سَرَّاد. وأما أحمد بن حنبل فما رأيت أفقه منه ولا أورع.

وقال محمد بن إبراهيم البوشنجي[6]: ما رأيت أجمع في كل شيء من أحمد، ولا أعقل، وهو عندي أفضل وأفقه من الثوري.

---

(١) ابن عساكر ٧٠ - ب.
(٢) ابن عساكر ٦٩ - ب.
(٣) المصدر نفسه ٦١ - ب.
(٤ و ٥) ابن عساكر ٦٥ - أ.
(٦) تهذيب التهذيب ٧٦/١.

ويقول أبو داود السجستاني[1]: لقيت مائتين من مشايخ العلم، فما رأيت مثلَ أحمد بن حنبل، لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا فإذا ذُكر العلم تكلَّم.

وقال الخليلي[2]: كان أفقه أقرانه وأورعهم، وأكفَّهم عن الكلام في المحدثين إلا في الاضطرار.

وقال المستشرق كولدسيهر[3] ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ: أحمد بن حنبل: إمام بغداد، متكلم وفقيه، ومحدث مشهور. من أعظم الشخصيات حيويَّة في الإسلام، وفي نهضته، وقد أثَّر بن حنبل في التطور التاريخي للإسلام وأسس أحد المذاهب السنيّة الأربعة الكبرى؛ وهو المذهب الحنبلي.

أحمد بن حنبل الإمام:

ما يجادل في إمامة أحمد إلا من فهم الدين فهماً منحرفاً، ولا جرم أن أحمد بن حنبل أمة وحده، فهو إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في نصرة السنّة، إمام في الصبر على السجن والتعذيب والضرب الشديد والمبتدعين.

قال قتيبة بن سعيد[4]: أحمد بن حنبل إمام الدنيا. وقال هذه الكلمة أيضاً[5] عبد الله بن خيرون. وقال سليمان بن حرب لرجل سأله عن مسألة[6]: سل عنها أحمد فإنه إمام.

---

(١) الحلية ٩/١٦٤.

(٢) تهذيب التهذيب ١/٧٥.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية العدد ١٣/٣٧٠.

(٤) ابن عساكر ٦٦ ـ ب.

(٥) المصدر نفسه ٧١ ـ أ.

(٦) تهذيب التهذيب ١/٧٥ ـ ٧٦.

وقال يحيى بن آدم: أحمد بن حنبل إمامُنا[1].

قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن أحمد بن حنبل فقال: هو إمامٌ وحجة[2].

وقال محمد بن يحيى النيسابوري: أحمد بن حنبل إمامُنا[3].

وسئل أبومحمد عبدالله بن عبد الرحمن عن أحمد بن حنبل: هو إمام؟ قال: إي والله، وكما يكونُ الإمام، إن أحمد أخذ بقلوب الناس، إن أحمدَ صبر على الفقر سبعين سنة[4].

عن يحيى بن محمد العنبري أنشدنا أبو عبد الله البوسندي في أحمد بن حنبل[5]:

إنَّ ابن حنبل - إن سألت - إمامُنا
وبه الأئمةُ في الأنام تمسَّكُوا
خَلَفَ النبيَّ محمداً بعد الألى
خلفوا الخلائف بعده واستُهلكوا
حذو الشِّراك على الشِّراك وإنما
يحذو المثالَ مثالُه المستمسكُ

(١) ابن عساكر ٦٥ - أ.
(٢) المصدر نفسه ٧٠ - ب.
(٣) ابن عساكر ٧٠ - أ.
(٤) الحلية ١٧٦/٩.
(٥) البداية والنهاية ٣٣٦/١٠. وفي ابن عساكر «ترجمة أحمد بن منير بن عبد الرزاق» بدون البيت الثالث.

الإمام المهيب:

لا يكون مهيباً إلا مَن عُرف بأنه صَدَّاع بالحق، وأنَّ صدعَه بالحق فرعٌ عن شدة إيمانه به وتشبثه فيه، ولا يكون مهيباً إلا من لم يكن له إلا وجهٌ واحدٌ ينبىء عن دينه وعقيدته وإخلاصه وغيرته، يقابل به الأمير والفقير والعظيم والحقير، لا يساوم أحداً من خلق الله على دينه وخُلُقه وشريف عاداته، يتيه بفقره لأنه زاهد فيما عند الناس، لا يستطيع أحد أن يرمقه بعين المتفضل، فهو صبور على كل حاجة من أمور الدنيا ولا يدنّس شرفه ولا مكانته؛ وكذلك كان الإمام أحمد، تهابه الشيوخ والأقران، والحكامُ والسوقة، في المسجد والبيت والسجن. قال أبو عُبيد القاسم بن سلام[1]: جالست أبا يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي قال: فما هبتُ أحداً في مسألة ما هبتُ أحمد بن حنبل؛ زاد أبو عوانة قال: وقال لي أبو عبيد: وقد دخلت على أبي عبد الله ـ أحمد بن حنبل ـ السجن، فسألني رجل عن مسألة فما أجبته من هيبته.

وقال عبد الله بن المبارك[2] ـ وكان شيخاً قديماً ـ: كنت عند إسماعيل بن عُلَية، فتكلم إنسان بشيء فضحك بعضنا، وثَمّ أحمد ابن حنبل، قال: فأتينا إسماعيلَ بن عُليَّة، فوجدناه غضبان فقال: أتضحكون وعندي أحمد بن حنبل؟!.

ويقول محمد بن مسلم[3]: كنا نَهابُ أن نردَّ أحمد بن حنبل في الشيء، أو نُحاجَّه في شيء من الأشياء. يعني لجلالته ولهيبة الإسلام الذي رُزقه.

(١) ابن عساكر ٦٨ ـ ب.
(٢) المصدر نفسه ٦٤ ـ ب.
(٣) المناقب ٢١١ ـ ٢١٢.

وقال الحسن بن أحمد[1] ـ والي الجسر ـ: وكان في جوارنا؛ دخلت على إسحاق بن إبراهيم وفلان وفلان ـ ذكر السلاطين ـ ما رأيت أهيبَ من أحمد بن حنبل، صِرت إليه أكلِّمُه في شيء فوقعت عليّ الرعدة حين رأيته من هيبته.

من أعربوا عن حبه وتقديره وفضل عقله:

تقدم أن حب الإمام أحمد علامة السنّة وبغضَه علامة النفاق والابتداع. وما مِن أحد التزم السنّة إلا أحبَّ الإمام حبّاً يرجو به رضاء الله والجنة، وهم من الكثرة حيث لا يحصيهم عد ونكتفي بإيراد أمثلة على ذلك:

قال شجاع بن مخلد[2]: كنت عند أبي الوليد الطيالسي فورد عليه كتاب أحمد بن حنبل، فسمعته يقول: ما بالبصرتين ـ يعني البصرة والكوفة ـ أحدٌ أحب إليَّ من أحمد بن حنبل، ولا أرفع قدراً في نفسي منه.

وقال يحيى القطان[3]: ما قدم بغداد أحدٌ أحب إليَّ من أحمد ابن حنبل.

حدّث الهيثم بن جميل[4] بحديث عن هشيم فوهم فيه، فقيل له: خالفوك في هذا، قال: من خالفني؟ قالوا: أحمد بن حنبل، قال: وددتُ أنه نقص من عمري، وزاد في عمر أحمد بن حنبل.

---

(١) المناقب ٢١١ ـ ٢١٢.

(٢) الحلية ٩/١٧١.

(٣) البداية والنهاية ١٠/٣٣٥.

(٤) ابن عساكر ٦٨ ـ ب.

يقول أبو الوليد الجارودي[1]: قدم علينا الشافعي فقال: ما خلفت بالعراق رجلين أعقل منهما: سليمان بن داود، وأحمد بن حنبل.

الثناء على الإمام بمختلف الصفات:

لا نستطيع هنا أن نحصي الثناء على الإمام أحمد بكل ما أثني عليه، ولو حاول امرؤ ذلك لكتب في الثناء عليه من شيوخه وأقرانه وأتباعه الشيء الكثير، وسنورد هنا جزءاً مما أثني عليه بمختلف الصفات.

يقول عبد الرزاق الصنعاني ـ صاحب المصنف وهو شيخه[2] ـ: ما قدم علينا أحدٌ يشبه أحمد بن حنبل.

وقال يحيى بن سعيد القطان ـ وهو من كبار شيوخه[3] ـ: ما قدم عليَّ مثل هذين الرجلين: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

وقال يحيى بن معين[4] وهو من شيوخه وأقرانه ـ وذكروا أحمد ابن حنبل ـ: أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل، لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد بن حنبل، ولا على طريقة أحمد.

وقال مهنأ بن يحيى الشامي[5] ـ وهو من أقرانه وأصحابه ـ: ما رأيت أحداً أجمع لكل خير من أحمد بن حنبل، ولقد رأيت سفيان ابن عيينة، ووكيعاً، وعبد الرزاق، وبقية بن الوليد، وضمرة بن ربيعة، وكثيراً من العلماء، فما رأيت مثلَ أحمد بن حنبل في علمه وفقهه وزهده وورعه.

---

(١) ابن عساكر ٦٥ ـ ب.
(٢) ابن عساكر ٦٥ ـ أ.
(٣) الحلية ١٦٥/٩.
(٤) المصدر نفسه ١٦٨/٩.
(٥) الحلية ١٦٥/٩.

وقال قتيبة بن سعيد[1] ـ وهو من شيوخه ـ: لو أدرك أحمد بن حنبل عصر الثوري، ومالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، لكان هو المقدّم، قيل لقتيبة: تضم أحمد بن حنبل إلى التابعين؟ قال: إلى كبار التابعين. وكان يقول[2]: لولا الثوري لمات الورع، ولولا أحمد لأحدثوا في الدين.

وقال أحمد بن الحسين بن حسان العسكري[3]: كنت بالبصرة، وكان علي بن المديني يختفي من أجل المحنة ولم يكن يوصل إليه، فأخبرني الثقة من أهل الحديث: أنَّ كتاب أحمد بن حنبل ورد عليه في تلك الأيام، قال: فلما نظر إليه جعل يقول: بأبي بأبي تركة الأنبياء، وقبَّله، وأحسبه وضعه على عينيه، فقال له رجل من جلسائه: يا أبا الحسن، ما تشبه أحمد بن حنبل في زماننا إلا بسعيد بن جبير في زمانه؟ فقال علي بن المديني: لا بل أحمد بن حنبل في زماننا أفضل من سعيد بن جبير في زمانه، قال: فقيل له: ولم ذاك؟ قال: لأن سعيد بن جبير كان له في زمانه نظراء، والله ما يُعرف لأحمد بن حنبل نظير في غربها ولا شرقها.

أقول: وهذا مع أن أحمد بن حنبل هجر عليًّ بن المديني بسبب أنه كان يحابي ابن أبي دؤاد في مسألة خلق القرآن.

وقال أحمد بن سلمة النيسابوري[4]: ذكرت لقتيبة بن سعيد: يحيى ابن يحيى، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل. فقال: أحمد ابن حنبل أكبر من سميَّتهم كلِّهم.

(١ و ٢) ابن عساكر ٦٦ ـ أ ـ ب.

(٣) المصدر نفسه ٧٦ ـ أ.

(٤) ابن عساكر ٦٦ ـ ب.

وقال قتيبة أيضاً[1]: إن أحمد بن حنبل قام في الأمة مقام النبوة، قال البيهقي: يعني في صبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله.

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن رجاء: ما رأيت مثل أحمد ابن حنبل، ولا رأيت من رأى مثله.

وقال إسحاق بن راهويه[2]: قال لي أحمد بن حنبل: تعال حتى أريك رجلاً لم ترَ مثله، فذهب بي إلى الشافعي، وقال إسحاق: وما رأى الشافعي مثل أحمد.

وقال حجاج بن الشاعر[3]: ما رأت عيناي روحاً في جسد أفضل من أحمد بن حنبل.

وقال: ما كنت أحِب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل على أحمد ابن حنبل.

وقال أحمد بن سنان[4]: ما رأيت يزيد بن هارون ـ وهو من شيوخه ـ لأحدٍ أشدَّ تعظيماً منه لأحمد بن حنبل، وكان يقعده إلى جنبه إذا حدثنا.

قال ابن وارة الحافظ[5]: أحمد بن حنبل ببغداد، وأحمد بن صالح المصري بمصر، والنفيلي بحرَّان، وابن نمير بالكوفة؛ هؤلاء أركان الدين.

---

(1) البداية والنهاية ١٠/٣٣٥.
(2) ابن عساكر ٦٧ ـ أ.
(3) ابن عساكر ٦٩ ـ ب.
(4) المصدر نفسه ٦٤ ـ ب.
(5) الطبقات الكبرى ٢/٧.

قال محمد بن الحسن الأنماطي[1]: كنا في مجلس فيه يحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب، وجماعة من كبار العلماء، فجعلوا يثنون على أحمد بن حنبل، ويذكرون فضائله فقال رجل: لا تكثروا، بعض هذا القول، فقال يحيى بن معين: وكثرة الثناء على أحمد ابن حنبل تستكثر؟ لو جلسنا مجلسنا بالثناء عليه ما ذكرنا فضائله بكمالها.

قال إدريس بن عبد الكريم المقري[2]: رأيت علماءنا مثل الهيثم ابن خارجة ومُصعَب الزبيري، ويحيى بن مَعين، وأبي بكر بن أبي شيبة، وعثمان بن أبي شيبة، وعبد الأعلى بن حماد النرسي، ومحمد ابن عبد الملك بن أبي الشوارب، وعلي بن المديني، وعبيد الله ابن عمر القواريري، وأبي خيثمة زهير بن حرب، وأبي معمر القطيعي، ومحمد بن جعفر الوركاني، وأحمد بن محمد بن أيوب صاحب المغازي، ومحمد بن بكار بن الريان، وعمرو بن محمد الناقد، ويحيى ابن أيوب المقابري العابد، وسُريج بن يونس، وخلف بن هشام البزار، وأبي الربيع الزهراني، فيمن لا أحصيهم من أهل العلمْ والفقه؛ يعظمون أحمد بن حنبل ويُجلُّونه ويوقرونه، ويبجلونه، ويقصدونه بالسلام عليه.

ويقول ابن الجوزي[3] في مقدمة كتابه «مناقب الإمام أحمد»: بحثت عن نائلي مرتبة الكمال في الأمرين - العلم والعمل - من التابعين ومن بعدهم، فلم أجد من تم له الأمران على الغاية التي لا يخدش وجهَ كمالها نوعُ نقص سوى ثلاثة أشخاص: الحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل.

---

(١) طبقات الحنابلة ١٩/١.
(٢) ابن عساكر ٧٠ - ب، والحلية ١٧١/٩.
(٣) المناقب ٥.

ويقول ابن القيم[1]: وكان بها ـ أي ببغداد ـ إمام السنّة على الإطلاق: أحمد بن حنبل الذي ملأ الأرض علماً وحديثاً وسُنَّة، حتى أئمة الحديث والسنّة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة.

قال الحافظ الذهبي[2]: انتهت إليه الإمامة في الفقه والحديث والإخلاص والورع.

وقال فيه أيضاً: عالم العصر، وزاهد الوقت، ومحدث الدنيا، ومفتي العراق، وعلم السنّة، وباذل نفسه في المحنة، وقل أن ترى العيون مثله، كان رأساً في العلم والعمل، والتمسك بالأثر، ذا عقل رزين وصدق متين، وإخلاص مكين، وخشية ومراقبة العزيز العليم، وذكاء وفطنة، وحفظ وفهم وسعة علم. هو أجل من أن يمدح بكلمي، وأن أفوه بذكره بفمي.

ويقول ابن العماد صاحب الشذرات[3]: وكان ـ أي الإمام أحمد ـ إماماً في الحديث وضروبه، إماماً في الفقه ودقائقه، إماماً في السنّة ودقائقها، إماماً في الورع وغوامضه، إماماً في الزهد وحقائقه.

* * *

(١) إعلام الموقعين ١/٢٨.
(٢) المصعد الأحمد «٣٧».
(٣) شذرات الذهب ٢/٩٦.

ثناؤه على غيره

إذا أثنى الإمام أحمد على شخص ما فثناؤه سمةُ شرفٍ ورفعة وعلم ودين، لأن الإمام أحمد رحمه الله لا يعرف الملَق ولا الكذب ولا الخداع، ولا الانتفاع بالمدحة، ولا يثني بغير خبرة ومعرفة. ومهما تكن صلته وصداقته أو عكسها مع الكبار والصغار لا يثنه ذلك عن الثناء أو التعديل لمن يستحقه، أو الجرح لمن يستحق الجرح، يترفع عن المَيول الخاصة، ويتكلم بما يعتقد أنه الواقع. على أنه رحمه الله ليس له من هوىً إلا وهو تابع لما جاء به رسول الله ﷺ، ومثله الأعلى في كل ذلك اتباع السنّة والعمل بها، والإخلاص لها، والزهد في الدنيا، والتعفف عما في أيدي الناس، والورعُ عن المحرم والمشتبه، والصدق مع الله في القول والعمل، وعبادة الله على وجهها اتباعاً لا ابتداعاً.

الإمام سفيان الثوري:

وكان مثله في العلماء العاملين الذين جمعوا كل ذلك الإمام سفيان الثوري؛ الذي توفي قبل ولادة الإمام أحمد بنحو ثلاث سنوات، وكان سفيان قدوته بعد الصحابة والتابعين، وكان يقول عن سفيان: «لا يتقدمُه في قلبي أحد» وكان يصفه وحده بالإمام فيقول لبعض أصحابه:

تدري من الإمام؟ الإمام هو سفيان الثوري[1]، وكان يقول[2]: كان يحيى بن سعيد لا يعدل بسفيان الثوري أحداً. وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ما يشبهه الناسُ إلا بسفيان الثوري لورعه واحتياطه في دينه.

عمر بن عبد العزيز:

يقول الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجة، إلا قول عمر بن عبد العزيز، وكفاه هذا[3].

وقال الإمام أيضاً: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز، ويذكر محاسنه وينشرها، فاعلم أنَّ من وراء ذلك خيراً إن شاء الله[4].

الإمام مالك:

قال عن الإمام مالك[5]: إذا ذكر الحديث فمالك النجم. وقال: مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه، ومَنْ مثل مالك متبع لآثار من مضى، مع عقل وأدب؟ وقيل له: الرجلُ يحب أن يحفظ حديث رجل بعينه، حديث من ترى ينظر؟ قال: حديث مالك، فإنه حجةٌ بينك وبين الله. وقال: مالكٌ حافظ متثبت، من أثبت الناس في الحديث، وقيل له: فمالك والأوزاعي إذا اختلفا في الرواية؟ قال: مالك أحبُّ إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة. قيل: فمالك والليث؟ قال: مالك[6].

(١) البداية والنهاية ١٠/١٣٤.
(٢) الحلية ٦/٣٦٠.
(٣) البداية والنهاية ٩/١٩٢.
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٦١.
(٥) طبقات الحنابلة ٢/٢٨٩.
(٦) من ترتيب المدارك ما يتعلق بمالك ١٣٢ ـ ١٣٣.

الإمام الشافعي:

كان نصيب الإمام الشافعي من ثناء الإمام أحمد أعظم نصيب، فقد رأى فيه بغيته؛ رأى فيه عالم سنّة، وإماماً بفقهها وعدّه في ذلك من كبار الأوائل، بل عَدَّه فاتح المغلق بقوة الاجتهاد ودقة الفهم، والالتزام بالنص من غير أن يحمِّل النص ما لا يمكن أن يحمله، وحين رآه في مكة أُخِذَ به.

قال إسحاق بن راهويه[1]: «كنت مع أحمد بمكة، فقال: تعالَ حتى أريك رجلاً لم ترَ عيناك مثله» فأراني الشافعي.

وقال أحمد بن حنبل للحسين الكرابيسي[2]: ما فهمنا استنباط أكثر السنن إلا بتعليم الشافعي إيانا.

وقال أحمد: لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث[3].

وقال: كان الفقه قفلاً على أهله حتى فتحه الله بالشافعي[4].

وقال: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه[5].

وقال: قدم علينا نعيم بن حماد فحضنا على طلب المسند، فلما قدم الشافعي وضعنا على المحجَّة البيضاء[6].

وعن صالح بن أحمد بن حنبل قال[7]: «جاء الشافعي يوماً إلى أبي

(١) صفة الصفوة ٢: ١٤٢.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١/٦١.
(٣ و ٤) توالي التأسيس (٥٧).
(٥) توالي التأسيس (٥٧).
(٦) الشافعي للمؤلف ١٢٠.
(٧) معجم الأدباء ١٧: ٣٠١.

يعوده ـ وكان عليلاً ـ فوثب أبي إليه، فقبَّل بين عينيه ثم أجلسه في مكانه، وجلس بين يديه، قال: فجعل يسائله ساعة، فلما وثب الشافعي ليركب، قام أبي فأخذ بركابه ومشى معه. فبلغ ذلك يحيى ابن معين، فوجه إلى أبي: يا أبا عبد الله، يا سبحان الله! آضْطرك الأمر إلى أن تمشي إلى جانب بغلة الشافعي؟ فقال له أبي: وأنت يا أبا زكريا لو مشيت من الجانب الآخر لانتفعت به. قال: ثم قال أبي: من أراد الفقه فليشم ذنبَ هذه البغلة!!.

وقال محمد بن مسلم بن وارة الرازي[1]: قدمت من مصر فدخلت على أحمد بن حنبل: فقال لي: من أين جئت؟ قلت: جئت من مصر، قال: أكتبتَ كتب الشافعي؟ قلت: لا. قال: فلم؟ ما عرفنا ناسخَ سنن رسول الله ﷺ من منسوخها، ولا خاصَّها من عامها، ولا مجملها من مفسرها حتى جالسنا الشافعي.

يقول أبو بكر الصيرفي[2]: سمعت أحمد بن حنبل يقول: صاحب حديث لا يشبع، أو قال: لا يستغني عن كتب الشافعي. ويقول الإمام أحمد[3]: ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني حديث رسول الله ﷺ حتى قدم الشافعي فبينها لهم. ويقول[4]: ما أحدٌ مسَّ بيده محبرةً وقلماً إلا وللشافعي في عنقه منه.

وكان يقول[5]: كلام الشافعي في اللغة حجة.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢٦٢/١.
(٢) المصدر نفسه ٢٦٤/١.
(٣) المصدر نفسه ٣٠١/١.
(٤) المصدر نفسه ٢٥٥/٢.
(٥) المصدر نفسه ٤٢/٢.

ويقول أحمد بن الليث[1]: سمعت أحمد بن حنبل يقول: إني لأدعو الله للشافعي في صلاتي منذ أربعين سنة؛ أقول: «اللهم اغفر لي ولوالدي، ولمحمد بن إدريس الشافعي»، فما كان منهم أتبع لحديث رسول الله ﷺ منه.

وكان يقول: الشافعي من أحباب قلبي، وقد باينّا وبايناه، ما رأينا منه إلا خيراً، وكان شديد الاتباع للسنن[2].

وعن أبي داود السجستاني[3]: أن أحمد بن حنبل أخبر أن يحيى ابن معين ينسب الشافعي إلى التشيع، فقال له أحمد: تقول هذا لإمام من أئمة المسلمين؟!.

فقال يحيى: إني نظرتُ في كتابه في قتالَ أهل البغي، فإذا قد احتجَّ من أوله إلى آخره بعلي بن أبي طالب.

فقال أحمد بن حنبل: عَجَباً لك! فبمن كان يحتج الشافعي في قتال أهل البغي؟ وأول من ابتُلي من هذه الأمة بقتال أهل البغي علي ابن أبي طالب، وهو الذي سنّ قتالهم وأحكامهم، ليس عن النبي ﷺ ولا عن الخلفاء غيره فيه سنّة، فبمن كان يستن؟ فخجل يحيى من ذلك.

وللإمام أحمد في الشافعي كلام كثير لسنا هنا في معرض استقصاء له، وحسبنا كلمته العظيمة إذ قال: «كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، فهل ترى لهذين من خلف، أو عنهما عوض»[4]؟!.

وكان من أكثر الناس وفاءً لشيخه ومعلمه الشافعي، قال خطاب ابن

---

(1) المصدر نفسه ٢/٢٥٤.

(2) طبقات الحنابلة ٢/٢٨٩.

(3) مناقب الشافعي ١/٤٥٠ ـ ٤٥١.

(4) انظر الشافعي للمؤلف.

بشر[1]: جعلت أسأل أبا عبد الله أحمد بن حنبل فيجيبني، ويلتفت إلى ابن الشافعي ويقول: هذا مما علمنا أبو عبد الله ـ يعني الشافعي ـ.

ثناؤه على أبي ثور:

أبو ثور هذا اسمه: إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان؛ هو من جلة أصحاب الإمام الشافعي البغداديين، كان قبلُ يتفقه بالرأي، ويذهب إلى قول أهل العراق حتى قدم الشافعي بغداد فاختلف إليه ورجع عن الرأي إلى الحديث. وقد كان مع إعجابه بالشافعي مجتهداً، وتغلب عليه آراء الشافعي.

قال أبو بكر الأعيت[2]: سألت أحمد بن حنبل: ما تقول في أبي ثور؟ قال: أعرفه بالسُّنَّة منذ خمسين سنة وهو عندي في مِسلاخ[3] سفيان الثوري.

وسئل الإمام أحمد عن مسألة فقال للسائل: سل غيرنا، سل الفقهاء، سل أباثور، تجنباً عن أن يفتي.

ثناؤه على أربعة:

قال رحمه الله: انتهى الحفظ إلى أربعة من أهل خراسان: أبي زرعة، ومحمد بن إسماعيل (البخاري)، والدارمي، والحسن ابن شجاع البلخي.

بعض آرائه في نقد كبار الرجال:

للإمام أحمد بعض الآراء الناقدة في كبار الفقهاء والمحدثين، لا

---

(1) طبقات الشافعية ٢/٧٢.

(2) طبقات الشافعية ٢/٧٤.

(3) أصل المسلاخ: الجلد ويريد هنا أنه مثل سفيان الثوري.

يقبلها الكثير من أتباعهم والمتمذهبين بمذهبهم، وربما رفضها غيرهم أيضاً، ونحن هنا نثبت بعض نقده لأنه من صور حياته، ولا يد لنا في ذلك إلا النقل.

فقد سئل الإمام أحمد عن مالك بن أنس فقال[1]: حديث صحيح ورأي ضعيف، وسئل عن الأوزاعي فقال: حديث ضعيف ورأي ضعيف، وسئل عن أبي فلان فقال لا رأي ولا حديث، وسئل عن الشافعي فقال: حديث صحيح ورأي صحيح.

ويقول البيهقي[2]: قلت: إنما قال ذلك أحمد بن حنبل في مالك ـ رحمهما الله ـ لأنه كان يترك حديثه الصحيح ويعمل بعمل أهل المدينة في بعض المسائل. وقال ذلك عن الأوزاعي ـ رحمه الله ـ لأنه كان يحتج بالمقاطيع والمراسيل في بعض المسائل ثم يقيس عليها. وقال ذلك في «الشافعي» رحمه الله، لأنه كان لا يرى الاحتجاج إلا بالحديث الصحيح المعروف، ثم يقيس الفروع على ما ثبت أصلها بالكتاب والسنّة الصحيحة والإجماع. وقال ذلك في أبي فلان لأنه كان يقول بالحديث الضعيف دون القياس مرة، ويترك الصحيح المعروف بالقياس أخرى، فيقول بالقياس مرة، وتيركه بالاستحسان أخرى، وهذا لأنه كان يرى الحجة تقوم بخبر المجهول، وبالحديث المنقطع، فما وقع إليه من ذلك من حديث بلده قال به، وترك القياس لأجله، وما لم يقع إليه من صحيح حديث بلده، أو وقع إليه فلم يثق به قال فيه بالقياس أو الاستحسان.

* * *

(١ و ٢) تاريخ بغداد ٤١٦/٣ ومناقب الشافعي للبيهقي ١٦٦/١ ـ ١٦٧.

عبادته وأقواله وما يتعلق بها

صلاة الإمام أحمد:

كان شيخه عبد الرزاق الصنعاني يقول عن صلاته[1]: «كان أحمد ابن حنبل إذا صلى يذكِّرني شمائل السلف».

كأنه يريد أنَّ لصلاته معنى؛ ليست هي عبارةً عن قيام وركوع وسجود وقراءة وتسبيح فهذا هيكل الصلاة، أما روحها ومعناها فهو الحضور والعبودية والخشوع، حضور من يريد مناجاة الخالق العظيم، من بيده الأمر كله، حين يخاطبه بـ «إياك نعبد وإياك نستعين».

وهذا ما عرف به الإمام إذا دخل في صلاته لا يدري ما يجري وراءه.

وكان كثير الالتجاء إلى الصلاة، لأنها مَعاذُ العبد ورفعته وإخصاب روحه. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل[2]: كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته، فكان يصلي في كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة، وقد كان قرب من

---

(١) ابن عساكر ٦٥ ـ أ.
(٢) الحلية ٩/١٨١.

الثمانين. وقال عبد الله أيضاً[1]: كان أبي لا يفتر عن الركعات بين العشاءين، ولا بعدها في ورده من صلاة الليل.

وقال عبد الله بن أحمد[2]: رأيت أبي لما كبِر وأسنَّ اجتهد في قراءة القرآن، وكثرة الصلاة بين الظهر والعصر، فإذا دخلت عليه انفتل من الصلاة، وربما تكلم، وربما سكت، فإذا رأيتُ ذلك خرجت فيعود لصلاته.

يريد أن تكون عبادتُه خالصةً لله لا يفسدها القليل من الرياء والعجب، لأنه حريص على أن تكون مقبولةً عند الله، وهذا القليل قد يحبطها.

وربما آثر حيناً المذاكرة في الحديث والفقه على النوافل. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل[3]: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يوماً يقول: ما صليت اليوم غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي.

وكان[4] ساعة يصلي العشاء الآخرة ينام نومة خفيفة ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو، وقال إبراهيم بن شماس: كنت أعرف أحمد ابن حنبل ـ وهو غلام ـ وهو يحيي الليل.

قراءته للقرآن:

كانت قراءة القرآن عند السلف من أجلِّ الذكر، وكانوا يتبادرون إلى ذلك ولا يرضون من تلاوة كلام الله أيَّ ذكر إلا ما لَه وقت معلوم،

---

(١) ابن عساكر ٧٢ ـ أ.

(٢) المناقب ٢٨٨.

(٣) المناقب ٢٨٩.

(٤) المصدر نفسه ٢٨٨.

وكانوا يُدركون ما يَقرأون. وقد يستنبطون ويحصون آيات تتعلق بحكم أو معنى.

يقول عبد الله بن أحمد[1]: وكان أبي يقرأ في كل يوم سُبعاً، يختم في كل سبعة أيام، وكانت له ختمة في كل سبع ليالٍ، سوى صلاة النهار.

قال جعفر بن أبي هاشم[2]: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ختمت القرآن في يوم؛ فعددت موضع الصبر فإذا هو نيف وتسعون.

يقول هلال بن العلاء[3]: خرج الشافعي، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل إلى مكة؛ فلما أن صاروا بمكة، نزلوا في موضع، فأما الشافعي فإنه استلقى؛ ويحيى بن معين أيضاً استلقى؛ وأحمد ابن حنبل قائم يصلي، فلما أصبحوا قال الشافعي: لقد عَمِلت للمسلمين مائتي مسألة. وقيل ليحيى بن معين: أي شيء عملت؟ قال: نفيت عن النبي ﷺ مائتي كذّاب، وقيل لأحمد بن حنبل: فأنت؟ قال: صليت ركعات ختمت فيها القرآن!!.

وقال عبد الله بن أحمد[4]: وكان ـ يعني أباه ـ يُسر القرآن، وربما جهر به.

حجه:

حج الإمام أحمد خمس حِجج، منها ثلاث راجلاً.

---

(١) ابن عساكر ٧٢ ـ أ.
(٢) المناقب ٢٨٧.
(٣) المصدر نفسه ٢٨٦.
(٤) ابن عساكر ٧٢ ـ أ.

وأول[1] حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة، ثم سنة إحدى وتسعين ـ وفيها حج الوليد بن مسلم ـ ثم سنة ست وتسعين، وجاور في سنة سبع وتسعين، ثم حج في سنة ثمانٍ وتسعين، وجاور إلى سنة تسع وتسعين، سافر إلى عبد الرزاق إلى اليمن، فكتب عنه هو ويحيى ابن معين، وإسحاق بن راهويه. وقال الإمام أحمد[2]: حججت خمس حجج: منها ثلاث راجلاً، أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهماً.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل[3]: حج أبي خمس حجج ماشياً، واثنتين راكباً، وأنفق في بعض حجاته عشرين درهماً.

وهذا يدل على المبالغة في الاقتصاد وذلك لأنه لا يملك أن ينفق أكثر مما أنفق وإلا لاختار لنفسه الركوب بدل المشي هذه المسافة الكبيرة الصعبة، من بغداد إلى مكة.

وقال الإمام أحمد[4]: حججت خمس حجج: منها اثنتين راكباً، وثلاث ماشياً، أو قال: ثلاث راكباً واثنتين ماشياً؛ وقد ضللت في بعضها الطريق وكنت ماشياً، فجعلت أقول: يا عباد الله دلوني على الطريق، قال: فلم أزل أقول ذلك، حتى وقفت على الطريق.

من أدعيته:

قال عبد الرحمن بن زاذان[5] ـ وكان ممن روى عنه ـ: كنت في

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٢٦.
(٢) ابن عساكر ٦٤ ـ أ.
(٣) الحلية ٩/١٧٥.
(٤) ابن عساكر ٧١ ـ ب والبداية ١٠/٣٢٦.
(٥) طبقات الحنابلة ١/٢٠٥، وابن عساكر ٧٧ ـ أ.

المدينة بباب خراسان، وقد صلينا ونحن قعود، وأحمد بن حنبل حاضر، فسمعته يقول: «اللهم من كان على هوى، أو على رأي وهو يظن أنه على الحق، وليس هو على الحق، فردَّه إلى الحق، حتى لا يَضل به من هذه الأمة أحدٌ».

وكان يدعو فيقول:

«اللهم لا تشغل قلوبنا بما تكفَّلت لنا به، ولا تجعلنا في رزقك خَوَلاً لغيرك، ولا تمنعنا خير ما عندك بشر ما عندنا، ولا تَرَنا حيث نَهيتنا، ولا تفقدنا من حيثُ أمرتنا، أعِزنا ولا تُذلنا، أعزَّنا بالطاعة ولا تُذلَّنا بالمعاصي».

ومن أدعيته[1] ـ رحمه الله ـ: «اللهم إنا نسألك بالقدرة التي قلت للسموات والأرض: ﴿ ائتيا طَوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين ﴾ اللهم وفقنا لمرضاتك، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ونعوذ بك من الذل إلا لك، اللهم لا تكثر لنا فنطغى، ولا تقلَّ علينا فننسى وهب لنا من رحمتك وسَعةِ رزقك ما يكون بلاغاً لنا في دنيانا، وغنى من فضلك».

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل[2]: كنت أسمع أبي كثيراً يقول في دُبُر صلاته: «اللهم كما صِنتَ وجهي عن السجود لغيرك، فصن وَجهي عن المسألة لغيرك» فقلت له: أسمعك تكثر من هذا الدعاء، فعندك فيه أثر؟ قال: فقال لي: نعم، كنت أسمع وكيع بن الجراح كثيراً يقول هذا في سجوده، فسألته كما سألتني، فقال: كنت أسمع

(١) البداية ١٠/٣٢٩.
(٢) المناقب ٢٩٢.

سفيان الثوري يقول هذا كثيراً في سجوده، فسألته فقال: كنت أسمع منصور بن المعتمر يقوله.

يقول القاسم بن الحسين الورّاق[1]: أراد رجل الخروج إلى طرسوس، فقال لأحمد: زودني دعوةً، فإني أريد الخروج، فقال له: قل «يا دليل الحَيارَى دلَّني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين» قال: فخرج الرجل فأصابته شدَّة، وانقطع عن أصحابه، فدعا بهذا الدعاء، فلحق أصحابه، فجاء إلى أحمد فأخبره بذلك، فقال له أحمد: اكتمها عليَّ.

يقول طلحة بن عبيد الله البغدادي[2] ـ وكان يسكن مصر ـ: وافق ركوبي ركوب أحمد بن حنبل في السفينة، فكان يطيل السكوت، فإذا تكلم قال: «اللهم أمتنا على الإسلام والسنّة».

وقال المروزي[3]: اجتمع جماعة إلى أحمد فقالوا له: ادع، فقال: «اللهم لا تُطالبنا بوفاء الشكر فيما أنعمت علينا»؛ كأنه يريد أن يقول لو طالبتنا لعجزنا لأن شكرنا مهما يبلغ لا يفي بنعم الله فَنقعُ بالحرج والإثم.

ومن عظيم تضحيته في سبيل أمة محمد ﷺ أنه كان يدعو فيقول[4]: «اللهم إن قبلت عن عصاة أمَّة محمد ﷺ فداءً فاجعلني فداءً لهم».

---

(١) المصدر نفسه ٢٩٤.
(٢) المناقب ٢٩٥.
(٣) المناقب ٢٩٤.
(٤) البداية ١٠/٣٢٩.

كان مجاب الدعوة:

من إكرام الله تعالى للإمام أحمد أن يُجيب دُعاءه، ومثله أهلٌ لذلك فالمؤمن التَّقي الذي يسير على هَدي الله ورسوله، والذي يدري ويوقن أنه ليس شيء إلا بفضل من الله عليه؛ هو الوليّ الذي يستجيب الله له إن شاء ومتى شاء وكيف شاء.

قال علي بن أبي فزارة[1]: حدثتني أمي ـ وأفلجت وأقعدت من رجليها دهراً ـ فقالت لي يوماً: يا بُني، لو أتيت هذا الرجل ـ أحمد ابن حنبل ـ فسألته أن يدعو الله لي، قال: فعبرت إلى أحمد بن حنبل فدققت عليه الباب ـ وكان في الدهليز ـ فقال: مَنْ هذا؟ قلت له: يا أبا عبد الله، رجل من إخوانك، قال: وما حاجتك؟ قلت: إن أمي مريضة، قد أقعدت من رجليها، وهي تسألك أن تدعو الله لها، قال: فجعل يقول: يا هذا، فمن يدعو لنا نحن؟ فقال ذلك مراراً، فكأني استحييت فمضيت، وقلت: السلام عليكم، فخرجت عجوز من منزله فقالت: إني قد رأيته يحرك شفتيه بشيء، وأرجو أن يكون يدعو الله لك، قال: فرجعت إلى أمي، فدققت الباب فقالت: من هذا؟ فقلت: أنا علي، وقامت إليَّ ففتحت الباب، فقلت: لا إله إلا الله إيش القصة؟ فقالت: لا أدري، إلا أني قد قمت على رجلي، فتعجبت من ذلك، وحمدت الله عز وجل. قال: وذلك مسافة الطريق.

يقول إبراهيم بن هانيء[2]: حدثني ساكن لأبي عبد الله قال: كنت أشتكي، فكنت أئنُّ بالليل، فخرج أبو عبد الله في جوف الليل فقال: مَنْ هذا عندكم يشتكي؟ فقيل له: فلان، فدعا له، وقال: «اللهم

---

(١) ابن عساكر ٧٢ ـ أ، والحلية ٩/١٨٦.

(٢) المناقب ٢٩٧.

اشفِه» ودخل، فكأنه كان ناراً صُبَّ عليه ماءٌ.

قال محمد بن علي السمسار[1]: رأيت أبا عبد الله جاء بالليل إلى منزل صالح، وابن صالح تسيل الدماء من منخريه، وقد جمع له الطب، وهم يعالجونه بالفُتُل وغيرها، والدم يغلبهم، فقال له أبو عبد الله: أي شيء حالُك يا بني؟ قال: يا جدِّي، هو ذا أموت، ادعُ الله لي، فقال له: ليس عليك بأس، ثم جعل يحرك يدَه، كأنه يدعو له فانقطع الدم، وقد كانوا يئسوا منه، لأنه يُرعَف دائماً.

واستجابة الدعاء من الكرامة، ولا تكون هذه الكرامة إلا لعبد مؤمن متق لم يجد لنفسه أمام ربه حولاً ولا قوة، ويتكل على الله، ويفوض الأمر كله لله.

من كرامات الإمام أحمد:

جميع أهل السنّة أقروا الكرامة ومنهم كبير أهل السنّة أحمد ابن حنبل، وقد قدمنا في جملة عقائده إيمانه بجواز أن تكون الكرامةمن ولي، والولي قد عرَّفه الله سبحانه بقوله: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[2]. وهذا يقتضي أن يكون الولي عليماً بما يجعله مؤمناً حقاً وعليماً بما أحلَّ الله وما حرَّم، ليكون على تقوى من الله، ومن التقوى أن يتورع عن المشتبهات، وبالجملة أن يكون في حدود ما أمر الله ورسوله ونهى عنه الله ورسوله مُجداً في طاعة الله وذكره، يزداد في نفسه كل يوم جلالُ الله وقدرته، وتنمو معرفته به وحبُّه له. وليس بالولي من يكتفي بأن يلوك كلاماً غريب المعنى والتركيب لم يأتِ مثله عن الله ولا عن رسول

---

(١) المصدر نفسه ٢٩٥.

(٢) يونس «٦٢ - ٦٣».

الله وربما أوهم أنه صاحب كرامة، وليس الولي بجاهل ولا مجنون لأن الله لم يتخذ ولياً جاهلاً ولا مجنوناً، بل عالماً عاملاً واعياً يزداد كل يوم قرباً من ربه.

والولي الحق قد يعلم الكرامة التي تصدر عنه ولكن لا يدَّعيها، ولا يقطع بها بل يجب عليه سترها[1].

وإليك بعض ما يروى مما يُرى أنه من كراماته رحمه الله:

تقول فاطمة بنت أحمد بن حنبل[2]: وقع الحريق في بيت أخي صالح ـ وكان قد تزوج إلى قوم مياسير ـ فحملوا إليه جهازاً شبيهاً بأربعة آلاف دينار، فأكلته النار، فجعل صالح يقول: يا غمتي! ما ذهب مني إلا ثوب لأبي كان يصلي فيه، أتبرك به وأصلي فيه، قالت: فطفىء الحريق، ودخلوا، فوجدوا الثوب على سرير قد أكلت النار ما حواليه، والثوب سليم.

ويقول ابن الجوزي صاحب المناقب[3]: قلت: ولما وقع الغرق ببغداد في سنة أربع وخمسين وخمسمائة وغرقت كتبي، سلم لي مجلد فيه ورقتان بخط الإمام أحمد.

ولا شك أن ما مر من إجابة دعائه ـ يرحمه الله ـ هو من قبيل الكرامة، وأي كرامة أجل من أن يستجيب الله دعاء أحبابه لا رَيث في الاستجابة ولا إهمال!!.

* * *

(١) كما يقول الإمام أحمد، وكما جاء في الرسالة القشيرية بحث الكرامة.
(٢ و ٣) المناقب ٢٩٧.

كان يكره أساليب بعض المتصوفة:

كان الزهد في صدر الإسلام عند الصحابة والتابعين، هو الرضا عن الله، والاستجابة لأمره ونهيه وتعليق القلب به، وإن كثُر الخير بين يديه. والزاهد من لا يتصنع الأدنى في مسكن ولا ملبس ولا مطعم، فإن جاءه شيء من ذلك بغير استشراف منه، بطريق حلال من كسب مشروع أو عمل، أو صدقة إن كان معدماً؛ نال منه وتصدق، وإن لم يأته صبر، وهكذا فعل النبي ﷺ: لبس الحُلّة وحُبِّب إليه الذراع من الشاة، وكان يحب الحلواء والعسل كما في صحيح مسلم، وكان يُجيل يده في القصعة يلتمس الدبَّاء، وإن لم يأته شيء صبر ورضي. قال الإمام أحمد[1]: «الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر» والزاهد من يسعى ويتوكل على الله، لا يركن إلى السعي، ولا يُفرِد التوكل. فالإمام أحمد كان يلتقط الحب، ويعمل مع الحمالين، أو ينسخ كما تقدم، ولا يترك السعي، هذا هو عز المؤمن، لا يتكفف الناس ولا يجعل توكله وسيلة لرفق الناس بـه، ويجعل شعـاره التعفف عن المخلوق، والافتقار المطلق إلى الخالق.

فلما تحول الزهد إلى تزهد، والتزهد إلى تصوف، وصار التصوف فناً أو فلسفة روحية له مصطلحاته وأصوله، قل صفـاء التصوف، وضعفت عفوية التعبد وروحه الخالص، وتولى الـزهد الصحيـح، وهزلت الصلة بشرع الله، وأهمل العلم، وبرزت كلمات وعقائد لا تمتّ إلى كتاب الله بأدنى صلة. ونستثني من هؤلاء ـ الذين وصفت ـ أكثر رجال الرسالة القشيرية، الذين صرحوا أنهم على الكتاب والسنّة، ومهما يسمع منهم من قول لا تقبله شريعة الله يأمروا برفضه؛ يقول ذو

---

(١) البداية ١٠/ ٣٣٠.

النون المصري رحمه الله: مدار الكلام على أربع: حب الجليل، وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل. ويقول رحمه الله: من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله، وأوامره وسننه. وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة. ولأكثرهم مثل هذا القول. فمن عمل بهذا سلك طريق الهدى.

ولقد كان الإمام أحمد يمنع من التزهد المفضي إلى تحريم ما أحل الله، والامتناع عن المباح الذي رفع الله فيه الحرج، ويقول: قال النبي ﷺ: «المحرم ما أحل الله كالمحل ما حرم الله». وكان ـ رحمه الله ـ يمنع من سماع قصائد ابن الخبازة في الزهد والترغيب، ويقول: الاجتماع لذلك محدث، وكذلك كان يمنع الكلام في الخطرات والوساوس والإشارات، ويقول: الكتاب والسنّة هو المأمور به، وسئل مرة عن المريد؟ فقال: أن يكون مع الله كما يريد، وأن يترك كل ما يريد لما يريد.

قال إسماعيل بن إسحاق السراج[1]: قال لي أحمد بن حنبل: هل تستطيع أن تريني الحارث المحاسبي إذا جاء منزلك؟ فقلت: نعم، وفرحت بذلك، ثم ذهبت إلى الحارث فقلت له: إني أحب أن تحضر الليلة عندي أنت وأصحابك. فقال: إنهم كثير، فأحضر لهم التمر والكُسْب[2]، فلما كان بين العشاءين جاؤوا، وكان الإمام أحمد قد

---

(١) البداية ١٠/٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢) الكُسْب: عصارة الدهن كما في القاموس.

سبقهم فجلس في غرفة بحيث يراهم ويسمع كلامهم ولا يرونه، فلما صلوا العشاء الآخرة لم يصلُّوا بعدها شيئاً، بل جاؤوا فجلسوا بين يدي الحارث سُكوتاً مطرقي الرؤوس، كأنما على رؤوسهم الطير، حتى إذا كان قريباً من نصف الليل سأله رجل مسألة، فشرع الحارث يتكلم عليها، وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ فجعل هذا يبكي، وهذا يئن، وهذا يزعق. قال: فصعدت إلى الإمام أحمد إلى الغرفة فإذا هو يبكي حتى كاد يغشى عليه. ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح، فلما أرادوا الانصراف قلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما رأيت أحداً يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل، وما رأيت مثل هؤلاء، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم.

قال البيهقي: يحتمل أنه كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد ـ وإن كان زاهداً ـ فإنه كان عنده شيء من علم الكلام، وكان أحمد يكره ذلك، أو كره له صحبتهم من أجل أنه لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع.

قلت ـ أي ابن كثير ـ: بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع، والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأتِ بها أمر، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بالرعاية، قال: هذه بدعة؛ ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب: عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث، ودع عنك هذا فإنه بدعة!!.

من كلامه ووصاياه:

كل كلام ابن حنبل ووصاياه تتعلق بالتقوى، والزهد، والورع، والصبر، وطاعة الله ورسوله، واتباع السنّة، وتذكر الآخرة، ومراقبة الله

عز وجل، وبأكل الحلال، وبالصدق والإخلاص والتوكل وغير ذلك.

الإسلام والسنّة:

كان ابن حنبل[1] يطيل السكوت، فإذا تكلم قال: اللهم أمتنا على الإسلام والسنّة.

وقيل له[2]: أحياك الله يا أبا عبد الله، فقال: على الإسلام والسنّة.

طاعة الله:

كان رحمه الله يقول[3]: إذا أحببت أن يدوم الله لك على ما تُحِب، فدم له على ما يحب.

يؤثر الفقر على الغنى:

كان يقول[4]: الفقر أشرف من الغنى، فإن الصبر عليه مرارة، وانزعاجه أعظم حالاً من الشكر. ويقول[5]: لا أعدِل بفضل الفقر شيئاً.

وكان يقول[6]: على العبد أن يقبل الرزق بعد اليأس، ولا يقبله إذا تقدمه طمعٌ أو استشراف.

وكان ـ رحمه الله ـ[7] يحب التقلل من الدنيا لأجل خفة الحساب.

أكل الحلال:

قال أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسي[8]: ذهبت أنا ويحيى الجلاء ـ وكان يقال: إنه من الأبدال ـ إلى أبي عبد الله فسألته ـ وكان

(١ و٢) ابن عساكر ٧٨ ـ أ.
(٣) طبقات الحنابلة ٢/٣٠٦.
(٤ و٥) البداية ١٠/٣٣٠.
(٦) طبقات الحنابلة ٢/٣٠٦.
(٧) البداية ١٠/٣٣٠.
(٨) الحلية ٩/١٨٢.

إلى جنبه بوران وزهير وهارون الحمال ـ فقلت: رحمك الله يا أبا عبد الله، بم تلين القلوب؟ فأبصر إلى أصحابه فغمزهم بعينه، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه فقال: يا بني بأكل الحلال، فمررت كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث، فقلت يا أبا نصر: بم تلين القلوب؟ قال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1]، قلت: فإني جئت من عند أبي عبدالله، فقال: هيه إيش قال لك أبو عبد الله؟ قلت: بأكل الحلال، فقال: جاء بالأصل، فمررت إلى عبد الوهاب بن أبي الحسن فقلت: يا أبا الحسن، بم تلين القلوب؟ قال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1] قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله فاحمرت وجنتاه من الفرح وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟ فقلت قال: بأكل الحلال، فقال: جاءك بالجوهر، جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال.

التوكل:

قال يعقوب بن إسحاق[2]: سمعت أحمد بن حنبل ـ وسئل عن التوكل ـ فقال: قطع الاستشراف باليأس من الخلق، قيل له: فما الحجة فيه؟ قال: قول إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق ثم طرح في النار، اعترض له جبريل عليه السلام، فقال: هل لك من حاجة؟فقال: أما إليك فلا، قال: فسل من لك إليه حاجة، فقال:أحبُّ الأمرين إليَّ أحبُّهما إليه.

الإخلاص والرياء:

الإخلاص: أن يكون عملك من عبادة واجتناب محرمات وكل بر وتقوى خالصاً بالقصد لله سبحانه. والإخلاص روح العمل، والعمل

---

(١) الرعد «٢٨».
(٢) ابن عساكر ٧٤ ـ أ.

بغير روح عمل ميت؛ فلا الله يقبله، ولا هو بمنج من النار، وما كان الفرق بين المؤمن والمنافق إلا بإخلاص العمل: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾[1] ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين لـه الدين حنفاء﴾[2]. ويقول عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات» أي أنَّ أمراً ما لا يتحول من العادة إلى العبادة إلا بالنية. والنية: أن تستحضر في نفسك وقلبك أن ما تقدم عليه من عبادة أو عمل لا تقصد بهما إلا إلى الله وحده غير مشرك بالعمل أحداً معه. والنية والإخلاص واحد.

أما الرياء فما أقل من تخلص منه، ودبيب الرياء إلى القلب أخفى من دبيب النمل، وما تغلب عليه إلا أولئك الذين تحققوا أن لا إله إلا الله. فلا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلا هو سبحانه.

قال أبو بكر المروزي[3]: سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله ـ وذكر له الصدق والإخلاص ـ فقال أبو عبد الله: بهذا ارتفع القوم.

وقال المروزي[4]: كنت مع أبي عبد الله نحواً من أربعة أشهر بالعسكر، ولا يدع قيام الليل، وقراآت النهار، فما علمت بختمة ختمها، وكان يسر ذلك، كل ذلك خشية أن يتسرب إليه شيء من الرياء.

يقول ابن السماك: سمعت أحمد يقول[5]: إظهار المِحبَرَة من الرياء، وكان يتمنى ـ خوفاً من الرياء ـ خمول الذكر. فقد دخل رجل على أحمد بن حنبل، ويده تحت خده فقال له: يا ابن أخي إيش هذا

---

(١) الزمر «٣».
(٢) البينة «٥».
(٣ و ٤ و ٥) المناقب ١٩٥.

الغم؟ لأي شيء هذا الحزن؟ قال: فرفع رأسه وقال: طوبى لمن أخمل الله ذكره[1]، وكان يقول[2]: الزهد ترك حب الثناء.

وقيل له مرة[3]: هذا العلم تعلمته لله؟ فقال أحمد: هذا شرط شديد، لكن حبِّبَ إليَّ شيءٌ فجمعته، يقول هذا خوفاً من أن يحكم بالإخلاص في العلم وفيه شيء مما تهواه النفس.

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج[4]: سمعت أبا عبد الله ـ ولقيه رجل كان داهنه في شيء ـ فقال له: لو صححت النية ما خفت أحداً!!.

الفائز من فاز غداً:

قال صالح بن أحمد بن حنبل[5] ـ وذُكر عنده يوماً رجلٌ ـ فقال: «يا بني الفائز من فاز غداً، ولم يكن لأحدٍ عنده تَبعه».

وقال صالح[6]: وذكرت له ابنَ أبي رسته، وعبد الأعلى النرسي، ومن قُدِم به إلى العسكر من المحدثين فقال له: إنما كانت أيام قلائل، ثم تلاحقوا، وما تحلَّوا منها بكثير شيء.

الحب في الله:

يقول أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج[7]: وسمعت أبا عبد الله ـ وسئل عن الحب في الله ـ فقال: أن لا يحبه لطمع دنيا.

---

(١) ابن عساكر ٧٤ ـ ب.
(٢) المناقب ١٩٥.
(٣) ابن عساكر ٧٤ ـ ب.
(٤) المناقب ١٩٥.
(٥ و ٦) الحلية ٩/١٧٩.
(٧) المناقب ١٩٥.

التقوى:

قال علي بن المديني[1]: قال لي أحمد بن حنبل: إني لأحبُّ أن أصحبك إلى مكة، وما يمنعني من ذاك إلا أني أخاف أن أملَّك أو تمَلَّني، قال: فلما ودعته قلت له: يا أبا عبد الله، توصيني بشيء، قال: نعم، «أَلْزِمِ التقوى قلبَك، وانصب الآخرة أمامك».

الخائف والراجي:

قال العباس بن حمزة[2]: سمعت أحمد بن حنبل يقول: «سبحانك! ما أغفل هذا الخلق: الخائف منهم مقصِّر، والراجي منهم مُتوانٍ».

الرضا عن الله:

قال المروزي[3]: سمعت أحمد بن حنبل يقول: «إن لكل شيء كرماً. وكرمُ القلوب الرضا عن الله عز وجل».

الرباط في الثغور:

الرباط نوع من الجهاد، حين لا يكون جهاد، وهو أن يرابط في ثغر العدو خشية أن يجد العدو ثُلمة في الثغر فيقتحم منها على بلاد المسلمين، وكان السلفُ يقومون بالمرابطة قياماً بواجب يتعبدون لله به، قال محمد بن نصر العابد[4]: سمعت أحمد بن حنبل يقول: «كل شيء من الخير بادِر فيه».

قال: وشاورته في الخروج إلى الثغر؟ فقال: بادر بادر.

---

(١) الحلية ٩/١٧٣.
(٢) ابن عساكر ٧٨ ـ أ.
(٣) ابن عساكر ٧٤ ـ أ.
(٤) المناقب ١٩٦.

الفُتوة:

الفتوة: هي الشجاعةُ والقوة والسخاء والكرم، ومع ذلك سئل الإمام أحمد عن الفتوة[1] فقال: «تركُ ما تهوى لما تَخْشى»؛ وهذه الفتوة أقوى، لأن ترك الهوى خوفاً من الله وعذابه يحتاج إلى شجاعة وإرادة وإقدام لا يتاح لكل أحد من الناس، بل هي للصفوة من المؤمنين الصادقين.

صاحب حديث لا يكون له ورد؟

قال عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر[2]: بت عند أحمد ابن حنبل فوضع لي ماء، فلما أصبح وجدني لم أستعمله، فقال: صاحبُ حديث لا يكون له ورد في الليل؟ قال: قلت: أنا مسافر. قال: وإن كنت مسافراً! حجَّ مسروق فما نام إلا ساجداً.

إنْوِ الخير:

قال عبد الله بن أحمد[3]: قلت لأبي يوماً: أوصِني يا أبة، فقال: يا بني إنوِ الخير، فإنك ما تزال بخير ما نويت الخير.

يؤكل الطعام بثلاث أحوال:

كان الإمام أحمد يقول[4]: يؤكل الطعام بثلاث: مع الإخوان بالسرور، ومع الفقر بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة.

---

(١) المناقب ١٩٩.
(٢) المناقب ١٩٩.
(٣) المصدر نفسه ٢٠٠.
(٤) المصدر نفسه ٢٠١.

وصية ثمينة في الصلاة وغيرها:

يقول ـ رضي الله عنه ـ بعد كلام[1]: وجاء في الحديث أن العبدَ إذا افتتح الصلاة استقبله اللهُ بوجهه، فلا يصرفُه عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، أو يلتفت يميناً وشمالاً.

وجاء في الحديث أن العبد ما دام في صلاته، فله ثلاث خصال: البرُّ يتناثر عليه من عنان السماء إلى مفرق رأسه، وملائكةٌ يحفُّون به من لَدُن قدميه، إلى عَنان السماء، ومنادٍ ينادي لو يعلم العبدُ من يُناجي ما انفتل.

فرحم الله من أقبل على صلاته، خاشعاً خاضعاً ذليلاً لله عز وجل، خائفاً ذاعِناً راغباً وجلاً مُشفقاً راجياً، وجعل أكثر همِّه في صلاته لربه، ومناجاته إياه، وانتصابه بين يديه قائماً وقاعداً، أو راكعاً وساجداً، وفرَّغ لذلك قلبه وثمرة فؤاده، واجتهد في أداء فرائضه، فإنه لا يدري هل يصلي صلاة بعد التي هو فيها، أو يعاجل قبل مقامه بين يدي ربه عز وجل محزوناً مشفقاً، يرجو قبولها، ويخاف ردها؛ إن قبلها سعد، وإن ردها شقي. فما أعظمَ خطرك ـ يا أخي ـ في هذه الصلاة، وفي غيرها من أعمالك وما أولاك بالهم والحزن والخوف والوجل فيها، وفيما سواها مما افترض الله عليك، إنك لا تدري هل تُقبَل منك صلاةٌ قطُّ أم لا، ولا تدري هل تقبل منك حسنة قط أم لا، وهل غُفر لك سيئة قط أم لا. ثم أنت مع هذا تضحك وتغفل، ولا ينفعُك[2] العيش إذ جاءك اليقين، أنـك وارد النار، ولم يأتك اليقين أنك صادر عنها. فمن أحق بالبكاء وطولِ الحزن منك حتى يتقبل الله منك، ثم ـ مع هذا ـ

---

(١) كتاب الصلاة للإمام أحمد ص ١٨ ـ ١٩.
(٢) الأصل: ينفعك بدون لا وظاهر الخطأ فيه.

لا تدري لعلَّك لا تُصبح إذا أمسيت، ولا تُمسي إذا أصبحت، فمبشَّر بالجنة أو مبشَّر بالنار.

وإنما ذكرتك ـ يا أخي ـ هذا الخطر. إنك لمحقوق[1] أن لا تفرح بأهل ولا مال. وإن العجب كلَّ العَجَب من طول غفلتك، وطول سَهْوك ولهوك عن هذا الأمر العظيم، وأنت تساق سوقاً عنيفاً في كل يوم وليلة، وفي كل ساعة وطرفة عين.

فتوقع أجلك ـ يا أخي ـ ولا تغفل عن الخطر العظيم الذي قد أظلك، فإنك لا بد ذائق الموت ولاقيه، ولعله ينزل في ساحتك في صباحك أو مسائك أيسر ما تكون عليها إقبالاً، فكأنك قد أخرجت من ملكك كله، وسلبته، فإما إلى الجنة وإما إلى النار. انقطعت الصفات وقصُرت الحكايات عن بلوغ صفتها ومعرفة قدرها، والإحاطة بغاية خيرها.

أما سمعت ـ يا أخي ـ قول العبد الصالح: عجبتُ للنار كيف ينام هاربها، وعجبت للجنة كيف ينام طالبها؟.

إلى أن قال: واعلموا رحمكم الله أن الإسلام في إدبار وانتقاص، واضمحلال ودروس[2]. جاء الحديث: تَرذُلون في كل يوم وقد أسرع بخياركم؟!.

هذه خلاصة عن هذه الوصية الممتلئة إيماناً وخشية وإنذاراً.

(١) كذا بالأصل، ولعلها «لحقيق».
(٢) الدروس هنا من درس بمعنى: اضمحل وذهب.

لا، لا إسراف:

قال محمد بن إسماعيل بن العلاء: حدثني أبي قال[1]: دعاني رزق الله الكلواذي، فقدَّم إلينا طعاماً كثيراً، وكان في القوم أحمد ابن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة وجماعة، فقدم لوزينجاً أنفق عليها ثمانين درهماً، فقال أبو خيثمة: هذا إسراف، فقال أحمد ابن حنبل: لا، لو أن الدنيا صغرت حتى تكون لقمة، ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه المسلم لما كان مسرفاً!! فقال له يحيى: صدقت يا أبا عبد الله.

* * *

(١) المناقب ٢٠٢.

مُكاتَباته وَمَارَوىٰ مِنَ الشِّعْر

كان رحمه الله لا يكتب إلا في نصيحة، أو عقيدة، أو حكم شرعي، أو تحديث، ولا يكتب لشيء من أمر الدنيا، وإنما للتحذير منها. وكان يكتب بالعنوان[1]: إلى أبي فلان ويقول: هو أصوب من قولك لأبي فلان. وكانت بعض كتبه رحمه الله هكذا: إلى فلان من فلان. قال عبد الله: قلت: والرجل يبدأ بنفسه؟ قال: أما الأب فلا أحب أن تقدمه باسمه، ولا يبدأ ولدٌ اسمَه على والده الكبير السن، كذلك يوقِّره به. وغير ذلك لا بأس.

كتب محذراً العالِمَ:

يقول سعيد بن يعقوب: كتب إليّ أحمد بن حنبل[2]: بسم الله الرحمن الرحيم، من أحمد بن محمد إلى ابن يعقوب أما بعد: فإن الدنيا داء، والسلطان داء، والعالم طبيبٌ؛ فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره. والسلام عليك.

وتقدم في باب عقائده رسالةٌ كبيرة في العقيدة لأحد إخوانه.

(١ و ٢) المناقب ٢٠٦.

ما يروي من الشعر أو ما يقوله:

قال أحمد بن يحيى ثعلب[1]: دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلاً كأن النار تُوقدُ بين عينيه فسلمت عليه فردَّ، وقال: من الرجل؟ فقلت: ثعلب، فقال: ما الذي تطلب من العلم؟ قلت: القوافي والشعر ـ وودِدت أني قلت له غير ذلك ـ فقال: اكتب، ثم أملى عليّ:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقُل
خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبَنَّ الله يغفل ساعة
ولا أنَّ ما نُخفي عليه يَغيب
لَهونا عن الأيام حتى تتابعت
ذنوبٌ على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفرُ ما مضى
ويأذنُ في توباتِنا فنتوب
إذا ما مَضى القرنُ الذي أنت فيهم
وخُلِّفت في قرن فأنت غريب

وقال أبو عبد الله الخياط: أنشدت لأحمد بن حنبل من قوله في علي بن المديني:

يا ابن المدينيِّ الذي عرضتْ له
دُنيا فجادَ بدينه لينالها
ماذا دعاك إلى انتحال مَقالة
قد كنتَ تزعم كافراً من قالها

(1) المناقب ٢٠٥.

أمـرٌ بـدا لـك رشـدُه فـتـبـعـتـه
أمْ زهـرةَ الـدنـيـا أردت نَـوالـهـا
ولـقـد عـهـدتـك مـرة مـتـشـدِّداً
صعبَ المقـالـة للتي تُـدعى لـهـا
إن الـمـرزَّأ مـن يُـصـاب بـديـنـه
لا مَـن يـرزَّأ نـاقـة وفـصـالـهـا

وكان مما أخذ على علي بن عبد الله بن المديني أنه أجاب إلى دعوة خلق القرآن، ويُظن أنه أجاب تقية، ثم تاب وهو أحدُ كبار المحدثين.

وكثيراً ما كان يردد الإمام أحمد:

تـفنى الـلذاذة مـمـن نـال صـفـوتـهـا
مـن الـحـرام، ويـبقى الإثـم والـعـار
تـبـقى عـواقـب سـوء مـن مـغبـتـهـا
لا خيـر في لـذة من بعـدهـا الـنـار

تكلم الفارسية:

جاء في تاريخ الذهبي[1]: أنه قدم عليه من خراسان ابنُ خالته، ونزل عنده ولما قُدِّم له الطعام، كان أحمد يسأله عن خراسان وأهلها، وما بقي من ذوي أحمد بها، وربما استعجم القول على الضيف، فيكلمه أحمد بالفارسية.

وراوي هذا الخبر هو زهير بن صالح حفيد أحمد، ويذكر أنه شاهد ذلك وعاينه.

---

(١) ابن حنبل لأبي زهرة ٣١ ـ ٣٢.

مؤلفات الإمام

كان الإمام لا يرى وضع الكتب، وينهى أن يكتب عنه كلامه ومسائله، أي اجتهاده وفتاويه، فعنده أن العلم دين، ودين الله لا يكون برأي أحد، ولهذا لم يجنح إلى تأليف ما لم يكن مستنده الله ورسوله، ولم يكن يرضى أن يكتب في الدين كلام أحد، ومن ثم كَره أن تكتَب كتبُ الاجتهاد، فقد قال مرة لعثمان بن سعيد: لا تنظُر في كتب أبي عبيد ولا فيما وضع إسحاق، ولا سفيان، ولا الشافعي، ولا مالك؛ عليك بالأصل - يعني الكتاب والسنّة -.

وعلم الله إخلاصه بإصراره بأن لا ينشر شيء من مسائله وكلامه وفتاويه، فأبقاها الله له الدهر كله، فنقلَ أصحابه عنه ألوف المسائل، وهي مبثوثة في كتب المذهب، ذلك لأنها لا تخرج عن مقصده في أن لا ينشر إلا الأثر، فإنه ما كان يفتي إلا بأثر، وقليلٍ من قياس جليٍّ على أثر، ولم تكن مؤلفات الإمام إلا من هذا القبيل وما يتعلق به، أو الدفاع عنه، فقد صنف المسند كما قدمنا وأفردناه بالكلام لأنه أعظم ما ألف ولأنه من أعظم كتب السنّة، ويقول ابن الجوزي[1]: إن له تفسيراً، وهو مائة ألف وعشرون ألفاً[2]، ومن مؤلفاته أيضاً: كتاب

---

(١) المناقب ١٩١.

(٢) ويستغرب ذلك مع ما نقل عنه أنه قال: ثلاثة لا أصل لها: التفاسير، =

الناسخ والمنسوخ، وكتاب التاريخ، وكتاب حديث شعبة، وكتاب المقدّم والمؤخّر في القرآن، وكتاب جوابات القرآن، وكتاب المناسك الكبير والصغير، وكتاب الصلاة وما يلزم فيها ويتحدث فيه عن أهمية صلاة الجماعة، وأحكام إقامتها على وجهها وقد رواه تلميذ من تلاميذه وهو مهنا بن يحيى الشامي، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة، ويورد الإمام في هذا الكتاب رده على أقوال جهم ابن صفوان، كتبها في السجن، وكتاب طاعة الرسول يبين فيه ما ينبغي اتباعه عندما يبدو الحديث متعارضاً مع بعض الآيات، وكتاب السنّة، وقرر أحمد بن حنبل عقائده فيه، وأعاد النظر في بعض المسائل الكلامية التي سبق إثارتها في رسالة الرد على الجهمية، ويحدد بشكل قاطع موقفه من جميع مسائل العقيدة الجوهرية.

وله مخطوطان لم يطبعا وهما: «المسند من مسائل أحمد» الذي رواه أبو بكر الخلال، وهو مهم في دراسة آراء الإمام السياسية والدينية، و«كتاب الأمر»[1] الذي رواه غلام الخلال. وله كتاب الورع، وفيه ما ينم عن شخصية أحمد في زهده وعفته وورعه، وأضاف راوي هذا الكتاب ـ أبو بكر المروزي ـ آراء الفقهاء الآخرين في هذه المسائل، وقد استشهد بهذه المسائل أبو طالب المكي في كتابه «قوت القلوب» كما نقل عنه الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين».

وله كتاب «المسائل» وهي مشتملة على العقائد والأخلاق والفقه، وهي من جمع ولديه: صالح وعبد الله وعمل غيرهما من تلاميذ

= والمغازي، والملاحم. وكان الإمام الشافعي يقول: لم يثبت عندي من التفسير إلا مائة حديث.

(١) وهو مخطوط بالظاهرية.

الإمام، منهم إسحاق بن منصور الكوسج المتوفى سنة ٢٥١، وأبو بكر الأثرم المتوفى سنة ٢٦٠، وحنبل بن إسحاق المتوفى سنة ٢٧٣، وعبد الملك الميموني المتوفى سنة ٢٧٤، وأبو بكر المروزي المتوفى سنة ٢٧٥، وأبو داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥، وإبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٠ وغيرهم.

وله كتاب الأشربة سرد فيه الأدلة على أنَّ كل ما فيه مادة الإسكار فحرام، قلّت أو كثرت، وقد طبع ببغداد. وله كتاب «علل الحديث».

* * *

ذِكرُه في النّاس وَفي الآفَاق

عالم جليل ومحدث كبير حمل أغزر ما في عصر التابعين وما بعدهم من علم الكتاب والسنّة، مع غاية في الاجتهاد ليكون في عمله أتبع منه في علمه، مع الثبات على ذلك منذ نشأته إلى أن توفاه الله، بل كان يزداد كل يوم قرباً من الله ورسوله ـ ويرى أنه مع المقصرين ـ لم يرجع قط ولم يقف، ولم يتساهل في شيء مما ألزم نفسه به مع شدة حاجته أحياناً إلى أن يتساهل، واستهان بعد ذلك بروحه وتعذيب جسده في سبيل الثبات على السنّة، متصدياً للبدعة والمبتدعين.

هذا هو أحمد بن حنبل لم يحظ عظيم بمثل شهرته، فهو شمس عصره خفيت بظهوره الكواكب والأقمار.

قال أبو بكر المروزي[1]: قلت لأبي عبد الله: إن رجلاً قدم من طرسوس فقال لي: إنا كنا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل رفعوا أصواتهم بالدعاء؛ ادعوا لأبي عبد الله، وكنا نمد المنجنيق ونرمي عنه، ولقد رمي عنه بحجر والعلج على الحصن متترس بدرقة[2] فذهب برأسه وبالدرقة؛ فتغير وجه أبي عبد الله وقال: **ليته لا يكون استدراجاً**.

---

(١) المناقب ١٤٩.

(٢) الدرقة: هي نوع من الترس.

وقال أحمد بن علي الأبار[1]: سرنا في نهر بلخ أياماً وفني زادنا، فخرجت إلى نحو بخارى أشتري طعاماً فإذا رجل أشقر أحمر فقال: يا فتيان من أين أنتم؟ قلنا: من أهل بغداد، قال: فما فعل أحمد ابن حنبل؟ قلنا تركناه في الحياة، فرفع رأسه يقول: اللهم ـ يدعو له ـ فقلت لرفيقي: بقي لك شيء؟ هذا أقصى عمل الإسلام[2]، هذا موضع الترك.

وقال أبو بكر المروزي[3]: قلت لأبي عبد الله: إن رجلاً قال لي: إنه من بلاد الترك إلى ههنا يدعو لك، فكيف تؤدي شكر ما أنعم الله عليك، وما بث لك في الناس فقال: أسأل الله أن لا يجعلنا مرائين.

وقال أحمد بن الحسين بن حسان[4]: سمعت رجلاً من خراسان يقول: عندنا بخراسان يرون أن أحمد بن حنبل لا يشبَّه؛ يظنون أنه من الملائكة!.

قال أحمد بن الحسين[5]: وقال لي رجل كان في ثغر: نحن نقول: «نظرة من أحمد بن حنبل خير ـ أو قال تعدل ـ عندنا بعبادة سنة».

يقول علي بن الجهم[6]: كنت ناشئاً شاباً فرأيت الناس يمرون أفواجاً، فسألت: فقالوا: ههنا رجلٌ رأى أحمد بن حنبل؛ فقلت له: أرأيت أحمد بن حنبل؟ فقال: صليت في مسجده.

---

(١) المناقب ١٤٩.
(٢) عمل الإسلام: أي حدود البلاد الإسلامية.
(٣) المناقب ١٤٩.
(٤ و ٥ و٦) المناقب ١٥٠.

قال عبد الله بن عدي الحافظ[1]: سمعت محمد بن عبد الله الصيرفي يخاطب المتعلمين لمذهب الشافعي، يقول لهم: اعتبروا بهذين الرجلين: حسين الكرابيسي، وأبي ثور، الحسين في علمه وحفظه، وأبو ثور لا يعشره في علمه، فتكلم فيه أحمد بن حنبل في باب اللفظ[2] فسقط، وأثنى على أبي ثور فارتفع للزومه السنّة.

قال أحمد بن حنبل[3]: لما قدمت صنعاء اليمن أنا ويحيى ابن معين في وقت صلاة العصر فسألنا عن منزل عبد الرزاق، فقيل: إنه بقرية يقال لها الرمادة، فمضيت لشهوتي للقائه وتخلف يحيى ابن معين؛ وبينها وبين صنعاء قريب، حتى إذا سألت عن منزله، قيل: هذا منزله، فلما ذهبت أدق الباب فقال لي بَقَّال تجاه داره: لا تدق، فإن الشيخ يهرب، فجلست، حتى إذا كان قبل صلاة المغرب خرج لصلاة المغرب؛ فوثبت إليه، وفي يدي أحاديث قد أثبتُّها، فقلت له: سلام عليكم تحدثني بهذه رحمك الله، فإنني رجل غريب، فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنا أحمد بن حنبل، قال: فتقاصر ورجع، وضمني إليه، وقال: بالله أنت أبو عبد الله؟ ثم أخذ الأحاديث، فلم يزل يقرؤها حتى أشكل عليه الظلام؛ فقال للبقال: هلم المصباح حتى خرج وقت المغرب ـ وكان يؤخرها ـ قال عبد الله بن أحمد: فكان أبي إذا ذكر أنه نوّه باسمه عبد الرزاق بكى!!.

* * *

---

(١) المناقب ١٥١.

(٢) أي أنه كان يقول: إن لفظي بالقرآن مخلوق، وكان أحمد يفسق من يقول هذا، وأحياناً يكفره، وأحياناً يرى أن الكلام في ذلك بدعة.

(٣) المناقب ١٥٢.

انتشار مذهبه

لم يكن مذهب الإمام أحمد في انتشاره ومقدار المتمذهبين به بين الناس وفي البلاد والأمصار على قدر سمعة الإمام نفسه في علمه وورعه ودينه، ولم ينتشر كالمذاهب الثلاثة الباقية؛ مع ما به من القابلية العظمى ليمنح كل العصور والأمم من الناحية الاشتراعية والاجتماعية ما لا نجد مثله في غيره، وقد حمله ورتبه وأتم أصوله على أصل الإمام أئمة من فحول العلماء في السنّة والمذهب وفي دقة الاستنباط والاستدلال.

ولا بد أن هناك أسباباً لذلك؛ يقول ابن خلدون[1]: «فأما أحمد ابن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنّة ورواية الحديث» أما قوله: «لبعد مذهبه عن الاجتهاد»:

فقد قدمنا القول في ذلك في باب فقهه واجتهاده ومع ذلك فالإمام وجميع علماء المذهب لم يغلقوا باب الاجتهاد كما فعل غيرهم، بل فتحوه على مصراعيه لكل العصور، ولو خرج ابن خلدون عن التعصب

(١) المقدمة ٣٥٥.

لمالكيته قليلاً، ونظر إلى الأصول التي أصلها الإمام أحمد ومن بعده علماء مذهبه لعثر على أن له اجتهاداً وأصولاً لا يقل بذلك عن غيره. وأما أنهم يهتمون بالرواية فهذا موضع فخرهم، فإنهم استمسكوا بها واستنبطوا منها أصولاً قابلة للحركة مع قوة الدليل.

فلعل من أسباب ذلك: أن الإمام أحمد جاء عقب الأئمة الثلاثة وائمةٍ غيرهم وقد أخذوا من المقلدين والأتباع الحظ الأوفر.

ومن أسباب ذلك: أن الذي كان يتولى القضاء غالباً الأحناف والشافعية في الأمصار وكذلك الفتوى، فأكثر من استأثر بها الأحناف، وقل جداً إقبال الحنابلة على القضاء. وهذا يعين على اشتهار المذهب والدعوة إليه.

وقد يظن أن من أعظم الأسباب شدتهم وتعصبهم على من لم يقل بقولهم في عقائدهم، ومنها مقالة خلق القرآن، فقد حاربوا كثيراً من العلماء ومنهم كبار المحدثين، وسموا فئات منهم بالواقفية: وهم الذين يقولون القرآن كلام الله، وسكتوا، لم يصرحوا بأنه غير مخلوق، وسموا فئاتٍ باللفظية: وهم الذين يقولون لفظي بالقرآن مخلوق. فحاربوا هؤلاء وهؤلاء وضللوهم وقد تقدم ذلك، فشهروا بالتشدد حتى قيل: مالَكَ حنبلياً؟ إشارة إلى شدته وتعصبه.

ووصف ذلك ابن قتيبة ـ وهو ممن عاين ذلك ـ فيقول: «ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث، فيبلؤونه قبل الكتاب بالمحنة، فالويل له إن تلعثم أو تمكث، أو سَعل، أو تنحنح قبل أن يعطيهم ما يريدون، فيحمله الخوف من قدحهم فيه وإسقاطهم له على أن يعطيهم الرضا، فيتكلم بغير علم، ويقول بغير فهم، فيتباعد من الله في المجلس الذي أمل أن يتقرب فيه، وإن كان ممن يعقد على مخالفتهم سام نفسه

إظهار ما يحبون ليكتبوا عنه.. وإن رأوا حَدَثاً مسترشداً، أو كهلاً متعلماً سألوه، فإن قال لهم: أنا أطلب حقيقة هذا الأمر وأسأل عنه، ولم يصح لي شيء بعد، وإنما صدقهم عن نفسه، واعتذر بعذره والله يعلم صدقه وهم يعلمون أنه لم يتكلفه إذا لم يعلم إلا أن يسأل ويبحث ليعلم؛ كذبوه وآذوه، وقالوا: خبيث فاهجروه ولا تقاعدوه[1].

وفي الكامل لابن الأثير[2]: وفيها - أي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة - عظم أمر الحنابلة، وقويت شوكتهم، وصاروا يكبسون في دور القواد والعامة، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها، وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، ومشى الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو؟ فأخبرهم، وإلا ضربوه، وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة، فأرهجوا بغداد.

فركب بدر الخرشني، وهو صاحب الشرطة، عاشر جمادى الآخرة، ونادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهاري الحنابلة، ألا يجتمع منهم اثنان، ولا يتناظروا في مذهبهم، ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين، فلم يفد فيهم، وزاد شرهم وفتنتهم، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد، وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان، فيضربونه بعصيهم، حتى يكاد يموت!!.

فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة يُنكر عليهم فعلهم، ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره، فمنه تارة أنكم تزعمون أن صورة

---

(١) الاختلاف في اللفظ ٦٢.

(٢) الكامل ج ٨/٣٠٧.

وجوهكم القبيحة السمجة[1] على مثال ربِّ العالمين، وهيئتكم الرذلة على هيئته، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين، والشعر القَطِط، والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا، تبارك الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، ثم طعنكم على خيار الأئمة، ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة، وتشنيعكم على زوارها بالابتداع. وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام، ليس بذي شرف، ولا نسب، ولا سبب برسول الله ﷺ وتأمرون بزيارته، وتدعون له معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات، ما أغواه!!.

وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم، ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً، وقتلاً وتبديداً، وليستعملن السيف في رقابكم، والنار في منازلكم ومحالِّكم.

وأبو محمد البربهاري المذكور في أوائل الكلام، هو الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهاري يقول عنه ابن الأثير أنه: كان مقدم الحنابلة والسنّة من العامة، ولهم فيه اعتقاد عظيم[2] وبلغ من نفوذه

---

(١) حاشا لله أن يكون هذا رأي الإمام أحمد أو خلفائه أو علماء المذهب، وهذا القول زيادة تبكيت لهم ولا تسل عن صنيع الغوغاء التي لا تفهم ما تقول حين تتشبث بمذهب أو رأي، كيف يثورون حتى لما يحرفون، على أنه خرج منهم فئات مجسمة قبيحة القول سيئة الاعتقاد، يبرأ منهم الإمام أحمد أكثر مما يبرأ من الجهمية.

(٢) الكامل ١٦/٨.

وقوته بين العامة أن ابن المعتز لما هرب هو ووزيره كان له غلام ينادي بين يديه: يا معشر العامة، ادعو لخليفتكم السنّي البربهاري[1]، أراد أن ينسب نفسه لأبي محمد الحسين بن القاسم البربهاري زعيم الحنابلة في عصره، والقابض على زمام العامة.

وله في مجال إثارة العامة أعمال كثيرة أيقظ في بعضها الفتن، وأحسن في البعض الآخر، ومنها ما ذكره أيضاً ابن الأثير في الكامل[2] إذ قال: وفيها ـ أي في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ـ أمر علي ابن بليق ـ وكان من كبار القواد في زمن القاهر ـ قبل قبضه، كاتبه الحسن ابن هارون بلعن معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد على المنابر ببغداد، فاضطربت العامة، فأراد علي بن بليق أن يقبض على البربهاري رئيس الحنابلة، وكان يثير الفتن هو وأصحابه، فعلم بذلك فهرب، فأخذ جماعة من أعيان أصحابه وحبسوا وجعلوا في زورق وأحدروا إلى عُمان.

والحق أن عمله هذا ليس فتنة، بل قد أثار العامة ليمنع منكراً، فالمنابر لم توضع للعن المسلمين. أما ما أوردناه قبل من أعمال البربهاري فهي لا شك فتن، لأنها كان يخشى منها أن تجعل بعض الناس بهذا التصرف والقسوة والتعصب ينسلخون مما اعتقدوه، فقد يكون ما فعلوه خيراً ربا عليه الشر.

وما كان هذا حال الإمام أحمد ولا أصحابه الأوائل ولا علماء المذهب، فإنهم ينكرون المنكر، دون أن يثيروا العامة، أو يُحرجوا الحكام والأمراء، وإذا كانوا قد تشددوا في مسألة خلق القرآن، وصفات الله فذلك لأنهم يريدون أن يقروا الحق ـ أو ما يعتقدون أنه

---

(١) الكامل ١٦/٨.

(٢) المصدر نفسه ٢٧٣/٨.

الحق - في نصابه ولأن لهم خصوماً ألداء أصحاب منطق وجدل وكان السلطان معهم، فما كانوا يستطيعون الثبات لهم، إلا بإقدام وقوة يرجحون بها كفتهم وليس لهم خصم واحد، ولكنهم خصوم مختلفو الأهواء والنحل: من الجهمية والمعتزلة والمرجئة وكثيرٍ من الفقهاء والأشاعرة، حتى بعض المحدثين.

وهذا كله يجعل الناس يتوجفون حذرين من أن ينتسبوا إلى مذهب الإمام أحمد، وهذا من أسباب عدم انتشار المذهب؛ ومع ذلك فقد ذكر المقدسي: أنه رأى الحنابلة في أصفهان والريّ وشهرزور، وجاء في دائرة المعارف الإسلامية[1]: كان الحنابلة حتى القرن الثامن الهجري أكثر انتشاراً في بلاد الإسلام. وهذا كلام فيه مبالغة على إطلاقه، ففي هذا القرن وما قبله كان المذهب الشافعي والمذهب الحنفي أشد انتشاراً. ومنذ أكثر من قرن ونصف أصبح المذهب الحنبلي المذهب السائد في المملكة العربية السعودية.

* * *

(١) دائرة المعارف العدد ٣٦٨/١٣.

رؤى الناس في حقه

لا نأتي هنا على ذكر المرائي اعتماداً عليها في تقييم إنسان ما بالخير أو الشر، وإنما نأتي بها على سبيل الاستئناس بها، وهي في حقيقتها صورة عن الانفعالات الداخلية للرائي ولمجتمعه الذي يعيش فيه، وعلى هذا يمكن أن نستوحيها لفكرة خاصة أو لفكرة سائدة ويقول رسول الله ﷺ: «الرؤيا ثلاثة: منها تهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم ـ أي ولا حقيقة لها في نفس الأمر ـ ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

وفي الحديث الصحيح «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» وفي رواية: «إلا الرؤيا الصالحة يراها»[1].

المرائي التي رؤي بها:

قال صدقة المقابري: كان في نفسي على أحمد بن حنبل، قال: فرأيت في النوم كأن النبي ﷺ يمشي في طريق وهو آخذ بيد أحمد ابن حنبل وهما يمشيان في تؤدة ورفق، وأنا خلفهما أجهد نفسي أن ألحق بهما فما أقدر، فلما استيقظت ذهب ما كان في نفسي. ثم رأيت بعد كأني في الموسم، وكأن الناس مجتمعون فنادى منادٍ: الصلاة جامعة،

---

(١) الحديث في الجامع الصغير مرموز إليه بالصحة.

فاجتمع الناس، فنادى منادٍ: يؤمكم أحمد بن حنبل فإذا أحمد ابن حنبل يصلي بهم، وكنت إذا سئلت عن شيء قلت: عليكم بالإمام أحمد بن حنبل.

وقال عمار[١]: رأيت الخضر عليه السلام في المنام فسألته قلت: أخبرني عن أحمد بن محمد بن حنبل؟ قال: صِدِّيق.

يقول عبد الله بن الحسين بن موسى[٢]: رأيت رجلاً من أهل الحديث توفي، فرأيت فيما يرى النائم، فقلت له: بالله عليك! ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. فقلت: بالله؟ قال: بالله إنه غفر لي فقلت: بماذا غفر الله لك؟ فقال: بمحبتي لأحمد بن حنبل فقلت: فأنت في راحة؟ فتبسم وقال: أنا في راحة وفرحة.

يقول سلمة بن شبيب[٣]: كنا عند أحمد إذ جاءه شيخ معه عكازه فسلم وجلس، فقال: من منكم أحمد؟ قال أحمد: أنا، ما حاجتك؟ قال: صرت إليك من أربعمائة - أي ميل - أُريت الخضر عليه السلام في المنام، قال لي: قم وصر إلى أحمد بن حنبل، وقل له: إن ساكن العرش والملائكة راضون عنك بما صبرت نفسك.

يقول أبو بكر المروزي[٤]: رأيت أحمد بن حنبل في المنام وعليه ثوبان مصقولان، وعلى رأسه تاج له ثمانية أركان في كل ركن منه ياقوتة تضيء، وكذا في رجله نعل من لؤلؤ رطب شراكها من زبرجد

---

(١) الحلية ٩/١٨٧ وابن عساكر ٨٢ - أ واللفظ له.
(٢) طبقات الحنابلة ١/١٩.
(٣) ابن عساكر ٧٦ - أ.
(٤) المصدر نفسه ٧٦ - ب.

أخضر، فقلت: يا أحمد، بماذا نلت ذا من ربك؟ قال: بقولي: القرآن كلام الله وليس بمخلوق.

قال إسحاق بن حكيم[1]: رأيت أحمد بن حنبل في المنام، فإذا بين كتفيه سطران مكتوبان من نور كأنهما بحبر: ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾[2].

وقال حبيش بن الورد[3]: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا نبي الله، ما بال أحمد بن حنبل؟ فقال: سيأتيك موسى عليه السلام فاسأله، فإذا أنا بموسى عليه السلام فقلت: يا نبي الله، ما بال أحمد ابن حنبل؟ فقال: أحمد بن حنبل بُلي في السراء والضرّاء فوجِد صدِّيقاً فألحق بالصديقين.

يقول عبد الله بن جُميع[4]: قدم علينا رجل من أهل العراق - يقال: إنه من أفاضلهم - فقال لي يوماً: رأيت رؤيا وقد احتجت أن تدلني على رجل حسن العبارة يعبر، قال: قل. فقال لي: رأيت النبي ﷺ كأنه في فضاء من الأرض، وعنده نفر، فقلت لبعضهم: من هذا؟ فقال لي: هذا محمد النبي ﷺ فقلت: وما تصنعون ههنا، قال: ينتظر أمته أن يوافوه فقلت في منامي: لأقعدن حتى أنظر ما يكون حاله في أمته، فبينا أنا كذلك إذ اجتمع الناس، وإذا مع كل رجل قناة، فظننت أنه يريد أن يبعث بعثاً قال: فنظر ﷺ فرأى قناة أطول من تلك القنا كلها، فقال: من صاحب القناة؟ قالوا: أحمد بن حنبل، فقال النبي

(١) الحلية ٩/١٨٧.

(٢) البقرة «١٣٧».

(٣) الحلية ٩/١٨٩.

(٤) ابن عساكر ٨٢ـأ.

ﷺ ايتوني به، فجيء به والقناة في يده، فأخذها النبي ﷺ فهزها ثم ناوله إياها وقال له: اذهب فأنت أمير القوم، ثم قال للناس: اتبعوه فإنه أميركم، واسمعوا له وأطيعوا، قال عبيد الله بن خبيق: هذه رؤيا لا تحتاج إلى عبارة.

قال بلال الخواص[1]: رأيت الخضر عليه السلام في النوم، فقلت له: ما تقول في بشر؟ قال: لم يخلف بعده مثله، قلت: ما تقول في أحمد بن حنبل؟ قال صدّيق، قلت: ما تقول في أبي ثور؟ قال: رجل طالب حق، قلت: فأنا بأي وسيلة رأيتك؟ قال: ببرك أمَّك.

* * *

---

(١) الحلية ١٨٧/٩.

مَرَضُ الإِمَامِ عليه وَوَفَاتُهُ

لو كان البقاء تكريماً لأحد من خلق الله لكان أجدر الخلق بهذا التكريم محمد رسول الله ﷺ، ولكن الموت سنة الله لهذه الحياة ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

وهكذا كانت حياة أبي عبد الله حافلةً بالخير للأمة، بل أيقظت حياته شعور الاعتزاز بالإسلام عامة، وبسنّة رسول الله ﷺ خاصة، وما كان يدري إلا الله ماذا يكون حال الإسلام والسنّة، لو لم يكن في هذه الفترة الإمام أحمد، وتلاعب الجهمية والمعتزلة بعقول بعض الخلفاء الذين انحرفوا عن السنّة، ولكن حين أتم الله له ما أراد كتب الله عليه ما كتبه على كل حي؛ فسعى إليه المرض ثم استأثر الله به على خير ما يموت الأفذاذ من الرجال.

مرض الإمام:

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل[1]: سمعت أبي يقول: استكملت سبعاً وسبعين سنة ودخلت ثمان وسبعين؛ فحُم من ليلته، وذلك في يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول. يقول صالح: ودخلت عليه يوم الأربعاء وهو محموم يتنفس الصعداء، وهو ضعيف فقلت: يا أبة ما

---

(١) المناقب ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

كان غـداؤك؟ فقال: ماء الباقِلاء، ثم إنه أراد القيام فقال: خذ بيدي، فلما صار إلى الصلاة ضعفت رجلاه حتى توكأ علي[1] وكان يختلف إليه أكثر من متطبب كلهم مسلمون.

وكان ربما أذن للناس فيدخلون أفواجاً يسلمون عليه ويرد عليهم، وتسامع الناس وكثروا، وسمع السلطان بكثرة الناس فوكَّل ببابه، وبباب الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار، ثم أغلق باب الزقاق، فكان الناس في الشوارع والمساجد، حتى تعطل بعض الباعة وحيل بينهم وبين البيع والشراء، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربما دخل من بعض الدور وطرز[2] الحاكة، وربما تسلق، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب.

وجاء حاجب ابن طاهر، فقال: إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك، فقال: هذا مما أكره، وأمير المؤمنين أعفاني مما أكره، وأصحاب الخبر يكتبون بخبره إلى العسكر، والبُرُد تختلف كل يوم، وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه وجعلوا يبكون عليه، وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم، ودخل عليه شيخ فقال: اذكر وقوفك بين يدي الله، فشهق أبو عبد الله وسالت الدموع على خديه[3].

وجاء رجل[4] من جيران الإمام يعوده وقد خضب فدخل عليه، فقال الإمام: إني لأرى الرجل يحيي شيئاً من السنّة فأفرحُ به. وجاء رجل[5] فقال لصالح بن أحمد: تلطف لي بالإذن عليه، فإني قد حضرت

---

(١) ابن عساكر ٧٨ ـ ب.

(٢) الطرز: جمع طراز وهو هنا الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجيدة وقد تقدم.

(٣) طبقات الشافعية ٢/٣٤.

(٤ و ٥) المناقب ٤٠٣.

ضربه يوم الدار، وأريد أن أستحله، فقلت له: فأمسك فلم أزل به حتى قال أدخله، فأدخلته، فقام بين يديه وجعل يبكي، وقال: يا أبا عبد الله، أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك، فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك، وإن رأيت أن تُحلّني فعلت، فقال: على ألا تعود لمثل ذلك، قال: نعم قال: إني جعلتك في حِل، فخرج يبكي وبكى من حضر من الناس.

هذا وقد بلغه(١) في مرضه عن طاووس أنه كان يكره أنين المريض، وأنه قال: أنين المرضى شكوى الله(٢). قال عبد الله: فما أنَّ حتى مات.

وكان(٣) قد ولد له صبي قبل موته بخمسين يوماً فسماه سعيداً، وكان له ولد آخر اسمه محمد قد مشى حين مرض فدعاه فالتزمه وقبله، ثم قال: ما كنت أصنع بالولد على كبر السن؟ فقيل له: ذرية تكون بعدك يدعون لك، قال: وذاك إن حصل، وجعل يحمد الله تعالى. قال صالح(٤): وكان له في خريقته قطيعات - أي من الفلوس والدراهم - فإذا أراد الشيء أعطينا من يشتري له، فقال لي يوم الثلاثاء: انظر في خريقتي، فنظرت فإذا فيها درهم، فقال: وجِّه فاشترِ تمراً وكفر عني كفارة يمين، ففعلت، وبقي من ثمن التمر ثلث درهم أو نحو ذلك، فأخبرته فقال: الحمد لله، وقال: اقرأ عليَّ الوصية فقرأتها عليه فأقرها على حالها.

---

(١) البداية ٣٤١/١٠.
(٢) وما قيل من أن أنين المريض تسبيح فشديد الضعف.
(٣) البداية ٣٤١/١٠.
(٤) ابن عساكر ٧٨ - ب.

وكان يصلي قاعداً، ويصلي وهو مضطجع لا يكاد يفتر، ويرفع يديه في إيماء الركوع.

وأدخلت الطست تحته فرأيت بوله دماً عبيطاً ليس فيه بول، فقلت للطبيب، فقال: هذا الرجل قد فتَّ الحزنُ والغمُّ جوفه. واشتدت به العلة يوم الخميس ووضّأته، فقال: خلل الأصابع، فلما كانت ليلة الجمعة ثقل فظننت أنه قد قبض، وأردنا أن نمدده فجعل يقبض قدميه وهو موجه، وجعلنا نلقنه فنقول: لا إله إلا الله ونردد ذلك عليه، وهو يهلل، وتوجه إلى القبلة واستقبلها بقدميه.

وقال صالح بن أحمد: لم يزل أبي يصلي في مرضه قائماً أمسكه فيركع ويسجد، وأرفعه في ركوعه وسجوده.

ودخل عليه مجاهد بن موسى فقال: يا أبا عبد الله قد جاءتك البشرى، هذا الخلق يشهدون لك، ما تبالي لو وردت على الله عز وجل الساعة، وجعل يقبل يده ويبكي، واجتمعت عليه أوجاع الحصر وغير ذلك، ولم يزل عقله ثابتاً، وهو في خلال ذلك يقول: كم اليوم في الشهر؟.

وكنت أنام بالليل إلى جنبه، فإذا أراد حاجة حركني فأناوله.

عند احتضاره:

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل[1]: لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده، وبيدي الخرقة لأشد بها لَحْييه، فجعل يغرق ثم يفيق، ثم يفتح عينيه ثم يقول بيده هكذا: لا، بَعْد، لا، بَعْد، لا، بَعْد. ثلاث مرات، ففعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبة أي

---

(١) المناقب ٤٠٨.

شيء هذا؟ قد لهجت به في هذا الوقت، تغرق حتى نقول قد قضيت، ثم تعود فتقول: لا، بعد، لا، بعد، فقال لي: يا بني، ما تدري؟ فقلت: لا، فقال: إبليس لعنه الله قائم حذائي عاض على أنامله، يقول لي: يا أحمد فُتَّني، وأنا أقول له: لا، بعد، حتى أموت.

وقال صالح بن أحمد: جعل أبي يحرك لسانه إلى أن توفي.

وفاته رحمه الله:

في يوم[1] الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، توفي أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل عظيم القرن الثالث وأعظم سند للسنّة وأهلها؛ توفي وله من العمر سبع وسبعون سنة، وأيام.

قال صالح بن أحمد: لما توفي أبي واجتمع الناس في الشوارع وجهت إليهم أعلمهم بوفاته وأني أخرجه بعد العصر.

غسله وتكفينه:

وبعث محمد بن طاهر[2] بحاجبه مظفر ومعه غلمان، ومعهم مناديل فيها أكفان وطيب، وأرسل يقول: الأمير يقرئك السلام، ويقول: قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضره كان يُفعل ذلك له، فأرسل أولاده يقولون: إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره، وأبوا أن يكفنوه بتلك الأكفان، وأتي بثوب كان قد غزلته جاريته فكفنوه به واشتروا معه لفافة وحنوطاً، واشتروا له راوية ماء، وامتنعوا أن يغسلوه بماء بيوتهم، لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل منها، ولا

---

(١) البداية ١٠/٣٢٦ و٣٤٢.

(٢) البداية والنهاية ١٠/٣٤١ ومحمد بن طاهر: هو محمد بن عبد الله بن طاهر، ولي نيابة بغداد أيام المتوكل، توفي سنة ٢٥٣.

يستعير من أمتعتهم شيئاً، وكان لا يزال متغضباً عليهم، لأنهم كانوا يتناولون ما رتب لهم على بيت المال، وهو في كل شهر أربعة آلاف درهم، وكان لهم عيال كثيرة وهم فقراء.

تغسيله والصلاة عليه في الدار:

وحضر غسله[1] نحو مائة من بيت الخلافة من بني هاشم، فجعلوا يقبلون بين عينيه، ويدعون له، ويترحمون عليه.

وصلى عليه داخل الدار أولاده والهاشميون، قبل أن يخرج إلى المصلى، وقد كان الناس رجالاً ونساءً يتزاحمون في الشوارع منتظرين خروج الجنازة ليصلوا عليها في المصلى ثم يتبعوها إلى مثواها الأخير.

الصلاة عليه:

وخرج الناس بنعشه، والخلائق من حوله من الرجال والنساء ما لم يعلم عددهم إلا الله فوضعت في صحراء أبي قيراط[2]، وكان الناس خلفه إلى عمارة سوق الرقيق، وأمَّ الناسَ بالصلاة عليه محمد بن عبدالله ابن طاهر نائب بغداد وغلب أولاده على الصلاة عليه ثم وقف في جملة الناس، وتقدم بعد ذلك فعزى أولاد الإمام أحمد فيه، وقد أعاد جماعة الصلاة عليه عند القبر، وعلى القبر بعد أن دفن،من أجل ذلك، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر،وذلك لكثرة الخلق. وقال المتوكل على الله[3] لمحمد بن عبد الله بن طاهر: طوبى لك صليت على أحمد بن حنبل.

---

(١) ابن عساكر ١٩ ـ أ ـ ب.

(٢) ابن عساكر ٨٠ ـ أ والبداية ٣٤١/١٠.

(٣) طبقات الحنابلة ١٦/١.

وقال حجاج بن محمد الشاعر[1]: ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصلِّ على أحمد بن حنبل.

شعرات للنبي ﷺ:

وكانت عنده شعرات للنبي ﷺ كلما حَزَبه أمر وضعها تبركاً، راجياً من الله ألا يخذله مدلاً بمحبة رسول الله ﷺ وسنّته، متبركاً بآثاره.

ولقد أوصى ـ رحمه الله ـ بأن توضع هذه الشعرات واحدة على لسانه، واثنتان كل واحدة على عين كأنه يريد أن يقول: لم أنطق ولم أعمل إلا بسنتك يا رسول الله، ولم أجعل نظري يقر إلا ما أمرت به، ويفر كارهاً مما نهيت عنه.

تقدير من صلى عليه:

يرحم الله الإمام أحمد كان ذَهِناً زَكِناً[2] حين كان يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز[3].

لقد تحداهم الإمام بذلك لأن الكثرة التي تخرج طوعاً لا لرغب ولا رهب، هي من المقاييس الظاهرة التي يصح بها الحكم على إخلاص من يتزاحمون على الصلاة عليه واتباع جنازته، وقد صحت فراسته، فكثير ممن مات على البدعة، أو مات مسايراً لأهلها لم يخرج بجنازته إلا العدد القليل، فمن عيون مخالفيه المبتدع الكبير قاضي قضاة الدنيا أحمد بن أبي دؤاد لم يحتفل أحد بموته، ولم يلتفت إليه، وما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان، وكذلك الحارث المحاسبي مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته لم يصل عليه إلا

---

(١) البداية ٣٤٢/١٠.

(٢) يقال: رجل ذَهِن زَكِن: عظيم الفراسة.

(٣) ابن عساكر ٨٠ ـ ب.

ثلاثة أو أربعة من الناس، وكذلك بشر بن غياث المريسي لم يصلِّ عليه إلا طائفة يسيرة جداً.

أما الإمام أحمد فيقول ابن كثير[1]: قد صدق الله قول أحمد ـ وهو القول السابق ـ وقد صلى عليه من الرجال والنساء ما لا يحصى كثرة، حتى كان عبد الوهاب الوراق يقول[2]: ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية ولا في الإسلام اجتمعوا على جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع على جنازة أحمد.

قال أبو عبد الرحمن على أثر هذه الحكاية[3] ـ وهي قول أحمد قولوا لأهل البدع ـ: إنه حزر الحزارون المصلين على جنازة أحمد فبلغ العدد بحزرهم ألف ألف وسبعمائة ألف سوى الذين كانوا في السفن. وروى البيهقي وغير واحد[4]: أن الأمير محمد بن طاهر أمر بحزر الناس، فوجدوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وفي رواية: وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن.

وقال ابن أبي حاتم[5]: سمعت أبا زرعة يقول: بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه حيث صلوا على الإمام أحمد بن حنبل، فبلغ مقاسه ألفي ألف وخمسمائة ألف.

ما حدث عند حمل جنازته:

يقول محمد بن إبراهيم البوشنجي[6]: صلوا على أحمد بن حنبل في المصلى، وظهر اللعن على الكرابيسي، فأخبر بذلك المتوكل

(١ و ٢) البداية ١٠/٣٤٢.

(٣) ابن عساكر ٨٠ ـ ب.

(٤ و ٥) البداية ١٠/٣٤٢.

(٦) المناقب ٤١٧.

فقال: من الكرابيسي[1]؟ فقيل: إنه رجل أحدث قولاً لم يتقدمه أحد، فأمره بلزوم بيته حتى توفي سنة ٢٤٨ هـ فيكون قد لازم بيته نحو سبع سنوات.

ويقول جعفر بن محمد النسوي[2]: شهدت جنازة أحمد بن حنبل، وفيها بشر كثير، والكرابيسي يلعن لعناً كثيراً بأصوات عالية، والمريسي أيضاً. وهو بشر بن غياث معتزلي جهمي مرجىء وتوفي سنة ٢١٨ هـ.

ويقول عبد الوهاب الوراق[3]: أظهر الناس في جنازة أحمد ابن حنبل السنّة والطعن على أهل البدع، فسر الله المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العز وعلو الإسلام. وكبت الله أهل البدع والزيغ والضلالة.

أقول: الكرابيسي: هو الحسين بن علي من أجلِّ أصحاب الشافعي العراقيين، ولكنه كان لفظياً أي إنه يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وهذا مما كان يغضب الإمام أحمد ـ كما مر بنا ـ وكان الكرابيسي أيضاً

---

(١) الكرابيسي: هو الحسين بن علي بن يزيد من كبار أصحاب الشافعي العراقيين، وكان ـ كما يقول الخطيب البغدادي ـ فهماً عالماً فقيهاً، وله تصانيف كثيرة في الفقه تدل على حسن فهمه وغزارة علمه. ولكنه اختلف مع الإمام أحمد، فالكرابيسي يرى أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولكن لفظنا به مخلوق، فلما أخبر بذلك الإمام أحمد أنكر ذلك وقال: هي بدعة، فلما علم إنكار أحمد، كأنه ساءه أن يغضب الإمام فقال: تلفظك في القرآن غير مخلوق، فرجع إلى أحمد من سمع من الكرابيسي وبلغه رجوع الكرابيسي فقال أحمد: وهذا أيضاً بدعة، فقال الكرابيسي مغضباً: إيش نعمل بهذا الصبي؟ إن قلنا مخلوق قال بدعة، وإن قلنا غير مخلوق قال بدعة، فبلغ ذلك أبا عبد الله الإمام فغضب له أصحابه، فتكلموا في حسين. اهـ. ملخص من تاريخ بغداد.

(٢ و ٣) المناقب ٤١٧ ـ ٤١٨.

يتكلم في الإمام أحمد، فتجنب الناس الأخذ عنه، ولما بلغ يحيى ابن معين أنه يتكلم في أحمد، لعنه، وقال: ما أحوجه أن يضرب. قال الخطيب عنه: وكان فهماً عالماً فقيهاً، وله تصانيف كثيرة فلما مات الإمام بحث العامة عمن كان خصماً له، فآذوه بلعنه ولو أمكنهم لقتلوه وقطعوه. وهو بريء من البدعة والمبتدعين، ولكن العامة إذا تشبثوا بأمر فقدِّر ـ ولا حرج ـ ما يحمل تشبثهم من شر يربو على ما يظنونه خيراً.

عند قبره:

يقول محمد بن سعد[1]: ودفن بعد العصر، وحضره خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم. وقال ابن أبي خيثمة[2]: صلى عليه محمد ابن عبد الله بن طاهر أمير بغداد، ودفن بباب حرب. وفي دائرة المعارف الإسلامية[3]: يقوم قبره بين مقابر الشهداء في حي الحربية ببغداد. وازدحم الناس على قبره ازدحاماً لم يعرف له في عصره نظير، فقد حدث أبو الحسن التميمي[4] عن أبيه عن جده أنه حضر جنازة أحمد ابن حنبل قال: فمكثت طول الأسبوع رجاء أن أصل إلى قبره فلم أصل من ازدحام الناس عليه، فلما كان بعد أسبوع وصلت إلى القبر.

ويقول عبد الوهاب الوراق[5]: ولزم بعض الناس القبر وباتوا عنده، وجعل النساء يأتين، فأرسل السلطان أصحاب المسالح[6] فلزموا الموضع حتى منعوهم مخافة الفتنة.

(١ و ٢) ابن عساكر ٦٢/أ ـ ب.
(٣) العدد ٣٦٦/١٣.
(٤ و ٥) المناقب ٤١٨.
(٦) المسالح: جمع مسلحة: وهي القوم يحملون السلاح.

ولبث قبر الإمام مقصداً للزائرين إلى زمن بعيد حتى أصبح من أكثر الأماكن في بغداد احتشاداً بالزائرين. وقد أمر الخليفة المستضيء سنة ٥٧٤[1] بكتابة لوح على قبر الإمام أحمد بن حنبل، فيه آية الكرسي وبعدها: هنا قبر تاج السنّة وحبر الأمة العالي الهمة، العالم العابد، الفقيه الزاهد، وذكر تاريخ وفاته رحمّه الله.

وظل قبره مدة طويلة محل تقديس الناس، فلما خرب القبر بسبب فيضان نهر دجلة حوالي آخر القرن السابع الهجري، تحول تقديس الناس إلى قبر ابنه عبد الله الذي كان يوجد بين مقابر قريش قرب باب التبن ورممه تيمور عام ٦٩٥ هـ، ومنذ ذلك الوقت اختلط الأمر بين القبرين وتحولت الزيارات التي كانت تقام لأحمد إلى ابنه. كذا جاء في دائرة المعارف الإسلامية[2].

وفي ذيل العبر: في سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وفي جمادى الأولى، كان غرق بغداد المهول من الزيادة، وبقيت كالسفينة وساوى الماء الأسوار، وعمل في سد السكور كل أحد، ودثرت الحوافر، وغرق أمم من الفلاحين، وعظمت الاستغاثة بالله، ودام خمس ليالٍ وعملت سكورة فوق الأسوار، ولولا ذلك لغرق جميع البلد، وليس الخبر كالعيان، وقيل: تهدم بالجانب الغربي نحو خمسة آلاف بيت.

ومن الآيات أن مقبرة الإمام أحمد ين حنبل غرقت سوى البيت الذي فيه ضريحه، فإن الماء دخل في الدهليز علو ذراع ووقف بإذن الله، وبقيت البواري عليها غبار حول القبر، صح هذا عندنا[3].

---

(١) البداية ١٢/٣٠٠.
(٢) العدد ١٣/٣٦٦.
(٣) ذيل العبر للذهبي ١٣٦.

ما حدث بعد وفاته:

يقول الوركاني[1]: يوم مات أحمد بن حنبل وقع المأتم والنوح في أربعة أصناف من الناس: المسلمين، واليهود، والنصارى والمجوس.

أقول: ولئن جاز أن يكون ذلك فإن المراد بعض من اليهود والنصارى والمجوس.

ويروى عن رجل من أهل العلم أنه قال[2] يوم دفن أحمد: دفن اليوم سادس خمسة وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر ابن عبد العزيز، وأحمد.

وعن الوركاني أيضاً[3] ـ وهو رجل كان يسكن إلى جوار الإمام أحمد ـ قال: أسلم يوم مات أحمد من اليهود والنصارى والمجوس عشرون ألفاً، وفي لفظ عشرة آلاف.

قال الذهبي: وهي حكاية منكرة، تفرد بها الوركاني، والراوي عنه، قال: والعقل يحيل أن يقع مثل هذا الحادث في بغداد، ولا يرويه جماعة تتوفر دواعيهم على نقل ما هو دونه بكثير، وكيف يقع مثل هذا الأمر ولا يذكره المروزي، ولا صالح بن أحمد، ولا عبد الله، ولا حنبل، وقد حكوا من أخبار أبي عبد الله جزئيات كثيرة.

قال: فوالله لو أسلم يوم موته عشرة أنفس لكان عظيماً ينبغي أن يرويه نحو من عشرة أنفس. اهـ.

---

(١) ابن عساكر ٨٠ ـ ب.

(٢) البداية ٣٤٢/١٠.

(٣) طبقات الشافعية ٣٥/٢.

المرائي بعد موته:

قال إبراهيم بن جعفر المروزي[1]: رأيت أحمد بن حنبل في المنام يمشي مشية يختال فيها فقلت: ما هذه المشية يا أبا عبدالله؟ قال: هذه مشية الخدام في دار السلام.

وقال ابن مُجمِّع: كان لي جار قتل بقزوين، فلما كانت الليلة التي مات فيها أحمد بن حنبل خرج إلينا أخوه في صبيحتها فقال: إني رأيت رؤيا عجيبة، رأيت أخي في الليلة في أحسن صورة راكباً على فرس، فقلت: يا أخي، أليس قد قُتلت؟ فما جاء بك، قال: إن الله عزّ وجلّ أمر الشهداء، وأهل السموات أن يحضروا جنازة أحمد ابن حنبل، ورأيت أحمد بن حنبل فكنت ممن أُمِر بالحضور. فأرخنا تلك الليلة فإذا أحمد بن حنبل مات فيها.

وقال أحمد بن خريمة الاسكندراني[2]: لما مات أحمد بن حنبل بلغني ذلك، فاغتممت من ذلك غماً شديداً، فلما أن جن الليل أخذت وردي من الليل، ثم نمت فرأيت أحمد بن حنبل عليه أثواب خضر، وعلى رأسه تاج من ذهب، وفي رجليه نعلان وهو يمشي مشية يختال فيها، فقلت: يا أبا عبد الله، أي مشية هذه؟ قال: مشية الخدام في دار السلام، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وألبسني هذين النعلين وهذا التاج، وقال لي: يا أحمد بن حنبل هذا بما قلت: القرآن كلامي، ثم دخلت الجنة، فإذا سفيان الثوري له جناحان أخضران وهو يطير بهما من نخلة إلى نخلة، وهو يقول: ﴿ الحمد لله الذي صدقنا

---

(١) ابن عساكر ٨٠ ـ أ.
(٢) ابن عساكر ٨١ ـ أ.

وعـده وأورثنـا الأرض نتبـوأ من الجنـة حيث نشـاء فنعم أجـر العاملين ﴾[1].

ويقول أبو بكر بن أثروبة[2] ـ وكان من الأبدال كما قيل ـ يقول: رأيت رسول الله ﷺ ومعه أحمد بن حنبل، فقلت: يا رسول الله، من هذا؟ فقال: هذا أحمد بن حنبل وليُّ الله ووليُّ رسول الله وأنفق على الحديث ألف دينار، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، الله تبارك وتعالى ينظر في كل يوم سبعين ألف نظرة في تربة أحمد بن حنبل رحمة الله عليه ومن يزره غفر الله له، ومن يحبه أحبه الله، ومن يبغض أحمد فقد أبغضني ومن أبغضني فقـد أبغض الله. قال أبـو بكـر: فـانتبهت واغتسلت، وصليت ركعتين شكراً لله تعالى. وخلعت ثيابي وتصدقت على الفقراء والمساكين لرسول الله، ولهذا الأمين الثقة أحمد بن حنبل رحمة الله تعالى عليه ثم حججت بعد ذلك، وسافرت إلى قبر أحمد ابن حنبل ببغداد، وزرت وجلست مقيماً عند القبر مدة أسبوع.

قال أبو يوسف بن لحيان[3] ـ وكان من خيار المسلمين ـ: لما مات أحمد بن حنبل رأى رجل في منامه كأن على كل قبر قنديلاً، فقال: ما هذا؟ فقيل له: أما علمت أنه نور لأهل القبور، فنورهم بنزول هذا الرجل بين أظهرهم، قد كان فيهم من يعذب فرحم.

ويقول أبو الفرج الهندبائي[4]: كنت أزور قبر أحمد بن حنبل فتركته مدة، فرأيت في المنام قائلاً يقول لي: لم تركت زيارة قبر إمام السنّة؟!.

---

(١) الزمر «٧٤».

(٢ و٣ و٤) ابن عساكر ٨٠ ـ ب.

وصيته عند الموت

وصية أحمد عند موته[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم». هـذا ما أوصى به أحمد بـن محمد ابن حنبل:

أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين، وأن يحمدوه في الحامدين، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين.

وأوصي أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً.

وأوصي لعبد الله بن محمد ـ المعروف ببوران ـ عليَّ نحواً من خمسين ديناراً، وهو مصدَّق فيها، فيقضى مالَه عليَّ من غلة الدار إن شاء الله، فإذا استوفى أُعطي ولد صالح كل ذكر وأنثى عشرة دراهم.

ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعو لهم.

شهد أبو يوسف وصالح وعبد الله ابنا أحمد بن حنبل.

---

(١) البداية ١٠/٣٤٠ وابن عساكر ٧٨ ـ ب.

وهكذا انقطعت حياة عظيم القرن الثالث، إمام أهل السنّة، وشيخ شيوخ المحدثين بطل مقاومة البدع والمبتدعين، الصابر في سبيل الله وإقامة دينه على أفدح المحن، قدوة أهل الورع والتعفف من الأولياء والصالحين، وقدوة الزاهدين وإمامهم في عصره وما بعده.

رحمه الله ورضي عنه على ما نفع وأخلص وضحّى وصبر.

* * *

خاتمة

هذا هو الإمام أحمد، إمام مذهب في الفقه له أصوله وقواعده، قد يختلف قليلًا أو كثيراً عن غيره من المذاهب المُتعارف عليها، وغيرِ المتعارف عليها، وهو إمام مذهب في أصول العقائد قد يختلف عن جماعة الماتريدية، ويختلف عن الأشاعرة، فالمتأخرون من هؤلاء وهؤلاء يقولون بتأويل المتشابه، والحنابلة يقولون بعدم التأويل، بل يمررون المتشابه على ما جاء من غير تأويل ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ مع اقتران قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ حتى اعترف المتأولون أن مذهب السلف أسلم. وقالوا: إن مذهب الخلف أحكم. والله وحده يعلم المصيب من المخطىء.

والإمام في علمه ودينه وورعه واتباعه السنّة؛ ليس مدعاة ليعتقدَ فيه امرؤ ركوب الهوى، وخَطَل الرأي.

ولا يمكن في حدود العقل والفهم والمنطق أن يحاول امرؤ تصحيح عقيدة الإمام، كما لا يمكن هدمُ جبلٍ شامخٍ أصله ثابت وذروته في السماء بمحاولة عابث جادٍّ في هدمه بإبرة. فالإمام أحمد رحمه الله كان قِمة عصره، وما بعد عصره، وكبار العلماء في زمنه يعتزون بمعرفته والصلة به.

لقد سَخِر بالأهوال التي حاقت به، وهزىء بالسياط التي ألهبت ظهره، لـم يبالِ بالحديد الذي عض ساقه والسجن المطبق في سبيل أن يصون كتاب الله من العبث به، ويحفظه من أن ينزل من علياء سمائه إلى الأرض مخلوقاً كجميع المخلوقات. وما يدري أحد إلا الله ماذا يكون حال المسلمين لو أن هذا الحبر العظيم لم يملك الصبر على البلاء فاستسلم لقسوة المبتدعين، كما نفِد الصبر من غيره من الكبار فاستسلموا، وقالوا مقالة المبتدعين، وندموا بعد ذلك نـدماً كبيراً، لذلك قارنوا ـ بحفظ الإسلام وصونه من تغيير وجهه وفطرته ـ قارنوا بين أبي بكر رضي اللهعنه، وبين الإمام أحمد، فقالوا: «أبو بكر في الردة وأحمد في المحنة» وهذه المقارنة تدل على ما في نفوس كبار المحدثين والعلماء من عظيم التقدير للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ورفعة شأنه بينهم، وليس معنى هذه المقارنة مقارنة الإمام أحمد بالفضل مع أبي بكر رضي الله عنه، فلا يقارن أبو بكر بالفضل مع أحد بعد الأنبياء والمرسلين، وإنما ببعض الشبه، فأبو بكر وقف في وجه الردة وحده والإمام أحمد وقف في وجه أهل البدع وحده.

وما يستطيع مثلي أن يحصي الثناء عليه، وما يتسع المجال لأكثر مما كتبت. وكان ينبغي أن يكتب بكل فضيلة له كتاب مستقل، وجميع من كتب في الإمام من الزمن البعيد إلى يوم الناس هذا ما قدروا أن يوفوه حقه على كل مسلم، وكم من معانٍ يصعب تصويرها بالأقلام؟! وأكثر الإمام أحمد معانٍ، وحسبه حرصه على أن يكون في كل خطرة وفكرة وحركة وعلم وعقيدة مقتدياً برسول الله ﷺ، وأنه حرب على الجهل والانحراف والبدع والمبتدعين.

* * *

الفهرس

أعـــلام المسلمين

سلسلة تراجم إسـلامية تجمـع بين العلم والفكـر والتوجيـه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ ــ **عبد الله بن المبارك**
تأليف: محمد عثمان جمال

٢ ــ **الإمام الشافعي**
تأليف: عبد الغني الدقر

٣ ــ **مصعب بن عمير**
تأليف: محمد حسن بريغش

٤ ــ **عبد الله بن رواحة**
تأليف: د. جميل سلطان

٥ ــ **أبو حنيفة النعمان**
تأليف: وهبي غاوجي الألباني

٦ ــ **عبد الله بن عمر**
تأليف: محيي الدين مستو

٧ ــ **أنس بن مالك**
تأليف: عبد الحميد طهماز

٨ ــ **سعيد بن المسيّب**
تأليف: د. وهبة الزحيلي

٩ ــ **السلطان محمد الفاتح**
تأليف: د. عبد السلام فهمي

١٠ــ **الإمام النووي**
تأليف: عبد الغني الدقر

١١ــ **الشيخ محمد الحامد**
تأليف: عبد الحميد طهماز

١٢ــ **السيدة عائشة**
تأليف: عبد الحميد طهماز

١٣ــ **الإمام البخاري**
تأليف: د. تقي الدين الندوي المظاهري

١٤ــ **عبادة بن الصامت**
تأليف: د. وهبة الزحيلي

١٥ــ **عبد الله بن عباس**
تأليف: د. مصطفى الخن

١٦ــ **جابر بن عبد الله**
تأليف: وهبي غاوجي الألباني

١٧ــ **أحمد بن حنبل**
تأليف: عبد الغني الدقر

١٨ــ **كعب بن مالك**
تأليف: د. سامي مكي العاني

١٩ــ **أبو داود**
تأليف: د. تقي الدين الندوي المظاهري

٢٠ــ **أسامة بن زيد**
تأليف: د. وهبة الزحيلي

٢١ــ **معاوية بن أبي سفيان**
تأليف: منير الغضبان

٢٢ــ **عدي بن حاتم الطائي**
تأليف: محيي الدين مستو

٢٣ـ **مالك بن أنس**
تأليف : عبد الغني الدقر
٢٤ـ **عبد الله بن مسعود**
تأليف : عبد الستار الشيخ
٢٥ـ **معاذ بن جبل**
تأليف : عبد الحميد طهماز
٢٦ـ **الإمام الجويني**
تأليف : د. محمد الزحيلي
٢٧ـ **القاضي البيضاوي**
تأليف : د. محمد الزحيلي
٢٨ـ **عبد الحميد بن باديس**
تأليف : مازن مطبقاني
٢٩ـ **تميم بن أوس الداري**
تأليف : محمد محمد حسن شراب
٣٠ـ **السلطان عبد الحميد الثاني**
تأليف : د. محمد حرب
٣١ـ **السيدة خديجة**
تأليف : عبد الحميد طهماز
٣٢ـ **زيد بن ثابت**
تأليف : صفوان داوودي
٣٣ـ **الإمام أبو جعفر الطبري**
تأليف : د. محمد الزحيلي

٣٤ـ **أبو موسى الأشعري**
تأليف : عبد الحميد طهماز
٣٥ـ **أبو عبيد قاسم بن سلام**
تأليف : سائد بكداش
٣٦ـ **أبو جعفر الطحاوي**
تأليف : عبد الله نذير أحمد
٣٧ـ **سفيان بن عيينة**
تأليف : عبد الغني الدقر
٣٨ـ **الحافظ ابن حجر العسقلاني**
تأليف : عبد الستار الشيخ
٣٩ـ **العز بن عبد السلام**
تأليف : د. محمد الزحيلي
٤٠ـ **عمر بن عبد العزيز**
تأليف : عبد الستار الشيخ
٤١ـ **الإمام القرطبي**
تأليف : مشهور حسن سلمان
٤٢ـ **سعد بن الربيع**
تأليف : محمد علي كاتبي
٤٣ـ **الإمام الغزالي**
تأليف : صالح أحمد الشامي
٤٤ـ **الإمام الزهري**
تأليف : محمد محمد حسن شراب

تحت الطبع

**ـ عبد القادر الجيلاني
تأليف : د. عبد الرزاق الكيلاني
**ـ الإمام البيهقي
تأليف : د. نجم عبد الرحمن خلف
**ـ الإمام مسلم بن الحجاج
تأليف : مشهور حسن سلمان

**ـ محمد بن الحسن الشيباني
تأليف : د. علي أحمد الندوي
**ـ أبي بن كعب
تأليف : صفوان داوودي
**ـ الإمام الذهبي
تأليف : عبد الستار الشيخ